كارلو سترينجر

الخوف من الأُفول

البحث عن المعنى في القرن الواحد والعشرين

ترجمة: حميد يونس





انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



الخوف من الأُفول

البحث عن المعنى في القرن الواحد والعشرين

الخوف من الأُفول

كارلو سترينجر

ترجمة: حميد يونس

ISBN:978-9953-65-169-9

الطبعة الأولى ٢٠٢٣



منشورات نابو في بغداد
Nabu Publishers
تلفون: 9647804423629
ص.ب: 5047 مكتب بريد الرشيد، بغداد، العراق
E-mail:nabu2018@yahoo.com
تلفون: 9647804423629
nabupub nabupub nabupub



مركز الأعمال - صندوق بريد 519251
مدينة الشارقة للنشر المنطقة الحرة
الشارقة - الإمارات العربية المتحدة
Email: info@daralkhayal.com
www.daralkhayal.com
dar.alkhayal dar.alkhayal daralkhayal_

كارلو سترينجر

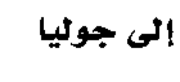
الخوف من الأُفول

البحث عن المعنى
في القرن الواحد والعشرين

ترجمة: حميد يونس






إلى جوليا



المقدمة

لحظتنا التاريخية

لو كان إيمانويل كانط بيننا وشهد لحظة يقظتنا، لأطلق عليها نوبة من نوبات «السبات الدوغمائي العميق»[1]. لكن على خلاف نوبات السبات الدوغمائي السابقات التي تحكمها المعتقدات الميتافيزيقية والدينية، والتي نقدها كانط في كتابه نقد العقل المحض (١٧٨١)، فإن عقودنا الأخيرة تمرّ بوصفها بمرحلة التخيّلات الطائشة للقدرة المطلقة والدوغمائية المسعورة للسوق الحرّة.

بعد سقوط جدار برلين في ١٩٨٩، دخل مؤيدو الأسواق الحرّة، الذين تولّوا زمام الاقتصاد في حكم رونالد ريغان ومارجريت تاتشر، وعاشوا نشوة الانتصار بعد زوال الشيوعية وتفكّك الاتحاد السوفيتي. سرعان ما سلموا إلى أن سقوط الاتحاد بشارةً على بزوغ نجم السوق الحرّة، حتى باتت الدين العالمي الوحيد الذي يتمتع بالصلاحية العالمية المطلقة[2]. تغيّرت بعد ذلك قيم كلّ شيء؛ بدءًا من الشركات إلى الأديان، ومن التسجيلات الموسيقية إلى الأفكار. لم يعد ثمّة شيء محدّد إلا اللهم أنظمة التصنيف ranking and rating systems

---

(١) يمكن استنساخ هذا الاستهلال الذي قدّمه إيمانويل كانط في ١٧٨٣ في أي مادة ميتافيزيقية مستقبلية تطرح نفسها على أنها علم. ولا أبالغ لو قلت ما هذه المقدمة، وهذا الكتاب ككلّ، ما هو إلا تأملٌ موسّعٌ لمقالة كانط الشهيرة «ما التنوير؟» التي نقد فيها الفكر التنويري في القرن الثامن عشر.

(٢) مايكل ماندلباوم، الأفكار التي غزت العالم: السلام والديمقراطية والأسواق الحرة في القرن الواحد والعشرين The ideas that conquered the world: Peace. democracy. and the free markets in the twenty- first century (٢٠٠٤).

مثل أسواق البورصة والمال، وقوائم أفضل الكتب مبيعًا، وعدد النقرات على الفيديو الفلاني أو عدد الزيارات إلى الموقع العلاني. كانت مسألة وقت قبل أن تطال أنظمة التصنيف البشر، وتتحوّل إلى مرحلة تسليعه، ومما لا شكّ فيه أن النظام المعلوماتي والترفيهي العالمي الجديد عجّل من هذا التسليع[1]. إذ كانت أحد أهم نشاطات النظام المعلوماتي والترفيهي أن يصنّف البشر ويحوّلهم إلى مشاهير عالميين يسهمون في الإعلان والتسويق. هكذا اختزلت الحياة الهائلة على أنموذجين: الثراء (بوصفه التقييم الكمّي لما لديك) والشهرة (بوصفها التقييم الكمّي لمدى معرفة الناس بك).

تحدّد أنظمة التصنيف الجديدة بحسب قيمة الفرد عبر مجموعة عوامل متغيرة كأن يصنّف البشر بحسب عدد الأصدقاء في موقع فيسبوك Facebook، أو عدد النقرات في موقع غوغل Google، أو بحسب قوائم التصنيف اللانهائية للأشخاص الأكثر تأثيرًا. والأكثر شهرة، والأكثر جاذبية، والأكثر سلطة، والأكثر ثراءً في المدينة الفلانية، ومن ثمّ في البلدان، وفي العالم أجمع. ثم وُلد الإنسان المعولم، ذلك النوع الغفير من الأشخاص ذوي الهوية المشتركة في النظام المعلوماتي والترفيهي العالمي. هكذا تحوّل الإنسان إلى إنسان معولم، وثمّ إلى سلعة، أي لم يعد الشخص صاحب الجيب، بل أصبح الجيب نفسه، الجيب الذي يباع ويشترى في النظام المعلوماتي والترفيهي.

تسبّب هذا التسليع خلخلة احترام الذات وتشكّك في الإمساك بحياة تستحق. وكانت النتيجة قلقاً وجودياً مستداماً لا ننفكّ نعالجه باستخدام الأدوية النفسية والنصائح الروحانية السطحية التي يلقيها مدربو التنمية البشرية والمبشرون الدينيون بأن الشهرة والثروة مسألة إرادة وشجاعة لا أكثر. لقد أيقظنا سقوط الأسواق المالية الحالي من الاعتقاد النيوليبرالي الذي يفترض

(١) أثار منظرو مدرسة فرانكفورت فكرة أن الرأسمالية تميل إلى تحويل الذات إلى سلعة منذ الثلاثينيات، بدءًا من هربورت ماركوزه. الإنسان ذو البعد الواحد One Dimensional Man (١٩٦٤). ولكن النظام المعلوماتي والترفيهي العالمي أسهم في تعجيل تحوّل البشر إلى سلعة حقيقية معاشة. إذ يستطيع بنو الإنسان المعولم أن يتحققوا من قيمتهم في سوق الأنا يوميًا عبر مراقبة النظام المعلوماتي والترفيهي وتبدلاته المستمرة.

بأن الرأسمالية تجسّد جوهر ما تعنيه الثروة. فقد تأكد للجميع، بعد أن أفلس مصرف ليمان براذرز Lehman Brothers، أن هذه الحقبة التاريخية بلغت نهايتها[١].

إن ضحايا عصر العجل الذهبي[٢]، والتي أقصد بها العقود التي سيطر عليها تسليع كلّ شيء، لم تقتصر على الاقتصاد فحسب، مع أن الخراب الذي حاق بحيوات عشرات الملايين ومعيشتهم أمر فظيع، إلا أن الضحية الحقيقية تتمثل في فكرة العالم الحرّ والمجتمع الحرّ قد انحرفت إلى عقيدة طائشة مفادها بأن الشيء المهم يجدر أن يكون قابلاً للقياس من الناحية الاقتصادية فقط. هكذا كان أول المتضررين هو المجتمع المفتوح الذي يستمد قوته من الفكر النقدي الحرّ والإرث التنويري الأوروبي العريق[٣].

إذن كيف يمكن معالجة وعكات الإنسان المعولم؟ سنحاول إعادة إحياء القيم الأساسية لما دافع عنه جون ستيوارت ميل في كتابه «عن الحرية»[٤] في التاريخ الثقافي والمعرفي للغرب[٥]. وأولى هذه الأفكار أن دراما النماء الإنساني،

---

(١) تقف حجة هذا الكتاب، جنبًا إلى جنب انتقادات الفكر النيوليبرالي الأخرى التي قدّمها بول كروغمان Paul Krugman، وجورج سوروس George Soros، ونوريل روبيني Nouriel Roubini، ولا أهدف من ذلك مناقشة أشكال الدولة، ولكن للحد من تأثير الرأسمالية على الطريقة التي نفهم بها الحياة ذات المعنى.

(٢) يقترح المؤلف مسمى (عصر العجل الذهبي) للقرن الواحد والعشرين بسبب التغييرات الثقافية والوجودية التي يعاني منها الإنسان المعولم والتي سيتطرق لها لاحقًا في الفصل الأول (المترجم).

(٣) يمكن تعداد كثير من الحركات التنويرية، مثل التي حدثت في الهند في القرن السابع، واليونان في القرنين الخامس والرابع، والعصر التنويري الإسلامي في القرن التاسع. وقد يكون في ذلك اعتذارًا؛ لأن الكتاب يركّز على الثقافة الغربية وتنويرها الأوروبي في القرن السابع عشر.

(٤) جون ستيوارت ميل. عن الحرية On liberty (١٨٥٩). وللاطلاع أكثر على دراسات حديثة عن مشروع جون ستيوارت ميل في كوامي أنتوني أبيا. أخلاقيات الهوية The ethics of identity (٢٠٠٥).

(٥) يقتصر طرح الكتاب على إعادة التفكير في جوانب الليبرالية الفردانية. ولا أريد أن أشير، كما فعل فوكوياما، إلى أن هذا السياق هو الخيار السياسي والأيديولوجي العالمي الأخير. لكنني أعتقد أن صورته الثمينة تحتاج إلى الاندماج مع رأسمالية السوق الحرة الأصولية للتعافي. انظر جون غراي. الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية المعولمة False dawn: The delusion of global capitalism (١٩٩٨). مع أنني أختلف مع غراي وأرى أن القيمة الحقيقية للتفكير المستقلّ Selbstdenken (المصطلح المحبب لدى حنة أرندت) أحد جوانب فكر التنوير الذي لا يرتبط بالضرورة بفكرة تفوّق الغرب على بقية الأجناس.

لا الســلعة الناتجة، هي جوهر الحياة الإنســانية. لقد جعلنا النظام المعلوماتي والترفيهي ننسى أن الحياة الإنســانية الحقيقية تضمن للأفراد شخصيةً وصوتًا ورؤى. الهدف أن نعيش حياة من صنعنا بدلاً من التكيّف مع متطلبات السوق العالمية. طوّرت الفلســفة الوجودية هذه الفكــرة حين افترضت أننا نعيش في قلق بين إرثنا الثقــافي والقدرة على انتقاده؛ بين رغباتنا وإمكاناتنا؛ والحاجة إلى تحويل المواد الخام في حياتنا، التي لم نخترها، إلى أخرى هي حياتنا حقًا. إننا مثل الحرفي ذي الســبع صنائع، الذي يبتكر حلولاً مع ما يجده في باحته الخلفية ولا يبتاع شيئًا من المتاجر التي قد تلبّي حاجاته. إن فردانيتنا نتاج كفاحنا لدمج هذه المقلقات، والعيش بسلام بدلاً من محاولة ترقيعها في وهم متناغم.

قــد يكون أصل الفكرة الثانية يوناني واقعًــا، أو لا أغالي لو قلت إن الفكرة محور العرف الفلســفي الغربي، تلك التي تفــترض أن بالإمكان تحرير عقولنا والوصــول إلى الحقيقــة. إن مجــاز أفلاطون عــن الكهف، وتشــبيهه البشر بالمخلوقات التــي تحكمهم ظروف الــولادة، وتجعلهم يخلطــون بين الواقع والخيال، خير رمزٍ للدافع الذي دعا كل الفلاســفة في كلّ العصور والثقافات للبحث عن أهمّ الرؤى التــي ننظر للعالم بها[1]. تبلوّرت هذه الفكرة وأخذت شــكلها النهائي في عصر التنوير الأوروبي، الذي عرَّفه كانط بأنه (عصر تحرير الإنســان من الوصاية التي فرضها على نفسه). يحتاج البشر ليكونوا أحرارًا أن يعالجــوا أهم قضايا الوجود في عملية من الجهــد الفكري الحثيث. تتنوع هذه الأسئلة من طبيعة الحياة الهانئة، وماهية المجتمع الصالح إلى كيفية التحوّل من الإيمان المعيــب إلى المعرفة الحقّة. عندما تغيب الرؤى المتســقة عن العالم فينا، تتحول حياتنا إلى بنية خاوية عطشــانة للمعنى؛ وعندمــا تفتقر حياتنا لمعايير الإقناع، لا يعود فينا شــيئًا نرســو إليه من رؤى بها يتناســب مع ما موجود في

---

(١) كانت أي إشارة إلى أفلاطون وحكاية الكهف الرمزية تثير الشكوك الثقافية والسياسية عند جمهور المحافظين في العقد الماضي، وترجع غالبًا إلى ليو شتراوس Leo Strauss، والذي أجده يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأيديولوجية النيوليبرالية لكلّ من وولفوبتز Wolfowitz، بيرل Perle، وغيرهم من المحافظين الجدد. انظر آلان بلوم. انغلاق العقل الأمريكي (١٩٨٧). لقد أظهر فرانسيس فوكوياما، وجون غراي، وستيفن سميث بما لا يدع مجالاً للشكّ أن لا يوجد أي أساس تاريخي لهذه الإشكالات (سأتطرق لذلك بإسهاب في نهاية الفصل السابع).

الســـوق من أفكار، والتي تتفاوت في جودتها وتتقلّب على وفق السوق نفسه. على الرغم من أنني لا أشكّ في إمكانية الوصول إلى أعمق مسائل الوجود فينا، إلا أنني أطمح الآن أن أدلّ على بداية السعي في هذه القضايا بدقة وجلاء.

يتبنى هذا الكتاب إعادة تقييم جملة «ما الذي يعنيه عيش حياة ذات قيمة؟». وكنت آمل أن يســـهم في تطوير مواطنة عالمية في أعمق معانيها[1]. على عكس الأشـــكال البراقة من الكوزموبوليتية[2]، فلا أطمح إلى منحى دنيوي ســـهل بتاتًـــا، ولكنني أدرك أن العولمة وصلت إلى مرحلـــة يصعب التغاضي فيها عن الانقســـامات في الدين والأيديولوجيا - ولا يمكن تحقيق هذه المهمة إلا حين نكون قادرين وراغبين إلى النظر في رؤانا كأنها مجرد صناعة إنســـانية وليســـت مقدسة.

تتطلـــب محاولات التواصل بين الأفكار المحوريـــة في ثقافاتنا عملاً مضنيًا، ويحـــدّد هذا الكتاب جوانب الانضباط العقلي المطلوب للعيش في عالم حرّ، كما أنه يفتح أفقًا لعيش حياة أثرى من الحياة التي يسوّق لها عصر العجل الذهبي.

يحاول هذا الكتاب أيضًا تشـــخيص علّة الإنســـان المعـــولم، ومن ثم يجادل جانبين متباينين ومتقاطعين في الوقت نفسه. إذ يحاول الجزء الأول من الكتاب التركيز على تشخيص محنة الإنسان المعولم. بحيث يرسم الفصل الأول الخطوط العريضة للتغيرات الثقافية والوجودية التي أحدثها النظام المعلوماتي والترفيهي العالمي من وجـــه نظر تنظيرية. نلاحظ في هذا الفصل عمق حاجتنا للشـــعور بأننا معرّفين لا مهمشـــين، وكيف تتجذر هذه الحاجـــة في طبيعتنا البيولوجية، بشهادات الفلسفة الوجودية ووريثها علم النفس الوجودي التجريبي.

يركّز الفصل الثاني على سمتين من سمات الثقافة العالمية التي يوفرها النظام المعلوماتي والترفيهي: مثل حملة شركة نايكي Nike الناجحة «أفعلها فحسب»

---

(١) لقراءة مستفيضة عن التطبيق المعاصر للمفهوم الرواقي للمواطنة العالمية انظر مارثا ناسباوم. الإنسانية المتحضرة Cultivating humanity (١٩٩٥) (سنناقش الموضوع أكثر في الفصل الثامن).

(٢) لا يشترط أن يستعمل المصطلح على نحوٍ ازدرائي، لكنه يشير إلى ما أعنيه بعبارة «المواطنة العالمية». انظر كوامي أنتوني أبيا. الكوزموبوليتية: الأخلاق في عالمٍ من الأغراب Cosmopolitanism: Ethics in a world of strangers (٢٠٠٦).

Just do it، والتي احتفلت بعيدها العشرين في ٢٠٠٨، لإظهار كيف أنها تجسّد روح العصر (كلّ شيء ممكن تحقيقه)، وأهم شيئين هما الشهرة والثراء، وكلاهما قابلان للقياس والتقييم والتصنيف في كلّ مكان في العالم.

يجادل الفصل الثاني بأن هذه التصنيفات دعت الإنسان المعولم إلى الشعور بأن مكانته يمكن تحديد قيمتها، ويمكنه العيش في خوف من فقدان مرتبته في قائمة المشاهير الأكثر ثراءً وجاذبيةً وجمالاً، ومن ثمّ تبرز معضلة الخوف الدائم من الأفول وأن يكون الفرد نكرة[1].

يحلّل الفصل الثالث بعض الموارد التي عبرها يحاول بنو الإنسان المعولم التخلص من خوفهم المستمر من الأفول: ثقافة التنمية الذاتية والروحانية الشعبوية. إن منتجات هاتين الظاهرتين تستند على أسس فكرية مهتزة (بعبارة ملطفة)، وتجادل بأن الرؤى القلقة وغير المتماسكة لا يرجح أن توفر معنى القيمة الدائمة. وإن مذهب النسبية relativism الذي يجعل من ثقافتنا متسامحة بإفراط يخلو من البنية الفكرية المتماسكة.

هكذا يتفرع الكتاب في اتجاهين: يقدّم الجزء الثاني بديلاً وجوديًا لمفهوم الذات التي روّجت لها ثقافة «افعلها فحسب» التي تطرقنا لها في الفصل الثاني. ويدعو الجزء الثالث إلى إعادة تأسيس ثقافة المنطق بوصفها ترياقًا للفلسفة النسبية الطائشة التي تطرقنا إليها في الفصل الثالث.

يطوّر الجزء الثاني صورة وجودية عن الفردانية تختلف تمامًا عن «افعلها فحسب»، ويجادل بأن المهمة المحورية للأفراد أن يشكلوا المادة الأساس للحياة التي تبلور صورة متماسكة تمثل حياتنا. وبذلك ينتقد الفصل فكرة أن جوهر الفرد محدد بالعرق، أو الدين، أو الأصل، أو الجنس، وما إلى ذلك من محددات

(١) أود أن أشير هنا إلى أن الكاتب افترض أن معضلة الإنسان في القرن الواحد والعشرين الذي يتعرض يوميًا إلى مئات الأخبار والصور والمعلومات في عالم مصاب بسعار الشهرة والظهور تتمثل في السعي المستميت إلى الخلود في هذا النظام المعلوماتي والترفيهي العالمي، ويقترح لذلك اسم The Fear of Insignificance، أي الخوف من أن يكون الفرد نكرة. ولأن اشتقاق مفردة insignificance يحمل في طياته ثقل استنطاق. كان رأي كثير من اللغويين الأصدقاء أن المفردة الأقرب لها هي (الأفول)؛ إذ إن الفعل أفَلَ يعني غاب، وأفل الشخص اسمه أي لم يعد حديث الناس، وأفل نجمه يعني فقد شهرته وأقصي واستبعدت عنه الأضواء (المترجم).

الهوية العصرية. ويطرح دعوة بديلة تتمثل في الفردانية الانعكاسية؛ ويجدر بكلّ فرد أن يقرّر ما الموضوعات المحورية في حياتنا، ولا يقبل أن تتحد هويته بكلمة يهودي أو مسلم أو مثلي أو امرأة أو أسود البشرة أو ما إلى ذلك.

يبّين الفصل الرابع أن جميعنا ولدنا في أسرة وثقافة ولغة لم نخترها. وكان علينا أن نختار ما تتقبله تربيتنا وخلفيتنا، وما علينا أن نرفضه، وكيف نحوّل حياتنا إلى شيء من صنيعنا. غالبًا ما تكون هذه المهمة متضاربة وشاقة. لذلك يطرح هذا الفصل فكرة أن الحياة الهانئة لا تعتمد على حلّ هذه الصراعات، ولكن أن تعيشها بكامل أيامها وإنتاجيتها، ويطرح مجموعة من الأمثلة مثل الرئيس الأمريكي باراك أوباما، والكاتبة أيان علي هيرسي، والروائي فيليب روث.

يجادل الفصل الخامس بأن ثقافة «افعلها فحسب» مستحيلة التطبيق على حياتنا؛ لأنها ادّعت أن كلّ شيء ممكن، ويمكننا تبني أي شيء نحبه. وذلك أمر مغلوط لا شكّ فيه، إننا نحتاج التركيز على معالجة نقاط قوتنا وضعفنا فقط. بينما شعار أديداس Adidas يفترض «لا شيء مستحيل»، لكن لدينا جميعًا قيودًا. إن إدراك وجود القيود ليس بالاستسلام. لذا يقترح الفصل أن مفهوم تقبّل الذات الفاعل قد يقود إلى تصور إيجابي عن فردانيتنا مع طاقاتها ومحدداتها.

يناقش الفصل السادس السؤال «إن لم يكن كلّ شيء ممكنًا، كيف نحدّد ما المهم في حياتنا؟ كيف ندرك ما الذي يهمنا حقًا؟». لقد أمست هذه العملية شبه مستحيلة؛ لأن الثقافة تقدر الشباب أكثر من أي شيء آخر. ويجدر بنا أن نكون ناجحين في وقت مبكر جدًا، ومن ثم فإن عملية اكتساب معرفة الذات باتت شبه مستحيلة. لذا يحاول الفصل أن يوضّح في أمثلةٍ كيف أن الوصول إلى معرفة الذات تحتاج زمنًا في شكلٍ ما.

يعمد الجزء الثالث من الكتاب إلى مهاجمة الفلسفة النسبية ومقارعة الرؤى العصرية في العقود الماضية. يهدف الفصل إلى تطوير سيكولوجية عقلية وعاطفية للمواطنة العالمية كي نعيش في عالم متداخل ومترابط. فإذا عجزنا،

نحن بنو الإنســان المعولم، عن السيطرة على مصيرنا، فإن الإنسانية على وشك تدمير نفسها بنفسها. إن إشراك أنفسنا في شؤون العالم واستثمار الوقت والجهد في فهمهـا يمثل أساسًـا لعيش حيـاة ذات قيمة ومعنى بدلاً مـن التوجه إلى الروحانية الشعبوية.

يُظهر الفصل السابع الجانب السـلبي الكبير لمفهوم «الصوابية السياسية»، فكرة أن المعتقدات يجب أن تُحترم لمجرد أن شـخصًا مـا يعتنقها، بغض النظر عن مدى لاعقلانيتها أو سـخفها أو عدم اتسـاقها. دفع هذا التسامح إلى حدّ سـمحت به الأديان خيوطًا أصولية متطرفة أسهمت في خلق أزمات كارثية في العالم. يدعو هذا الفصل إلى تبني منهج التعليم الليبرالي الذي يرتضي أن نكون مواطنين كفوئين في هذا العالم وكفى.

يعالج الفصل الثامن أحد الأسباب العميقة التي تجعل الإنسان المعولم ينأى بنفسـه عن مناقشـة الرؤى العالمية: إذا كان النقاش عن الدين لا يوصلنا إلى مكان ما، فما الداعي إذن؟ وعلى هذا النحو ولدت فكرة الصوابية السياسـية؛ إننا نحتاج إلى احترام بعضنا بعضًا؟ لكنني أجادل أن ذلك مسـتحيل نفسـيًا: كيف نستطيع احترام المعتقدات التي نراها تافهة أو لا عقلانية أو غير أخلاقية؟ لذا اقترح بديلاً لأيديولوجيا الصوابية السياسـية أطلقت عليه اسم «الازدراء المتحضر»، وأقصد بذلك أننا نحترم الآخر إنسـانيًا، ونسـمح في الوقت نفسه بالازدراء تجاه ما يحمل من معتقدات نراها غير مقبولة.

يطرح الفصل التاسع السؤال الأخير، إلى أين نمضي؟ لقد أظهر علم النفس الوجودي أن البشر لا يرجح أن يتخلون عن معتقداتهم مهما كانت هدّامة أو لا عقلانية. هل نحن ملعونون إذن بخراب الكوكب بالحروب والإرهاب والدمار البيئي؟ يقدم الفصـل المبدأ اللاصفري الفاعل في التطور البيولوجي والثقافي: قد تكون المواقف اللاصفرية أكثر قابلية للتكيّف من المواقف الصفرية. ذلك ما جعل الكائنات والثقافات تتطوّر وتمسي أكثر تعقيدًا. ولكن ما النهاية يا ترى؟ أمسـتقبل البشر متجه نحو اللاعقلانية أم اللاصفرية؟ لا ندري. لذلك أدعو في نهاية المطاف بني الإنسـان المعولم أن يراهن عـلى المبدأ اللاصفري من أجل التحالف في مواطنة عالمية، ومن ثمّ تحمّل المسؤولية الكوكب والعالم أجمع.

الجزء الأول

هزيمة العقل

الفصل الأول

سنوات العجل الذهبي[1]

يعتقد كثيرون أن ١١ سبتمبر في ٢٠٠١ فاتحة القرن الواحد والعشرين، ولا مراء أن مثل هذا الاعتقاد يخلق إشكالية كبيرة عند المؤرخين المستقبليين؛ لأن الحجة السائدة تقول إن القرن العشرين انتهى مع سقوط جدار برلين في ١٩٨٩. لكن ما بال السنوات التي تقع بين ١٩٨٩ و ٢٠٠١؟ برأيي أن هذه السنوات كانت المدة الوجيزة التي ظنّ فيها الغرب أن قيمته وثقافته قد انتصرتا على بقية القيم والثقافات، دلالة أطروحة فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama التي أدّعى فيها أن التأريخ قد بلغ منتهاه وأن استيلاء الغرب على العالم بات قاب قوسين أو أدنى من التحقق[2].

---

(١) العجل الذهبي (بالعبرية עגל הזהב) الذي عبده بنو إسرائيل حين غاب النبي موسى عنهم وذهب يناجي ربّه على جبل سيناء «وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ» سورة الأعراف ١٤٨. يرمز عجل بني إسرائيل الذهبي هذا إلى كلّ ما يعبد من دون الله أو ما يصرف المرء عن عبادته مثل: عبادة الجاه، والرئاسة، وتقديس الأشياء ونحو ذلك (المترجم).

(٢) انظر فرانسيس فوكوياما. نهاية التأريخ والإنسان الأخير (١٩٩٢). لا شكّ أن فرانسيس فوكوياما لم يكن يفهم أطروحته بهذه الطريقة. كان يحاول إحياء فكرة هيغل بأن ثمة مرحلة نهائية يصل فيها النظام السياسي إلى حالة من التوازن بين جميع النزاعات (تجاوز التناقضات aufgehoben باستعمال اصطلاح هيغل). فضلاً عن ذلك، لم يكن فوكوياما قانعًا بما آلت له هذه العملية التاريخية، التي عدّها، مثل نيتشه، بمثابة استيلاء القيم البرجوازية التي لم تكن بالملهمة خاصة (الإنسان الأخير). أوضح جون غراي في حجة متينة أنه وعلى الرغم من أن النتيجة لم تكن في نيّة فوكوياما، لكنها آلت إلى حجة أن النهاية عبارة عن شكل من أشكال الانتصار الغربي. انظر جون غراي. عبدة الشيطان: الدين التنبؤي وموت اليوتوبيا (٢٠٠٧).

تكفي حادثة ١١ سبتمبر وحدها أن تكون مؤشرًا على عمق الحاجة الإنسانية للهوية والمعنى؛ لأننا لو تمعنا في ظاهرة تنظيم القاعدة ومرتكبي أحداث ١١ سبتمبر من وجهة نظر نفسية بحتة لوجدنا خللاً واضحًا في الفكرة القائلة إن الرأسمالية والديموقراطية كافيتان لإشباع الحاجة الوجودية للإنسان. لم يكن محمد عطا وأتباعه في تنظيم القاعدة مجموعة جهلاء أو ذوي فاقة. لقد تعارفوا على بعضهم واقعًا في أثناء دراستهم في الجامعات الغربية. وكانت دوافعهم للانتحار، وقتل آلاف الضحايا الأبرياء نابعة من المقت الشديد لما عانوا منه من سياسات السلطات الأمريكية، وما سببته من إذلالٍ وإقصاء لهم، ولصورة الإسلام من وجهة نظرهم.

عندما رحّبت الجامعات الغربية بهم، لم تكن تطلب إلا أن يكتسبوا خبرات معرفية وتكنولوجية ضمن نطاق مؤسسات التعليم العالي. لكن تضارب أفكارهم مع الأفكار الغربية خلق فجوة غير متوقعة، لذلك لم يستطيعوا تجاوز مشاعر الازدراء والكراهية تجاه التحرّر الغربي والنزعة المادية والغرائزية (التي وجدوها مفرغة من التفكّر والروحانية). وعندما دعا أسامة بن لادن لتطهير الإسلام من النفوذ الغربي المنحط، وجدوا في دعواه معنى لما كان يعتمل في صدورهم، ولبّوا النداء الذي يقول: «لابدّ أن يعرف العالم أن الاستبداد والفوقية الغربيتين مجرد زيف وترّهات، وأن الإسلام حتمًا سينتصر في نهاية المطاف».

من السهل أن نهمّش ظاهرة الإرهاب الانتحاري، أو نعدّها مرضًا نفسيًا معنّدًا، لكنّ الدراسات بيّنت خلاف ذلك[1]: إذ لم تجد المقابلات المعمّقة مع الانتحاريين الذين فشلت محاولاتهم أي خللٍ نفسي يمكن تكهنه في الشخص المقدم على الانتحار. وما فعْلُ التفجير الانتحاري، على الرغم من تطرّفه، إلا تعبير عن عمق الحاجة الإنسانية للمعنى. لا نحتاج -نحن البشر- إلى شيء بقدر حاجتنا للشعور أن حياتنا تستحق أن تُعاش.

---

(١) سكوت أتران. نشأة الإرهاب الانتحاري The genesis of suicide terrorism. مجلة العلوم. ٢٩٩، ص ٢٣٤-٢٣٩.

تعـــود جذور هذه الرغبة إلى زمـــن بعيد من تأريخنا التطـــوّري، فقد قفز الجنس البـــشري في مرحلة ما من تطوّره عدّة مراحـــل انتقالية، وربما كانت اللحظـــة المفصلية في التطوّر حين تحـــوّل من مجرد حيوان ذكي إلى إنســـان مكتسبٍ لمفهوم الموت، أو حين أدرك حقيقة أن الكلّ محتوم بالموات[1].

ثمة جدل طويل يفترض أن هذه اللحظة جعلت جنســـنا بشرًا متكاملين. اتفق الفلاســـفة من مختلـــف الثقافات والعصور أن القـــدرة على الجمع بين العيش، وإدراك حقيقة الموت شيء بالغ الأهمية من أجل عيش حياة كريمة. وعلى خلاف كثير من الأطروحات الفلســـفية الأخرى التي لم تغطِ إلا جزءًا فقيرًا من التأريـــخ الفكري والثقافي، فإن فكـــرة إدراك حقيقة الموت، أو ما يعرف في علم النفس ببزوغ الفناء mortality salience، واحدة من ســـمات حيواتنا التي تتسم بمصداقية تجريبية حقيقية.

زعمت الفلســـفة الوجوديـــة في القرن العشرين أن عمليـــة التصالح مع النهاية مغروســـة في صميم الوجود الإنساني، ذلك ما جادله مارتن هايدغر Martin Heidegger في كتابـــه «الكينونـــة والزمـــان» في ١٩٢٧ وجان بول ســـارتر Jean - Paul Sartre في كتـــاب «الوجود والعـــدم» في ١٩٤٣. فقد حلّل كلٌّ منهما معظم البنى الأساســـية للوجود الإنساني؛ إذ أوضح هايدغر رؤياه بأســـلوبه المتفرّد حين قـــال: إن الدازايـــن Dasein (المصطلح الذي اقترحه للدلالة على الوجود الإنســـاني الذي يعني حرفيًا «أن تكون هناك») متشـــبث بالعدم واللاشيء، وأوضح جانبين مرتبطـــين بالدازاين؛ أولاً: إن الإنســـان، ســـواء أكان واعيًا أو غير واعٍ، يتخذ خياراتٍ باســـتمرار، وكلّ خيار يتخذه يمنع مســـار أفعال معيّنة أو ســـيناريوات حياتية من أن تحدث. ثانيًا: يمتاز الوجود الإنســـاني بإدراك حقيقة أنه فانٍ، أي إننا ندرك أن وقتنا محدود، وأننا ميتون في نهاية المطاف. وذلك يســـلّط الضوء على تأثير الطبيعة الحتميـــة لخياراتنا. والأمر لا يقتصر على أننا لا نمتلك الســـيطرة على المضي في الاحتمالات عبر اختيار ما نقوم به فحســـب، ولكن ليس لنا السيطرة على

---

(١) أرنست بيكر. إنكار الموت The denial of death (١٩٧٣).

مقدار الوقت الذي يفترض أن نعيشه أيضًا، أو عدم إمكانية إعادة العيش من جديد، إن جاز التعبير، من أجل تجريب خيارات أخرى. كانت إحدى أعمدة فلسفات هايدغر ترتكز على أن إدراك النهاية وإدراك الحرية يخلقان بلا شك قلقًا وجوديًا، والذي يصعب تحمله لدرجة أننا غالبًا نحاول تجنّب هذا الإدراك. فإننا – وفقًا لمصطلحات هايدغر – نعيش في حالة من الزيف والوضاعة و«اللا-أصالة»، وبدلاً من أن نكون مدركين للنهاية والحرية، نعيش وكأن لا مناص، أو كأن العادات، والأعراف، والتوقعات، والرؤى تحدّد ماذا نكون تمامًا. وهذه «اللا-أصالة» عبارة عن وسيلة دفاعية تسمح لنا أن نعيش حياتنا من دون أزمة القلق الوجودي العصيب[١].

لم تعد الفلسفة الوجودية رائجة كما كانت في العقود السابقة؛ لأن تركيزها على البعد المأساوي للحياة الإنسانية لا يتوافق مع ثقافة التفاؤل التي تفترض أن القلق يصيب ضعاف النفوس ولا بدّ من معالجته دوائيًا، فضلاً عن النماذج الكبرى من فلسفات التحليل النفسي، كان لا بدّ للفلسفة الوجودية أن تُقصى إلى رفوف التأريخ الفكري، تلك الرفوف التي لم يعد يدرسها إلا قلّة من الطلبة المشغولين عادةً بالحصول على درجات تعطيهم شهاداتٍ تؤهلهم لمهنٍ مربحةٍ بأسرع وقت ممكن.

وبينما كانت الثقافة العامّة مشغولة بالتهرّب من الأزمات الاقتصادية، استعادت الفلسفة الوجودية تدريجيًا روحها بمحض الصدفة في الأوساط الأكاديمية. فقد أوضح إرفين يالوم[٢] Irvin Yalom أن الوجودية يمكنها أن توفّر إطارًا قيّمًا للمعالجة السريرية. وكانت أفكار عالم الأنثروبولوجيا Ernest Becker في كتابيه إنكار الموت (١٩٧٤) والهروب من الشيطان (المنشور بعد موته في ١٩٧٥) قد أعادت صياغة الأفكار الجوهرية للفلسفة

(١) هذه الثيمة أعاد روبيرت ستولرو Robert Stolorow فحصها على نحو فينومينولوجي في كتابه (الصدمة والوجود الإنساني: الانعكاسات الشخصية الذاتية والتحليلية السريرية والفلسفية Trauma and human existence: Autobiographical. clinical. and philosophical reflections (٢٠٠٧).

(٢) انظر إيفين يالوم في كتابه العلاج النفسي الوجودي Existential psychotherapy (١٩٨٠).

الوجودية بطريقة أقرب للبيولوجيا التطوّرية. يجادل بيكر أن التطوّر خلق وضعًا مستحيلاً للجنس البشري، بمعنى أننا لا نختلف عن بقية الحيوانات، ونرتعب من أي شيءٍ قد يؤدي إلى موتنا. لكننا نختلف عن بقية الحيوانات؛ لأننا نعرف حقيقة موتنا، ولكن لا نستطيع تحمّل هذه المعرفة. ترتكز فرضية بيكر على فكرة أن إنكار الموت من أقوى الدوافع التي تحرّك الجنس البشري. لكن كيف نستطيع إنكار شيءٍ نفقهه سلفًا؟ الإجابة على هذا السؤال أن الإنسان يعمد إلى تبني رؤى[1] معروفة كي يشعر أنه غير مفضوح أمام حقيقة الموت العارية والمرعبة في الوقت نفسه. وتساعد هذه الرؤى في أمرين اثنين: الأمر الأول أنها تزوّد الإنسان بمعنى لحياته، أو تجيب عن سؤال ما الغرض من وجودنا هنا؟ وكيف نقوم بتشكيل حيواتنا؟ والأمر الثاني أن هذه الرؤى تشعرنا بالأمان حين نكون جزءًا من كلٍّ عظيم؛ لأن الانتماء إلى مجموعة فريدة ذات قيمة (دين، أو أمّة، أو عرق)، كما تحددها الرؤى، تشعرنا بقيمة خاصّة، ومن ثمّ تعزز من احترامنا لذواتنا. لقد ظهر في أواخر الثمانينيات منهجٌ بحثيٌ جديدٌ في علم النفس الاجتماعي ونظريات الدوافع والشخصية يرتكز على أفكار بيكر أُطلق عليه اسم «علم النفس الوجودي التجريبي»[2].

---

(١) يدل مصطلح الرؤى العالمية Worldview على طريقة ترجمة الفرد للعالم بأكمله وفهمه ككلّ، أي إن الرؤى العالمية (اختصارًا سنكتفي بكلمة الرؤى بين سطور الكتاب) مجموعة من المعتقدات الكونية المتناسقة عن الإنسان فردًا والمجتمع والكون والوجود كلًّا عبر تفاعل الأفكار التي يعتنقها الفرد ويعرفها عن ذاته والآخرين والعالم الذي يعيش فيه، أي إن الرؤى تحدّد داخل الثقافة نفسها وليس خارجها كما شأن بقية الدراسات الاثنوغرافية والأنثروبولوجية.

على الرغم من أن ديلثاي Wilhelm Dilthey أول من صاغ مصطلح Weltanschuung، بمعنى الرؤيا العالمية World View، إلا إن الفضل في توضيح المصطلح وطرحه يعود إلى ماكس فيبر. نعم، قد يختلط مصطلح الرؤيا العالمية بمصطلحات أخرى مثل النظرة Vision، أو الصورة Image، أو التوجّه Orientation، أو المنظور Perspective، أو نحو ذلك. كذلك يعود الفضل لروبرت ريدفيلد Robert Redfield في بلورة «الرؤى» وتحديد معناها وخصائصها، إذ يضع ريدفيلد الرؤى في إطار تنظيري عام ضمن مجموعة من المكونات: الذات، والآخرين من البشر، وغير البشر من كائنات وطبيعة، والزمان، والمكان.

(٢) انظر غرينبيغ ومجموعة باحثين. علم النفس الوجودي التجريبي Handbook of experimental existential psychology (٢٠٠٤). ويمثل هذا الكتيب مجموعة مميزة من المقالات التي تلخص نتائج علم النفس الوجودي التجريبي وأفكاره حتى الآن.

وكان علم النفس الوجودي التجريبي اســتثنائيًا جدًا بسبب قدرته على تحويل النظريات الفلســفية إلى نظريات تجريبية يمكن تطبيقها مختبريًا مع نجاح مبهر بامتياز. وربما نعمد إلى عرض بعض نتائجه في سياق هذا الكتاب.

يعدّ الركن الأســاس في علم النفس الوجــودي أن الحيوان الذي يدرك أن وقته محدود فقط يحقّ له أن يتساءل «هل أعيش حياة تستحق أن تُعاش»؟ وهذا الحيوان فقط يحقّ له أن ينشــغل بالتســاؤل في ما إذا كانت حياته ككلّ كريمة وغزيرة وناجحة؟[1] قد يخفي هذا التســاؤل تســاؤلًا آخــر لا يمكن قبوله، وأقصد بذلك التساؤل عن إدراك مضي الوقت وحقيقة الموت.

في نظرية الســيطرة على الرعب Terror Management Theory[2]، والتي تعدّ واحدة من أنجع نماذج علــم النفس الوجودي التجريبي، وُجد بما لا يدع مجالاً للشكّ أن البشر يســتثمرون طاقات جبّارة من أجل إنكار الموت، بل إن إنكار الموت واحــدٌ من أقوى الدوافع التي تحرّك النفــس البشرية، أي إننا لا نستطيع تقبّل فكرة أننا محتومون بالموت والموات.

الوظيفة النفسية لتقدير الذات وتبني الرؤى

تســاعد عملية تبنــي الرؤى على ما يطلق عليه أرنســت بيكــر بـ «الخلود الرمزي». فكلّ رؤيا نتبناها تُشعرنا أن الانتماء للمجموعة ومهمتها في الأرض يعزز من اســتمرارنا بعد موتنا الفــرداني، إذ إن الانتماء إلى مجموعة ذات مهمة واضحة دائمة يشــعرنا أن جزءًا منّا ســينجو بحياته بعد الموت المادّي، ويهوّن علينا من الشعور المربك الدائم أننا مجرد ذرّة نكراء في كونٍ فسيح لا يكترث بنا.

إن إنــكار الموت هو المســؤول عن أعظم المنجــزات البشرية، وعن أكثر الســمات فظاعة في الوقت نفســه: الأفعال التي دفعــت إلى بناء الصروح، وتشــييد الكاتدرائيات، وكتابة الروائع الأدبية، وإبداع الفنون، هي نفسها الأفعــال التي دفعــت إلى إذكاء الحروب والتفجــيرات الانتحارية. جميعها

---

(١) انظر آرنست بيكر. كتاب ولادة المعنى واحتضاره (١٩٧١)، وكتاب إنكار الموت (١٩٧٣).

(٢) انظر غرينبيغ ومجموعة باحثين. في يقظة ١١ سبتمبر: سيكولوجية الإرهاب In the wake of ٩/١١: The psychology of terror. جمعية علماء النفس الأمريكية (٢٠٠٣).

ترتبط بحاجتنا لحماية أنفسنا من الفناء[1]. لو كان مقدرًا لأحداث ١١ سبتمبر أن تثبت شيئًا، ذلك أن الإنسان مستعدّ لقتل نفسه وإزهاق أرواح آلاف الأبرياء لسببٍ واحدٍ فقط: لإثبات رؤى قد تضيف له ولحياته معنى ما.

يوضّح علم النفس الوجودي أن ثمة طرقًا ثلاثة يمكن اتباعها لنحمي أنفسنا من مهابة حقيقة إدراكنا للموت: أول هذه الطرق أن نعمد إلى الارتباط بأشخاص معرّفة مثل: الزوج، والعائلة، والأصدقاء المقرّبين[2]. ثانيًا، أن نزيد من احترام ذواتنا. ثالثًا، أن نتبنى رؤىً ثقافية تضفي على حيواتنا معنى[3].

وترتبط هذه العناصر الثلاثة مع بعضها بعضًا ارتباطًا تطوّريًا، إذ إننا نعتمد في الطفولة على البالغين اعتمادًا كلّيًا كي يرعوننا. ويوفر لنا تعبيرهم عن الحبّ والدعم إحساسًا بأننا في مأمن ومنأى عن مخاطر العالم. وكلما نكبر وننضج وتتوسع مداركنا الاجتماعية، يتوقف أولياء الأمور (الأبوان غالبًا) عن كونهم المرجع الوحيد لنا. فتتحول ردود الأفعال الإيجابية التي نتلقاها من محيطنا المتوسّع حاجة ضرورية كي نقدّر ذواتنا، مما يعزّز من إحساسنا بالأمان[4]. وتزداد دائرة محيطنا باستمرار كلما كبرنا؛ من معلمة الروضة ومجتمع الرفاق القلائل، إلى مجتمع الفصول الدراسية، أو المدرسة كلّها، إلى منظمات الشباب، والزملاء، والأساتذة في الجامعة، وهلمّ جرّا.

(١) انظر غرينبيغ ومجموعة باحثين. إدراك الإنسان للموت وتطوّر الثقافة Human awareness of death and the evolution of culture (٢٠٠٣). The psychological foundations of culture (١٥-٤٠).

(٢) لم يتعامل هذا الكتاب مع هذا العامل على الرغم من أهميته، انظر فيكتور فلوريان، وماريو ميكولينسر. منظور متعدد الأوجه للمعاني، والمظاهر، والنتائج الوجودية عن الخوف من الموت A multifaceted perspective on the existential meanings. manifestations. and consequences of the fear of personal death. (٢٠٠٤) (ص ٥٤-٧٠)

(٣) انظر تحوّل العلاقة الحميمية. (١٩٩٢)، زيغموند باومان الحب السائل: عن هشاشة الأواصر الإنسانية (٢٠٠٣).

(٤) انظر غرينبيغ ومجموعة باحثين. إدراك الإنسان للموت وتطوّر الثقافة Human awareness of death and the evolution of culture (٢٠٠٣). The psychological foundations of culture (١٥-٤٠).

ومـا أن ننتمي إلى مجموعة، أو لا ننتمي، حتى تبرز مسـألة ثانية؛ ويحمل تقدير الذات عنصر المقارنة الـذي لا فكاك منه. من المعروف أيضًا أن لدى الثدييات صمام أمان يمنعها من الاقتتال حتى الموت من أجل السيادة. عندما يخسر الذكر معركة لصالح الذكر الألفا، ينحدر معدل هرمون التستوستيرون Testosterone (ترتبط الهرمونات الجنسـية الذكورية، من بين أمور أخرى، بمدى تقدير الذات والعدوانية)، ويقلّ كذلك الناقل العصبي السيروتونين Serotonin الذي ينظّم المزاج[1].

يتجلى هذا الانحدار الهرموني في لغة جسـد المهزوم، بحيث تبدو أمارات التخاذل واضحة عليه، ويبدو كما لو أنه يدرك أن الأجدر به أن يتنحى. وتعدّ هذه الآلية، التي تسبب حالات اكتئاب طفيفة وعابرة، ذات أهمية كبرى، إذ إنها تجعل الحيوان ينسحب من الاقتتال، ويتنحى عن منصبه، ومن ثمّ يُكفّ الأذى الجسدي، أو يمنع الموت الذي قد ينجم من هذا التحدي المستدام.

ولاشـكّ أننا نلاحظ ذلك في سياق حيواتنا؛ إذا أدرت التلفاز على مباراة كرة التنس، لـن تلقى صعوبة في التعرّف على اللاعـب الأفضل حتى لو لم تشـاهد النتيجة بعد. فإن كان أحد اللاعبين أفضل من غريمه، تبدو حركاته رشيقة وينطّ في سـاحة الملعب، وتبدو نظراته ثاقبة وقوامه واثق راكز. بينما يبدو اللاعب الآخر محبطًا، ومتوترًا، ومهزوزًا، ومهزومًا في أسوأ الأحوال.

لقد ورثنا – نحن البشر– من أسـلافنا الأقدمين نزعتهم الطبيعية للسعي نحو السيادة على الآخر وهزيمة الخصوم. يرتفع معدل هرمون التستوستيرون وأقل من ذلك في السـيروتونين في اللاعب الفائـز، في حين يعاني اللاعب الخاسر من انحدار ملحوظ. ينطبق الشيء نفسه على فسيولوجيا الشخصين اللذين يتنافسـان على الترقية الوظيفية؛ لأن تقديـر الذات في العصر الحالي لا يحتاج إلى منافسـة مباشرة. هنا يبرز السـؤال الذي يطرح نفسه: ما مجال المنافسة الخاصّ بك أنت؟ وما المعايير التي بموجبها يمكن أن تقيّم نفسك؟

---

(١) لقراءة الموضوع باستفاضة أكثر، انظر: ديفيد بوس. علم النفس التطوّري (٢٠٠٤). أو يمكنك قراءة مقدمة مقتضبة عن الموضوع لدى روبرت رايت. الحيوان الأخلاقي (١٩٩٤).

وما المجموعة التي تشعر حين تنتمي لها بما تطمح له من مكانة؟ وبمن تقارن أنت نفسك؟

بزوغ الإنسان المعولم[1]

لقد تغيّر الإطار المرجعي للمقارنة تغيّرًا جذريًا في العقود الأخيرة. فقد أمست العولمة، التي بدأت في الثمانينيات مع تحرّر الأسواق المالية، حقيقة ملموسة لأي شخص لديه تعاملات استثمارية في ١٩ أكتوبر ١٩٨٧، أو ما يُعرف تأريخيًا باسم «الاثنين الأسود»؛ إذ حدث هبوط رهيب في بورصة الأسواق في هونغ كونغ، وانتقل سريعًا عبر المناطق الزمنية ليضرب الدول الأوربية مرورًا بوول ستريت، وهبط مؤشر داو جونز الصناعي فيها ٢٢,٦٪ في يومٍ واحدٍ فقط.

شعر كثيرون بتأثير العولمة في بدايتها بطرق لم تكن بالضرورة مفهومة. كان الترابط العولمي، في مراحله الأولى مفهومًا في نظر أصحاب القرارات الاستراتيجية فقط، لذلك قاموا بنقل وظائف التشغيل إلى بلدانٍ ذات عمالة أرخص، في حين لم يفهم العمّال الذين خسروا وظائفهم سبب حدوث ذلك. وحدث المثل للمحامين والمحاسبين الذين كانوا منغمسين بوظائفهم من دون أن يقلقوا بالتوجه العالمي الجديد، لكن سرعان ما انصدموا بظهور شركات المحاماة العالمية وعمالقة المحاسبة مثل آرنست ويونغ Ernst & Young وكي بي أم جي KPMG اللتين يستحيل التنافس معهما.

وسرعان ما أصبح الوعي المعولم واقعًا لأي شخص لديه تلفاز الكابيل. ثم وقعت حرب الخليج، أولِ غزو للعراق في ١٩٩١، وشارك فيها كثير من المراسلين الذين نقلوا في بثٍّ واقعي بحيث استطاع المشاهدون في العالم أجمع مشاركة الجنود تجربتهم بينما يتحركون إلى الكويت والعراق، وأمسى جليًا أيضًا أن ما يحدث في بقعة أرض مجهولة لا يمكن تمييزها على الخارطة له آثار في كلّ مكان.

---

(١) ابتدع الكاتب مصطلح «الإنسان المعولم» Homo Globalis دلالةً على النوع البشري المعاصر الذي يرتبط في شبكة معولمة مكثفة تحت وطأة النظام المعلوماتي الترفيهي الذي يؤثر على الكوكب برمته.

ثم وقعت حادثة ١١ سبتمبر، وفتحت معها آفاقًا جديدة جدًا. إذ بعد دقائق عدّة من الحادثة، نقلت قناة CNN خبر ارتطام أول طائرة في برج التجارة الجنوبي، وكان العالم برمته ملتصقًا بشاشات التلفاز، وصار أول فعل إرهابي يبث مباشرة لكلّ العالم ويغيّر في اللحظة نفسها واقع العيش من نيويورك إلى كانبيرا، ومن كراتشي إلى بيونس آيرس.

ثقافيًا، كان تأثير هذا الترابط العالمي لافتًا بين جيل الشباب بعد ظهور قناة MTV، التي بدأت بثّها في ١٩٨١، وسرعان ما تحوّلت إلى ظاهرة عالمية. وانتشرت أشكال فنّية جديدة مثل الفيديو كليب في غضون سنوات قليلة أسهمت في خلق لغة مشتركة خاصّة بالشباب في كلّ مكان.

وأدى ظهور الإنترنت[1] إلى تغيير التجارب الحياتية اليومية للأشخاص الاعتياديين تغييرًا مهولاً. وكانت عملية تسويق المفاهيم والأفكار والماركات تستغرق سنوات كثيرة سابقًا، في حين تنتقل الصور والأفكار والمعلومات الآن حول العالم بلمح البصر: لقد أسهم الإنترنت في انتشار مفاهيم وعلامات تجارية مثل موقع غوغل Google، وسمح موقع MyS-pace أن يسترق المرء نظرة خاطفة على خصوصيات أشخاص في الجانب الآخر من العالم، وأتاح موقع يوتيوب Youtube للواعظين المسلمين في مصر مثلاً أن ينشروا تعاليمهم للمؤمنين في أوريغون، وأتاح موقع أمازون Amazon شراء أحدث روايات ستيفن كينغ في يوم نشرها بغض النظر عن محلّ إقامته.

هكذا بات الإنسان المعولم Homo Globalis واقع حال. جادل فرانسيس فوكوياما في عمله الموسوم «نهاية التأريخ والإنسان الأخير» في ١٩٩٢ أن الديموقراطية الليبرالية ورأسمالية السوق الحرّة قد أمسيا السياق السياسي والاقتصادي المسيطرين على العالم. وقبل أن يتراجع عن زعمه بقليل، توقّع أن الإنسان المعولم يحاول أن يتبنى القيم البرجوازية؛ لكنه أكّد أنه لم تعد ثمة أسئلة فلسفية كبرى يمكن طرحها بعد الآن، ولن يسأل الإنسان الأخير

(١) مانويل كاستيل. مجرة الإنترنت: تأملات في الإنترنت، وإدارة الأعمال، والمجتمع (٢٠٠١).

-المصطلح الذي اســتعاره من فريدريك نيتشه- أسئلة تتعدى «ما السيارة التي يجدر بي شراؤها؟» و«كيف أحصل على أفضل تأمين لها؟».

لكن اتضـــح أن الواقع مختلف تمامًا. يذكر تومـــاس فريدمان Thomas Friedman في تحليله عن ظاهرة العولمة «الليكزوس وشـــجرة الزيتون»[1] أن هـــذه الهويات لم تختــفِ أو تذوب في الهويات المعولمـــة، لكنها -على حدّ قول فريدمان- غالبًا ما تشتدّ وتتخذ سبلاً أكثر تجذّرًا تحت تأثير الرأسمالية العالمية والثقافة الغربية (الأمريكية تحديدًا) التي تضخّ أفكارها عبر النظام المعلوماتي والترفيهي المعولم. لقد سبّبت ظاهرة العولمة واقعًا إلى صدام متزايد بين ما أطلق عليه خبير العلوم السياسية بينيامين باربر Barber Benjamin «الجهاديـــون في مواجهة المـــاك» Jihad vs Mcworld، إضافة إلى الأفكار التي حملها مؤرخو الأديان مثل كارين آرمســـترونغ Armstrong Karen الرائـــدة في مجالها[2]. جادل باربـــر Barber أن أغلب التوجهات الأصولية مجرد ظواهر حديثة دفعتها العولمة، أو حركات مســـتحدثة لا يمكن فهمها إلا في سياق تأثير الرأسمالية العالمية. كذلك قدّم الفيلسوف السياسي جون غـــراي John Gray[3] أطروحة متينية مفادهـــا أن تنظيم القاعدة لا يمكن فهمه إلا في سياق الحداثة المبالغ بها.

الخلود الرمزي في الملعب العالمي

بات الحفاظ على المعنى والهوية، عند الإنســـان المعـــولم، معقدًا جدًا، إذ لم تعد أي ثقافة محصّنة من تدخّل الثقافات الأجنبية أو تأثيرها، وســـبل الحياة، والأديان، والإنجازات التكنولوجية. وبات عســـيرًا أيضًا أن يشعر المرء بأن منظومته العقائدية تتمتع بمصداقية حصرية، أو أن المجموعة التي ينتمي لها ذات قيمة عليا.

---

(١) تعدّ سيارة ليكزوس خير استعارة للعلامات التجارية التي تحظى بالتقدير البدهي أينما حلّت في العالم، في حين تحمل شجرة الزيتون دلالة الهويات القومية والدينية والإثنية.

(٢) كارين آرمسترونغ. صراع الإله (٢٠٠٠).

(٣) جون غراي. القاعدة وما يعني أن تكون حداثويًا Al Qaeda and what it means to be modern (٢٠٠٣).

يُعتقد أن الفراعنة المصريين واليونانيين القدماء كانوا على معرفة بالثقافات الأخرى. كان اليونانيون يطلقون على غير اليونانيين بالبرابرة hoi barbaroi (معناها الحرفي «الذين ليس لديهم لغة حقيقية»)، فقد كان الإطار المرجعي الوحيد الذي يمنح ذواتهم التقدير هو اليونان فقط، لذلك يعرف اليوناني بالضبط ما عليه فعله كي يكون مقدرًا من الآخرين في حياته وذكراه بعد مماته.

ربما كان التاجر الهولندي في القرن السابع عشر يعرف عن العالم أكثر من غيره، بحكم تجاراته التي تعتمد على استيراد البضائع وتصديرها من أوروبا. لكنه لا يشكّ ولو للحظة أن الثقافة المسيحية هي الإطار المرجعي الوحيد الذي يستحق انشغاله. نعم، كانت هولندا في القرن السابع عشر تتفرد عن غيرها بقيم التسامح، وتقبّل التنوع الديني. لكن التاجر الهولندي مازال تعامله اليومي مقتصرًا على الذين يستطيع التواصل معهم، وذلك ما يحدّد له كيف يقدّر ذاته.

لدينا اليوم، بخلاف التاجر الهولندي، حرية وصول فورية إلى المعلومات السمعية والبصرية لأي ركن من أركان الكرة الأرضية. تعدّ حرية الوصول هذه العنصر الوجودي الأساس لجميع قاطني القرية العالمية. إذن كيف تستطيع تحديد مكانتك في هذا الملعب العالمي؟ وكيف تظلّ تشعر أن رؤاك ذات معنى فعلي مع وجود كثير من البدائل؟

تقترح أطروحة الملعب العالمي إجابة سهلة للسؤال «كيف يمكن للثقافات والرؤى أن تكون ذات قيمة؟»، وذلك عبر تصنيفها وفقًا للمعايير الكمّية. وبكل الأحوال، يعدّ علم الرياضيات، والاقتصاد أيضًا، من أكثر العلوم واقعية؛ لأنهما يعتمدان على تبعية عمياء لقوة القياسات الكمّية، تصبح كل القيم معرّفة برقم ما، وكذلك تصبح الأمم والثقافات التي ننتمي لها مصنّفة وفقًا لنصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، أو سرعة النمو الاقتصادي. وأصبحت المدن مصنّفة وفقًا لعدد فروع الشركات العالمية الموجودة فيها. ومازالت الشركات تصنّف ويعاد تصنيفها دائمًا وأبدًا، بل تضاعف عدد

المعايير لتصبح لعبة التصنيفات أكثر تشويقًا. فلم تعد الشركات تصنّف بحسب حجمها فحسب؛ ولكن بحسب الشركة الأسرع نموًا، والأكثر ربحًا، والأغزر ابتكارًا، والأكثر متعة وتشويقًا للعمل بها.

ولا يهمّ أن كان دانييل كاهنمان Daniel Kahneman الحائز على جائزة نوبل ومساعده آموس تويرسكي Amos Twersky قد جادلا لسنوات أن النماذج الاقتصادية مبنية على افتراضات خاطئة عن كيفية تفكير العقل البشري. وما بتّ به جورج سوروس George Soros، الذي أثبت قدرته على اللعب بالسوق مثل اللعب على آلة البيانو، إن أداء السوق بطبيعته معيبًا، ومختلاً، وغير منطقي.

وما ذكره بول كروغمان Paul Krugman الحائز على جائزة نوبل أن الاقتصاد الأمريكي لا يساوي أيّ قيمة حقيقية، وأن كلّ الأرقام التي أمامنا كاذبة[1]. لكن عقلية القياس الكمّي قالت عكس ذلك؛ ولأن الأرقام لا تكذب. إن القياس الكمّي هو الكتاب المقدس الوحيد في عهد العجل الذهبي، ولا يشكّ بهذا القياس إلا الذي أرتضى أن لا يتبّع الدين الجديد.

الوهم العظيم

استيقظنا بعد سبات دام أكثر من عقدين من الزمان على، ما سيصفه التأريخ لاحقًا، بوهم عالمي غرائبي من القدرة المطلقة. وسيبحث المؤرخون عن أسباب كثيرة لما يطلق عليه الاقتصادي آلان غرينسبان Alan Greenspan بـ«الوفرة اللاعقلانية». لقد وقعنا في هذين العقدين تحت طائلة فقاعتين وهميتين:

---

(١) ثمة عوامل ثقافية وتأريخية واقتصادية كثيرة أسهمت في الانهيار في عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨. انظر نسيم نيكولا طالب. البجعة السوداء: تداعيات الأحداث غير المتوقعة The Black Swan: The Impact of the Highly Improbable. يقدّم الكتاب وجهة نظر من الداخل عن زيف افتراضات إدارة المخاطر المالية. لقراءة وجهات نظر أوسع عن الأزمة المالية الحالية وتلك التي سبقتها، انظر مايكل لويس. هلع: قصة السعار المالي الحديث Panic: The story of modern financial insanity (٢٠٠٨). وإذا وددت قراءة تحليل قيّم من منظور تأريخي أوسع انظر نيال فيرغيسون. صعود المال: التاريخ المالي للعالم The ascent of money: A financial history of the world (٢٠٠٨).

الفقاعة الأولى أنه لا توجد مشكلات حقيقية يجدر بالإنسانية أن تحلّها بعد، فقد نوقش كلّ شيء: واجتاح كلٌّ من الأسواق الحرة، والديمقراطية، وحقوق الإنسان العالم[1]. وما أن سقط جدار برلين، حتى أزيلت آخر عقبة تقف بوجه السلام والازدهار العالميين. لقد شهدنا نهاية التأريخ، بعد نهاية الأيديولوجيا. ولم يبقَ شيءٌ للتعامل معه مادام لدينا إدارة حسنى. ولا يحتاج العالم بعد الآن إلا أن يسلّم زمام الأمور إلى مجموعة اقتصاديين لتصحيح بقية الأمور.

لقد اتفق كلّ من صندوق النقد الدولي، والمصرف العالمي، بالتعاون مع مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي، الذي كان يترأسه آلان غرينسبان، والذي حاول ترقيع الإشكالات التي لم تتوافق مع القوانين المقدّسة للسوق الحرة. ولم يعد مجديًا فعلاً أن نطرح أسئلة عميقة عن طبيعة الحياة والمجتمع الصالح. دع الأسئلة الفلسفية لسائليها ممن تخاذل عن التسابق من أجل الثراء والشهرة. كان الهدف أن نمضي قُدُمًا في حيواتنا، ويمكن للأسئلة الوجودية الكبرى عمومًا أن تُجاب باختيار إحدى الديانات من الرفّ؛ فإن لم تناسبك أفكار هذه الديانة، لديك إمدادات لا حدّ لها من روحانيات الدمج الجديدة التي يمكن أن تقولب بحسب احتياجاتك ورغباتك الخاصة.

الفقاعة الوهمية الثانية أن العالم في ظلّ النمو الاقتصادي اللامتناهي كان جاهزًا للاستيلاء عليه، وكان مفتوحًا ٢٤ ساعة في الأسبوع لذوي الشجاعة والخيال إن كانوا يطمحون أن يطولوا النجوم. تستطيع أن تكون أيّ شيء تريده، وأن تعيش بأيّ حياة تريد. فالحياة الرغيدة لا تحتاج إلا إلى أن تتبنى شعار «افعلها فحسب» just do it وتمضي به.

لدينا أمثلة كثيرة من هؤلاء الذين «فعلوها فحسب»: يحضرني الآن مايكل جوردان Michael Jordan الذي علّم العالم الطيران، أو مايكل

(١) انظر مايكل ماندلباوم. الأفكار التي غزت العالم: السلام والديمقراطية والأسواق الحرة في القرن الواحد والعشرين The ideas that conquered the world: Peace. democracy. and the free markets in the twenty- first century (٢٠٠٢).

جاكسون Michael Jackson الذي أظهر أن بإمكان الجميع خلق عالمه الخيالي من الموهبة البحتة؛ أو بيل غيتس Bill Gates الذي أظهر أن بإمكان الجميع أن يصبح من الأثرياء بين ليلة وضحاها، أو الأخوات وتشاويسكي Wachowski sister الذين أظهروا أن بإمكان الجميع تحويل هوسهم الطفولي بمجلات الكوميك اليابانية وأفلام الكونغ فو إلى ثلاثية (ماتريكس) المذهلة التي تجني المليارات.

كان كلٌ من تأليه النمو الاقتصادي اللامتناهي وأسطورة «افعلها فحسب» أساس عصر العجل الذهبي. فقد بشّرت رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت ثاتشر Margaret Thatcher والرئيس الأمريكي رونالد ريغان Ronald Reagan أننا في عصر يعتمد على قاعدة أن الجشع لا بأس به، وأننا جميعًا مسؤولون عن أنفسنا، ولا يجدر بنا أن نتوقع شيئًا من الدولة أو المجتمع. وعلى أي حال، فإن الرأسمالية غير المقيّدة ستفيد بالمحصلة الجميع. وبيّنت نظرية ريغان أن الثروات المتراكمة في قمّة الهرم لابدّ أن تغني الجميع بعد أن تطفح الأموال منها.

نجحت أطروحة ريغان فعلاً لمجموعة من الأشخاص في العالم المتقدم، التي يطلق عليها ريتشارد فلوريدا Richard Florida بالطبقة المعولمة[١] من صحفيين، ومصمّمين، وأكاديميين، وأطباء، ومحامين، ومهندسين، وكبار المديرين التنفيذيين الذين يتزايد عليهم الطلب يومًا بعد يوم، والذين يستطيعون اختيار أيّ من الإمدادات اللامتناهية من الوظائف، ويتسابقون على العلاوات والترفيعات عبر الشركات، والجامعات، والمستشفيات، وغير ذلك من وسائل الإعلام الحديثة.

نعم، لاشكّ أن بعض المؤشرات التي تدعو للقلق قد لوحظت وقتذاك؛ كانت فجوة الدخل بين الأغنياء والفقراء تتعاظم بوتيرة لافتة: فأشار بعضهم إلى وجود خطأ ما في النظام المالي يسمح لوسيط أسعار واحد أن يتلاعب بسوق العملة، ونبّه آخرون على حقيقة جارحة مفادها أن الشركات العالمية

(١) انظر ريتشارد فلوريدا. صعود الطبقة المبدعة (٢٠٠٢).

قد تفرض على الحكومات إعفاءات ضريبية عبر التهديد اليسير بنقل إدارتها وعملياتها إلى مكان آخر، ولا سيّما إذا كانت هذه الشركات تدفع لمديريها التنفيذيين خمسمائة ضعف معدل رواتب موظفيها. ونبّه آخرون على أن المعايير المالية الجديدة التي تغرق السوق كانت غامضة جدًا بحيث لا يمكن تقييمها على نحو واقعي. لكن لا حياة لمن تنادي؛ لأن العجل الذهبي مغرٍ بحيث لا يمكن التشكيك فيه، وهكذا أُهمل المشككون وهُمشت تحذيراتهم وكأنها عُقد كاساندرا[1]، بل حتى إن بعضهم قد طُرد من وظيفته كي يتوقف عن مثل هذه التصريحات.

شقّ القياس الكّمي طريقه إلى مجالات لم يُحسب حسابها قبلاً. لقد قاومت الثقافة المثلى في مدد طويلة ضغط القياس الكمّي؛ لأن قيمة اللوحات والمعارض الفنّية والكتب والأفكار لا يمكن قياسها بعدد المشاهدات أو عدد نقرات الاستماع أو عدد قرائها أو المصدقين بها. كان من المفترض أن تُخلق قيمة جوهرية لإبداعات الثقافة المثلى. وكان على الجامعات، الملاذ المفترض للثقافة المثلى، أن تكون مترفعة عن القياس الكمّي أيضًا.

لكن سرعان ما انهارت حصون الثقافة من الثمانينيات فصاعدًا. ربما كان الحدث الأيقونة هو سلسلة حفلات الموسيقا في التسعينيات التي أحيتها فرقة أقطاب الغناء الثلاثة The Three Tenors، والتي جمعت نجوم الأوبرا بلاسيدو دومينغو Placido Domingo ولوتشيانو بافاروتي Luciano Pavarotti وخوسيه كاريراس Jose Carreras في برنامج واحدٍ حقّق نجاحًا وأرباحًا منقطعة النظير. بينما جادل بعضهم أن هذا المشروع قد عرّف كثيرون بالأوبيرا التي كانت تقتصر على المسارح، جادل آخرون أن هذا التوجّه يدلّ على انحطاط الموسيقا الكلاسيكية وقتلها بعد تقسيمها

(١) تعني عقدة كاساندرا أن التحذيرات والمخاوف التي تُطرح معروفة للجميع سلفًا، لكن يفضل تكذيبها وتهميشها. وجاء المصطلح في الأصل من الميثولوجيا اليونانية تيمنًا بكاساندرا ابنة بريام ملك طروادة، التي أحبها الإله أبولو لجمالها ومنحها موهبة التنبؤ، لكنها رفضت أبولو فلعنها بأن لا أحد يصدّق بما تحذر به. كانت كاساندرا المسكينة تعرف المستقبل، وتتكهن جيدًا بالشرّ المستطير، لكنها عجزت عن تغيير الأحداث أو إقناع الآخرين بصحة توقعاتها (المترجم).

إلى مقاطع صوتية ســهلة الوصــول. وفي موازاة ذلــك، اضطرت كثير من الأوركسترات الســيمفونية إلى إعلان إفلاسها بســبب تراجع الإقبال على حفلات الموسيقا الكلاسيكية بصورة ملحوظة.

تعتمد قيمة التسجيلات الصوتية، والكتب أيضًا، على عدد النسخ التي تمّ بيعها، في حين تحدّد قيمة اللوحات بطريقة مختلفة كليًا؛ لأن اللوحة لا يوجد منها إلا نســخة واحدة، وقيمتها تتحدّد بالســعر الذي تقرّره دار ســوذبيز Sotheby's أو دار كريستيز Christie's للمزادات. فلا يحتاج أن يفهم مقتني لوحات فان كوخ Van Gogh أو سيزان Cezanne أو بيكاسو Picasso عن مكانة اللوحة في التطوّر الفنّي للرسام أو إلى أي مدرسة فنّية تنتمي، يكفي أن يكون لديهم دليل قاطع على قيمة ما يمتلكونه، أو إن الأموال التي أنفقوها في المزاد قد أُعلن عنها عالميًا.

كذلــك الأديان بــدأت تتنامى بمعــدل ثلاث ديانات جديــدة في اليوم الواحد. فالدين تجارة مزدهرة أيضًا، ويمكن أن تُقاس كمّيًا الآن. لذلك من حقّ الكنيسة الكاثوليكية أن تقلق بســبب انخفاض قيمتها في أسواق العالم الغربي، أو أن يتفاخر الإســلام؛ لأنه في طريقه للتغلّب على المسيحية بوصفه الديــن الأكثر عددًا في العالم. كذلك ادعّت بعض دور العبادة الجديدة، التي تُدار بطرق تسويقية متطوّرة، أنها تنمو بسرعة مهولة بحيث اكتسب بعضها جماهير مليونية أو مليارات الدولارات في غضون سنوات قليلة من ظهورها.

لمــاذا الاهتمام إذن فيما إذا كانت منظومة المعتقــدات منطقيةً أو لا؟ أو إذا كانت هذه الديانة خليطًا من مصادر تأريخية غير مترابطة مثل فلسفة القبلانية Kabbalah والتنجيم الهندي؟ ولماذا نضعه تحت المجهر النقدي؟ أو نشكّك في قدرته على الصمود؟ ولمــاذا نتحقق عن رجل الدين إن كان حديثه يحمل معنــى ما أو مجرد أفكار مبتذلة مخلوطة ببعــض الخزعبلات الشرقية؟ ولماذا نســتفسر ما لغز كتــاب مثل الســرّ The Secret ما دام قد بيــع منه ملايين النســخ؟ لابدّ أن ثمة ســببًا وجيهًا يدفع الناس لاقتنائه. ينطبق الشيء نفسه على الأنظمة السياسية: فقد توصّلت إدارة مكتب بوش إلى نتيجة مفادها أن

الأفكار الجيدة تُقاس بمدى جودة تسويقها، لا شأن للفحوى والمصداقية إطلاقًا. حتى إن لم تكن ثمة علاقة بين نظام صدام حسين وتنظيم القاعدة، أو لم يكن ثمة دليل على وجود أسلحة الدمار الشامل. القضية مختلقة بسهولة[1].

لقد تمكّن بوش، مع مساعدة كبير مستشاريه كارل روف Karl Rove، أن يعاد انتخابه؛ لأن جمهوره لم يعد يكترث بالقيمة الحقيقية لأفكاره. هكذا وصل عصر العجل الذهبي إلى ذروته، وباتت منظومات الفكر والمعتقدات مجرد سلع تحدّد قيمتها وفقًا للعرض والطلب، مثل أي شيء آخر.

سوق السلع «الأنا» العالمية

لم يتطلب الأمر كثيرًا ليضاف البشر إلى قائمة التصنيف الكمّي. يعدّ المال المقياس الأيسر وفقًا لمنطق لعبة القيم الكمّية بسبب سهولة إحصائه. لا ننكر أن الأثرياء يلعبون دورًا مهمًا في الشؤون الإنسانية، لكن الثروة لم تعد مجرد مقياس لما يمكن للمرء أن يشتريه، أو ضمان سلامته، أو مقدار القوة التي يمتلكها. أصبحت الثروة الآن مؤشرًا على قيمة الفرد بوصفه إنسانًا، ولم يعد تعبير «فلان يساوي» مجرد مجاز، بل باتت الجملة صحيحة حرفيًا.

خلق انتشار الرأسمالية العالمية وسعار قياس كلّ شيء كمّيًا ما أطلقُ عليه بـ«سوق سلع الأنا العالمية»[2]، والنتيجة كانت سلعة الأنا. وتعتمد قيمة السلعة، مثل بقية السلع، على كثير من العوامل التي تتراوح بين زيادة العرض والطلب ونقصانها، وعلى النجاح التسويقي للمنافسين وما إلى ذلك.

(١) يمكن الاطلاع على اختلاق ذريعة وجود سلاح دمار شامل في العراق في ظلّ تنسيق جهيد من إدارة جورج بوش في كتاب طريقة العالم: مروية للأمل في عصر التطرف The way of the world: A story of hope in an age of extremism لرون سوسكيند (٢٠٠٨).

(٢) سوق السلع خليطٌ من شبكة أسواق ومنظومة تصنيفات معقدة تختصّ في الاتجار بالقطاع الأولي والمصنّع الخام، ويقصد المؤلف بالأنا أنها مختصّة بتجارة الفردانية. واختصارًا للمصطلح نطلق عليها من الآن فصاعدًا بـ«سوق الأنا» بدلاً من «سوق سلع الأنا العالمية» Global I- Commodity Market.

ومازالت المقاييس والتصنيفات تتضاعف يومًا بعد يوم[1]. المشكلة تكمن في فارق المقارنة الكبير التي بات فارقًا عالميًا لأول مرة في التأريخ. لاريب أن أغلبنا لا يشغل نفسه دائمًا بتقييم مكانه في الملعب العالمي (ولو قمنا بذلك لفكرنا مليًّا بالانتحار)، ولكن الملعب العالمي موجود ضمنيًا في كلّ ما نقوم به.

إن شاشة الحاسوب التي تجعل من العمل الإبداعي أسهل، هي نفسها الشاشة التي توفر تدفقًا لانهائيًا من المعلومات عن مزايا طبقات معولمة سامية، ومن ثمّ تؤثر على تقدير الإنسان المعولم لذاته. الآلية التي ساعدت أسلافنا على عدم الاقتتال حتى الموت من أجل المكانة، بحيث يكتفون باستسلام وقتي وإحباط يسير والسلام، أصبحت الآن أساس الوباء. إننا نتعرض، في سوق الأنا، للهزيمة حين نشاهد منجزات شخصٍ ما على بقعة ما آلاف المرات في اليوم الواحد.

لقد قام لاري بيج وسيرجي برين- اثنان من رموز هذا العصر- وهما في ريعان شبابهما، بتغيير العالم حرفيًا. وبغض النظر عن حقيقة أن لدى كلًّا منهما ثروة صافية تقارب ٢٠ مليار دولار، فإن إنجازهم يتعدى موضوع النجاح المالي والتسويقي؛ لأنهما غيّرا الطريقة التي نستخدم بها شبكة الويب، بحيث أصبحت النتائج الأولى في عمليات البحث هي دائمًا ما نبحث عنه. هكذا أمسى لدينا تصنيف عالمي آخر يعتمد على عدد المدخلات في غوغل في كلّ مرّة، وأمسى لكلّ منّا تصنيف خاصّ به.

لم تأمن الأوساط الأكاديمية -الملاذ المقدّس للثقافة- من نظام التصنيفات، بل كان يحكمها على نحوٍ غير قليل. وعلى الرغم من اشتراط أن يكون النظام موضوعيًا بحتًا (مع الإشكالات عن جدواه من الأساس)، إلا أن

---

(١) وبينما أكتب هذه الصفحات، بحثتُ عن قوائم فوربس المتنوعة، وقائمة المائة في مجلة تايمز Times ومجلة الناس People. وراجعت بعض الحقائق عن مؤسسي موقع غوغل، أقصد لاري بيدج Larry Page وسيرجي برين Sergei Brin، وكذلك عن ستيف جوبز Steve Jobs، وأوبرا وينفري Oprah Winfrey، وتايغر وودز Tiger Woods، وفيليب روث Philip Roth. ولم يتطلب أن أتحرك من مقعدي، ولا أن أجهد نفسي، فإن الإنترنيت متخم بما شئت من مقاطع الفيديو والصور والمقابلات.

الكل يتزاحمون من أجل النشر في المجلات العلمية، وعدد الاستشهادات للدراسات البحثية. وبذلك يجدر بالجميع أن يكون له رقم فريد يحدّد تقييمه الحالي في سوق تخصّصه. إذن ما الأكثر أهمية في هذه المعادلة؟ عدد الاقتباسات لبحوثك أو عدد الدخول إلى اسمك في محرك غوغل؟ أو لا هذا ولا ذاك، ويكفي أن يستشهد بك في مجلة فانيتي فير Vanity Fair؟

قيمة سلعة الأنا عبارة عن مزيج معقد من أنظمة تصنيفات مختلفة. فما بالك لو عدنا خطوة إلى الوراء وتحدثنا عن أنظمة التصنيف المحلية: هل أنت معروف بين أصدقائك؟ هل تعمد الصحف المحلية في مدينتك للحديث معك وعنك؟ وهل يزداد رصيد سمعتك في الأوساط الأكاديمية؟ وهل تحصل بسهولة على مكان لائق في المطاعم الراقية في الأمسيات المزدحمة؟ وكم من أمنيات عامك قد حققت حتى الآن؟

ثمة أنظمة تصنيفات لا تحتاج إلى أي إنجاز لتكون، وتمثل أفضل عن سوق الأنا، وأقصد بذلك ما تقوم به شبكات التواصل الاجتماعي. خذ فيسبوك مثلاً: الدليل الفوري على قيمة سلعتك هو عدد الأصدقاء لديك، وعدد الأصدقاء المتصلين بك، وعدد المشهورين بينهم. وكلما كان الأشخاص في قائمة أصدقائك مشهورين، اعتقدَ الناس أنك شخصية مهمة وذو قيمة.

وصل بنا الأمر إلى حدّ يكون فيه أقسى خيلاء أن نستغرب عدم امتلاك الشخص حساباً معرّفاً في فيسبوك أو لينكد إن أو زوم إنفو أو أحد مواقع الشبكات الاجتماعية الكثيرة الأخرى. والأدهى أن تسعى بكل قواك للانتماء إلى ذات الموقع الحصري الذي يشترك فيه الأثرياء والمشاهير، والذي لا يمكن الانضمام إليه إلا عبر الدعوة فقط، لعلّك تستطيع الاطلاع (افتراضًا) على أهم الأحداث الاجتماعية في العالم.

لا يؤثر ترتيبك في سوق الأنا على تقديرك لذاتك فحسب، لكنه يحدّد ما لديك من احتمالات. وتؤثر هذه الاحتمالات أيضًا على تقديرك لذاتك وراحتك. يمكن القول إنه لا يمكن وصفك إنسانًا معولًما، ما لم يتم إدخالك

في واحدة من أنظمة التصنيف العالميــة. وإذا ما اقصيت منها، لن تحصل على مكانــة في إحدى المنظمات التي تختار موظفيهــا أو أعضاءها وفقًا لترتيبهم في نظام التصنيف الخاصّ بهم.

لم تعدّ مهمة الإنســان المعولم مقتصرة على حيازة ملف شــخصي وإدارته، الإنســان المعولم هو الملف نفسه، مجرد سلعة تستمد قيمتها اليومية من مجموعة عوامل، أغلبها لا تقع ضمن نطاق ســيطرته. هكذا صارت عقيدة سوق الأنا «أنا مصنّف، إذن أنا موجود». من الصعب جدًا أن ندرك تأثير سوق الأنا على صحة الإنسان المعولم وراحته. لكن الدراسات تُظهر وجود زيادة ملحوظة في معدل اضطرابات القلق، والاكتئاب، وارتفاع رهيب في اســتخدام مضادّات الاكتئاب والقلق، التي تعرف بمثبطات إعادة امتصاص السيروتونين الانتقائية SSRI (مثل بروزاك، وباكسيل وزولفوت، وما شابه)[1].

على الرغم من أن هذه النتائج إشكالية في حدّ ذاتها؛ لأن الدراسات البحثية تموّل من شركات الأدوية، لكنهــا تدلّ على توجه عالمي ملحوظ، وهذا الأمر مرعب فعلاً.

على أي حال، لم تتحدث البحوث إلا عن غيضٍ من فيض. ومن وراء هذه البحوث ثمة ظاهرة أكثر انتشارًا؛ ذلك أن غالبية بني الإنسان المعلوم يشكون من قلق وجودي مســتشري، وإحســاس دائم بالفشل في عيش حياة تستحق فعلاً. سأوضح كيف أن هذه المشاعر لا تكتنف أمراضًا نفسية بطبيعتها، لكنها تعكس تأثير سوق الأنا علينا كلّنا.

(١) مارك أوفسون وستيفن ماركوس. الأنماط الوطنية في علاج الاكتئاب بمضادات الاكتئاب (٢٠٠٩)، Archives of General Psychiatry، ٦٦(٨)، ص ٨٤٨-٨٥٦؛ كومبتون وآخرون. التغيرات في معدل انتشار الاكتئاب الشديد المصاحب لاضطرابات تعاطي المواد في الولايات المتحدة بين ١٩٩١-١٩٩٢ و ٢٠٠١-٢٠٠٢. American Journal of Psychiatry، ١٦٣ (١٢)، ٢١٤١-٢١٤٧.

الفصل الثاني

«افعلها فحسب»
ثقافة النجومية والذات المصمَّمة

لا تـزال جملة (إننا نعيش في عصرٍ مفـرط الفردانية) دارجة إلى حدّ الآن، مع أن الفردانية تضاءلت بتأثير سـوق الأنا، ذلك أننا فقدنا القدرة على لمس العمق التاريخي والثقافي، والتجـذّر الداخلي للذات، بل عجزنا عن الإبقاء على حسّ حقيقي بالفردانية من دون الرجوع إلى أحد التصنيفات في سـوق الأنـا. لقد اختزلت حياة الفرد إلى مجرد وظيفـة، وتقلّصت قصصه وتجاربه إلى رسـوم بيانية تُسجل فيها إنجازاته، وانفعالاته، وعلاقاته أكثر من سيرته الشخصية، وعمقه الحقيقي.

اختزلت الحيـاة للإجابة عن كيف أحوالنا في سـوق الأنا؟ وهل حياتنا الوظيفيـة مذهلة كفايةً؟ وهـل حقّقنا الاعتراف الذي نصبـو إليه؟ وهل أسلوب حياتنا متعدّد وحداثوي وأنيق؟ وهل نجحنا في الحفاظ على صورة بديعة مع أننا نعمل على مدار الساعة لمواكبة الأحداث العالمية؟

غالبًا ما نخلط بـين عيش الحياة والحصول على وظيفة، فترانا نضغط على أنفسنا لنكتب سيرة ذاتية تسويقية vitae Curriculum، نذكر فيها الألقاب

التي نلناها، والمناصب التي شغلناها، والنجاحات القابلة للقياس والمقارنة التــي حققناها. أذكر مقولة الصحفي ديفيد بروكس David Brooks (تبدو إعلانات الزفاف في صحيفة نيويورك تايمز أشــبه باندماج وظيفتين وليس اتحاد شخصين من بني البشر!)[1].

لا يزال النظام المعلوماتي والترفيهي يزقّ الجميع بالصور لما يجب على الحياة المثيرة للحســد أن تبدو عليه، بل صار الحسد في ســوق الأنا مقياسًا لندرك أحقّقنا المبتغى أم لا؟ وأســتبدو بيوتنا مشــابهة لصفحــات مجلّة هاوس آند غاردن House & Garden أم لا؟ خذ على سبيل المثال شخصية شارلوت في مسلسل شبكة HBO «الجنس والمدينة»، كانت شارلوت ترى النجاح عبارة عن تصوير شقّتها في جادّة بارك آفنيو في هذه المجلّة، مع أن زواجها كان على وشك الانهيار. وكانت حياة صديقتيها، كاري برادشو وسامانثا، عبارة عن قلقٍ دائم وانشــغال لا فكاك منه في مسعى لحضور حفلات فاخرة، وارتداء ثياب لائقة، ذات علامات تجارية لافتة.

حتى لو كانت شخصيات مسلسل «الجنس والمدينة» فيها القليل من الغلو والمبالغــة، عن قصدٍ أو غير قصد، لكنها تعكــس اهتمامات الطبقة المعولمة. حتى الحياة الجنســية باتت تحتاج إلى تحديث مستمر للتأكد أن كلّ شيء على ما يــرام ولا بأس به وفقًــا للمقاييس العالمية في مجــلات Cosmopolitan وEsquire وغيرها من المجلات التي تهتم بأساليب الحياة المعاصرة.

لا أنكر أن ثمّة نزعــة غريزية تدعو البشر للقلق من أجل المكانة والمقارنة بالآخرين، وبذلك أحاول أن أُبريء نفسي من أي قصد تشــويه ســمعة أو إدانة ما أعدّه سمة إنســانية جوهرية، مع كلّ علاتها، لكنها دفعت بكثيرين تجــاه التفوّق والإنجاز؛ لأن المقارنة المســتمرة بيننا تغذّي شــهيتنا المفتوحة للقيل والقال عن ما قام به الآخرون مــن إنجازات ونجاحات وإخفاقات وفضائــح، وتلك واحدة من ملذّات الحياة بــكلّ تأكيد. لكن هوس مقارنة

---

(١) ديفيد بروكس، بوبوس في الفردوس: الطبقة المعولمة وكيفية الوصول إليها.

الذات ومنجزاتها، في عصر العجل الذهبي، تضاعف إلى الحدّ الذي أذاب فيه كلّ هويّات البشر المعولمين وفردانيتهم.

افعلها فحسب

تعدّ حملة «افعلها فحسب» التي أطلقتها شركة نايكي Nike من أنجح الحملات الإعلانية عبر التاريخ. يكفي أن نذكر احتفال الشركة في دورة الألعاب الأولمبية في ٢٠٠٨ بالذكرى العشرين من حملتها بفيديو يحمل عنوان (شجاعة) الذي يبدأ بعبارة (كل الذي تحتاجه في داخلك سلفًا) تتبعها جملة (لدي الجرأة لكنني لست جنديًا) من أغنية The Killers. في هذا الفيديو نرى في غضون ٦٠ ثانية مقاطع مجزأة للاعبين دعموا ماركة نايكي في كلّ العقود من كارل لويس Carl Lewis إلى مايكل جونسون Michael Johnson (كلاهما حطم أرقام قياسية وحاز على ميداليات ذهبية)، ومن جون مكنرو John McEnroe إلى روجر فريدرير Roger Fredrer وماريا شارابوفا Maria Sharapova (لاعبو التنس الأشهر عالميًا). وبالطبع الشخص الذي يمثّل روح نايكي مايكل جوردان Michael Jordan لاعب كرة السلة الأشهر، لينتهي الفيديو بآخر جزء للرياضي الجنوب أفريقي الذي يحاول الانضمام إلى الألعاب الأولمبية على الرغم من فقدانه لساقيه.

أو نذكر شعار الشركة الألمانية المنافسة لشركة نايكي، أديداس Adidas (لا يوجد شيء لا يمكنك فعله)؛ لأن (المستحيل أكذوبة). يتضح من هذه الشعارات انعكاس حقبة تاريخية حاول النظام المعلوماتي والتاريخي أن يثبت فيها أن كلّ شيء ممكنٌ فعلاً.

تسارعت الأحداث السياسية والاجتماعية والتكنولوجية وتداخلت في ما بينها في جوٍّ استطاع خلق شعور أن التاريخ البشري قد اتخذ منعطفًا جديدًا، وبدا أن القيود والانقسامات التي حدّدت السياق الإنساني والتاريخ العالمي على مرّ القرون قد اختفت كلّها.

وفي ١٩٨٩، بعد عام واحدٍ من حملة «افعلها فحسب»، سقط جدار برلين. ثم تفكّك الاتحاد السوفيتي وتبدّلت الأنظمة الشيوعية بأخرى ديموقراطية

ليبرالية في أوروبا الوسطى والشرقية. وصعد في ١٩٨٩ أيضًا نجم أستاذٍ مغمورٍ في وزارة الخارجية الأمريكية، ألا وهو فرانسيس فوكوياما، بعد أن أطلق أطروحته «نهاية التاريخ»، التي تحوّلت إلى كتاب في ١٩٩٢ يحمل العنوان نفسه مفترضًا فيه أن الديموقراطية الليبرالية هي الأنموذج السياسي الأخير، والأنسب للطبيعة البشرية؛ لأنه يوفّر بديلاً اقتصاديًا فاعلاً يتقاطع مع الحاجة الإنسانية للتقدير والاعتراف الذاتيين. هكذا بدا الأمر وكأن الانقسامات الأيديولوجية التي اجتاحت القرن العشرين ولّت وباتت جزءًا من الماضي. وكأن البشر على اعتاب تحقيق حلم التنوير بإدارة شؤونهم بعقلانية، ومن ثمّ تحلّ عليهم نِعَم السلام والاستقرار.

ثم ظهر جيل من السياسيين إلى المشهد العالمي، الذين امتازوا بشخصية ذات كاريزما إضافة إلى رسالتهم السياسية، وجسّدوا الأمل المنشود في العالم الجديد. انتُخب في ١٩٩٢ بيل كليتنون Bill Clinton، أصغر رئيس أمريكي منذ جون كينيدي John Kennedy والذي يعدّ أول شخص من جيل طفرة المواليد Baby Boomers ليكون أقوى شخص على سطح الأرض. كان لدى كلينتون العزم لتغيير كلّ شيء، وكأنه جاء خصّيصًا ليجمع بين الكفاءة الرأسمالية وضمير الليبرالية الأمريكية. وسرعان ما انظم إليه في الجانب الآخر من المحيط، توني بلير Blair Tony، الشاب الجذّاب الذي أخذ على عاتقه زمام حزب العمّال البريطاني وأعيد انتخابه في ثلاث دورات بسبب شعاره الشهير «بريطانيا الرائعة» Cool Britannia. لقد أعاد هذان الرئيسان معًا صياغة الروح الجديدة، أو الطريق الثالث، أو التوجه العالمي الذي تجاوز اليسار واليمين والتوترات الأيديولوجية، ووعد أن يقود العالم إلى عصر جديد من الانسجام[١].

مع هذه التطوّرات السياسية، جاءت الابتكارات التكنولوجية التي وعدت بتوحيد الإنسانية المستحدثة في شبكة تواصل فورية. ففي ١٩٨٩، افتتحت المنظمة الأوروبية للبحوث النووية CERN أول إنترنت خارجي لها

(١) أنتوني جيدينز، ما وراء اليسار واليمين: مستقبل السياسات الراديكالية (١٩٩٣).

باستخدام تقنية TCP /IP، النظام الذي سيصبح لغة مشتركة تعبر القارّات. وفي غضون سنوات قليلة، سيتحوّل الإنترنت من مجرد أداة مبهمة مقتصرة على محيط البنتاغون، وناسا، ومنظمات مثل CERN إلى ظاهرة مقبلة على تغيير العالم. وسيزداد عدد مضيفي الإنترنت، بين عامي ١٩٩٢ و٢٠٠٦، من صفر إلى ٢٥٠ مليون مضيف، وتستثمر مليارات الدولارات في شبكات الأسلاك الضوئية المستخدمة في نقل المعلومات[1].

لم تقتصر فوائد هذه الثورة على المؤسسات الحكومية، والجيش، والشركات العظمى فحسب، بل توفّرت خدمات الحوسبة للكل في الدول المتقدمة. كان القرص الصلب ذو سعة التخزين ١٥٠ ميغابايت في ١٩٩٨ يكلّف ٨٧٥٥ دولارًا، في حين لا يكلّف الآن الحاسوب المكتبي ذو سعة التخزين ٧٥٠ غيغابايت أكثر من ألف دولار. وبينما كان الجهاز اللوحي الشخصي نادرًا جدًّا في ١٩٨٨، بات عدد الحواسيب في ٢٠٠٨ يتجاوز المليار جهاز في العالم تقريبًا. وكان عدد مستخدمي الهواتف الخلوية في الولايات المتحدة في ١٩٩٠ لا يتجاوز ٥,٥ مليون مستخدم. لكن العدد ارتفع إلى ٢١٩ مليون مستخدم في الولايات المتحدة، وأكثر من ٢,١ مليار مستخدم في كل أنحاء العالم.

ثم طرحت شركة بلاكبيري BlackBerry في ١٩٩٠أول هاتف ذكي يمكّن مستخدمه من الوصول إلى الرسائل في أيّ مكان فيه تغطية خلوية، حتى أضحى الإنترنت الآن حرفيًا في جيب الكل، ومنذ إطلاق جهاز آيفون iPhone في ٢٠٠٧ حُسم الأمر. وبات بمقدور المستخدمين تصفّح الإنترنت، والتمرير بالبيانات، والاستماع إلى أحدث الإصدارات الموسيقية من الجهاز الذكيّ نفسه.

لقد دفع التقدّم في تكنولوجيا الاتصالات بالنجاحات الاقتصادية إلى الثريا. في١٩٩٥، أسس شركة مايكروسوفت Microsoft كلّ من بول آلين Paul Allen، وبيل غيتس Bill Gates، وستيفن بالمر Steven Ballmer. وطرحوا نظام التشغيل windows الأول من نوعه لسهولة استخدامه.

(١) مانويل كاستيلز، مجرة الإنترنت: تأملات في الإنترنت والأعمال والمجتمع (٢٠٠١).

وبعــد أن طرحت الشركة أول أنموذج لها، قفــزت قيمتها فورًا إلى أكثر من نصف مليار دولار. وبدءًا من ســبتمبر ٢٠٠٨، بلغت قيمة الشركة السوقية ٢٣٠ مليار دولار، بحيث هيمنت على سوق أنظمة تشغيل الحواسيب في كلّ العالم. وبات بيل غيتس، رئيس مجلس إدارة مايكروســوفت، أغنى رجل في الكوكب بثروة تتعدى الثمانين مليار دولار قبل أن يؤسس جمعية بيل ومليندا الخيرية، حين تبرّع بمبلغ أولي قدره ٢٥ مليار دولار.

وفي ١٩٩٤، أُطلــق أول محرك بحــث يمكّن مســتخدميه من البحث في الإنترنت. وفي ١٩٩٨، قام طالبان من جامعة ســتانفورد، لاري بيج Larry Page وسيرغي برين Sergey Brin، بتأسيس شركة غوغل برأس مالي قدره ألف دولار. ستقوم هذه الشركة بتغيير تجربة استخدام الإنترنت كليًّا، لترتفع قيمة الشركة وتصــل في ٢٠٠٨ إلى ٢٠٠ مليار دولار. تعدّ قصة نجاح شركة غوغل أنموذجًا مثاليًا يعكــس روح هذا العصر. ولا نقصد بهذه المقاربة أن نعظم من مســألة تحوّل شــخصين يافعين إلى مليارديرين بين ليلة وضحاها فحســب، ولكنهما تركا بصمتهما؛ لأنهما أحدثا ثــورة في الوصول إلى المعرفة الإنسانية. ولا يمكن لأي شيء أن يوقف هذا المسعى.

لا يمكن تعريف الجيل بين العقدين ١٩٨٨ و٢٠٠٨؛ لأنهم ليسوا بالعينات الإحصائية مثل جيل طفرة المواليد Baby Boomers والجيل X، مع أن العولمة أصبحت واقعًا معاشًا حين تحرّرت الأسواق المالية، وذاقت الشركات طعم العولمة ولمستها.

تعاظمت المعلومات، ووسائل الترفيه، والصور، والفيديوهات، تزامنًا مع تطوّر محركات البحث. وأصبــح كلّ شيء في العالم، وكلّ معلومة اجتماعية، وتاريخية، واقتصادية، وتكنولوجية، وطبّية، وأي إشــاعة عن أي شخص في المعمورة سهلة الوصول بلمسة أصبع صغير فقط.

لا يمكن تعريف الإنسان المعولم والتغاضي عن ارتباطه بالنظام المعلوماتي والترفيهي في الوقت نفســه؛ لأن هذا الارتباط يسهم في إعطائه معنىً عميقًا يحدِّد مكانه في الكوكب. لقد تعمّدتُ أن أعرّف الإنسان المعولم تعريفًا معنويًا؛

لأن جيل العولمة من الشبيبة إلى منتصف العمر يشعر أن إطاره المرجعي قد تغيّر تمامًا، وأن الحياة اليومية وروتين العمل تحتاج تواصلاً باستمرار، والسوق، وحتى الصحف، تحدّث معلوماتها أولاً بأول في كلّ ساعة في أربع والعشرين ساعة في الأسبوع في ٣٦٥ يومًا في السنة. لم تعد ثمة سلعة يصعب تسويقها زمانًا ومكانًا بعد الآن، ولا تقتصر السلع على التقليدية من مواد خامّ فقط، بل المعلومات، والنصوص، والصور، والموسيقا، والبحوث العلمية والتكنولوجية التي تُصنَّع وتُسوَّق وتُنشر ويتاجر بها في دوائر لا نهائية موزّعة في شبكات تتناقل بسرعة الضوء حرفيًا.

تأثير النظام المعلوماتي والترفيهي على الهوية الشخصية

لا مراء أن انفجار تقنية المعلومات خلق ثورة اجتماعية، وثقافية، واقتصادية تشابه في دويّها وتأثيرها الثورة الصناعية التي حدثت في أواخر القرن الثامن عشر، وغيّرت سُبُل العيش في العالم الصناعي الحديث. كان أغلبية المجتمع الزراعي يقطن مناطق ريفية، لكن الثورة الصناعية زادت من كثافة السكّان في المدن، مما أدى إلى تدمير اللحمة المجتمعية في هذه المجموعات الصغيرة، وتحوّل مفهوم المجموعة إلى جماعة (Gemeinschaft وGesellschaft)، كما يصفها عالم الاجتماع الألماني فيردناند تونيس[1] Ferdinand Tönnies.

لقد تغيّر الإطار المرجعي كليًّا في المجتمعات المتقدمة في أثناء قرن واحد فقط: من جماعات يعرف الناس فيها بعضهم بعضًا، إلى نظام محكوم بقواعد ولوائح مجرّدة بدلاً من الطقوس والأعراف. ولم يعد يشترط الاعتماد على المعارف والجيران لتمضي الحياة؛ لأن فضيلة الاستقلالية والتمحور حول الذات أهمّ من فضيلة الولاء للآخرين. أحدث عامل التخلّص من الانتماءات إلى انتقالات ذات مستويات أكبر، فقد بات من الممكن الانتقال اجتماعيًا بطرق تبدو مستحيلة في المجتمعات الزراعية. ومع الوقت، انعدم التمييز بين الطبقة الارستقراطية وطبقة العوام؛ لأن ظروف الولادة لم تعد تحدّد أين تمضي أو كم تحتاج لتصل إلى مسعاك، مادام لديك القدرة والحافز

---

(١) لمعلومات أكثر انظر: رايموند آرون، التيارات الحديثة في الفكر الاجتماعي (١٩٦٧).

للوصول. وبينما مازال الانتقال مقيّدًا بكثير من العوامل، الاقتصادية غالبًا، فإن المجتمعات الغربية أصبحت قريبة من التحوّل إلى دولٍ ميريتوقراطية (تعتمد على الجدارة).

لم يلمس عدد كبير هذه التبدلات، وحسّ التمدّن على نحوٍ مباشر؛ خذ العمّال في مصانع نسيج مانشستر مثالاً، فإنهم لم يشعروا أن الانتقال قد خلّصهم من وضعهم البائس أو حرّرهم إلى حيث الأمان، والاستقرار، والازدهار، والمكانة في الطبقة الوسطى. فلم ينفعهم رأس المال والدراسة للالتحاق بركب الطبقة الوسطى.

لقد زاد القرن العشرين تدريجيًا من سرعة التبدلات الاجتماعية، بعد الحرب العالمية الثانية خاصّة، في أثناء الطفرة غير المسبوقة في النمو الاقتصادي في العالم المتقدّم. فقد مكنّت مبادرة G. I. Bill في الولايات المتحدة الالتحاق بالتعليم العالي أكثر من أي وقت مضى، كذلك الالتحاق بركب التعليم العالي في الدول الأوروبية الذي بات به من دون رسوم مادام الطالب يستوفي الشروط الأكاديمية. هكذا تعملق نظام التعليم، مما سبّب تآكل الحدود بين الطبقات العاملة، والوسطى الدنيا، والوسطى العليا.

لكن حدث انفجار تكنولوجيا الاتصالات في الثمانينيات، وأدى إلى لامركزية النشاط الاقتصادي، مما أذاب الحدود بين الإدارة وخطّ الإنتاج سريعًا. وبدأت الشركات متعددة الجنسيات تنقل معاملها إلى بلدان ذات تكاليف عمالة منخفضة، مثل شركة نايكي Nike، وشركات تصنيع السيارات الكبرى، التي نقلت معاملها بدراية وخبث إلى بيئات قليلة الكلفة ومستغلّة لعمّالها.

ابتكرت عالمة الاجتماع ساسكيا ساسين Saskia Sassen مصطلح «المدن المعولمة» كنايةً عن المراكز الفاعلة في الاقتصاد العالمي. عندما طرحت بحثها في نهاية الثمانينيات كانت تعتقد بوجود ثلاث مدن فقط ينطبق عليها المصطلح هي نيويورك ولندن وطوكيو، لكن في طبعتها الثانية لكتاب «المدينة المعولمة» أضافت عددًا من المدن من زيورخ إلى شنغهاي، ومن باريس إلى هونغ كونغ.

حـددت ساسـين مواصفـات المدينة المعولمة بحسـب تركّـز مقرات الـشركات متعددة الجنسـيات، إذ اتضح أن تقانـات الاتصالات لم تنفِ الحاجة للتواصل المباشر بين محرّكي الاقتصـاد العالمي، لذلك بقيت إدارة الشركات ذات الخدمات المالية، والقانونية، والاستشـارية في أماكن محدّدة في العـالم. وهكذا وُلِدت طبقة جديدة من الطبقتين المرفّهة والوسـطى، في وقتٍ قصيرٍ جدًا، تلك التي دفعت وزير العدل السـابق وأستاذ الاقتصاد السياسي روبيرت رايخ Robert Reich ليتحدث عن الفجوة الجديدة بين الأغنياء New Rich- Rich Gap قائلاً:

ظهر مجتمـع جديد في قمّـة القمّة، هـم مجموعة من رؤسـاء تنفيذيين ومديريـن إداريـين في الـشركات العالميـة، أو شركاء أو مديرين تنفيذيين في المصارف والمؤسسـات القانونية والاستشـارية. ويمتاز محللو البيانات الرمزية العالميـة[1]، بخلاف محللي البيانات المحليـين، بأنهم يتحدثون بلغة إنكليزية موحّدة، ويتشـاركون ثقافـة عالمية كوزموبوليتانيـة متفقًا عليها. وقد نال أغلبهم شـهادات من المؤسسات النخبوية نفسـها، من جامعات الطليعة الأمريكية: أوكسفورد، أو كامبردج، أو كليّة لندن في الاقتصاديات، أو جامعـة كاليفورنيا. لذلك تجدهم يعملون في بيئات متشـابهة في مكاتب زجاجية في أبراج عالية في أكبر مدن العـالم، ويركبون الطائرات ويباتون في المنتجعات. ويجدون الراحـة أينما حلّوا في نيويورك، أو لندن، أو جنيف، أو هونغ كونغ، أو شـانغهاي، أو سـيدني. وفي الأوقات التي لا يعملون فيها ‖ عادة ما يهلكون أنفسـهم بالعمل- يعيشون حياة مرفّهة، ويلعبون الغولف، ويباتون في فنادق الخمسة نجوم...

حققت هذه المجموعة دخلاً ماديًا منقطع النظير؛ إذ يبلغ متوسط رواتب الموظفين في شركـة غولدن سـاكس Golden sacks المصرفية في ٢٠٠٧ ما

---

(١) المحلل الرمزي symbolic analyst: مصطلح صاغه روبيرت رايخ كتابه «الرأسمالية الفائقة: تحول الأعمال والديمقراطية والحياة اليومية» واصفًا العمّال الذين يشغلون مواقع قوية في الاقتصاد المعولم الحالي، ويعدّ مصطلح «خدمات التحليل الرمزي» تصنيفًا وظيفيًا مرموقًا وفضفاضًا جدًا.

يقارب ٤, ٦٦١ قطع النظير. ٨٠ دولارًا. وفي شركة ليمان بروذرز Leh-man Brothers، قبل أن تُحال للقضاء بسبب الفساد المالي، ثلاثمائة ألف دولار. ويجني الشركاء الكبار في شركات المحاماة المرتبطة بالشركات متعددة الجنسيات راتبًا يقارب المليون دولار، كذلك كبار موظفي الشركات الاستشارية، والتدقيقية، والإعلانية، التي تنفذ استراتيجيات التسويق والترويج عالميًا.

يتقاضى الرؤساء التنفيذيين في الشركات متعددة الجنسيات رواتب ومكافئات تصل عنان السماء، يصل راتب الرئيس التنفيذي في أيّ شركة كبرى في الولايات المتحدة أربعمائة ضعف راتب الموظف الاعتيادي. ويستلم أعضاء مجالس الإدارة رواتب ومكافئات تجعلهم مليونيرات في وقت قصير جدًا، ولا سيّما أصحاب الشركات المختصّة بالتكنولوجيا.

يشير رايخ إلى أن اقتصاد المدن المعولمة يتمحور حول تلبية احتياجات الطبقة المرفّهة جدًا، لذلك ازداد عدد المقبلين على تقديم الخدمات لهذه الطبقة. كانت الطبقة الوسطى أول من شعر بتأثير هذه الطبقة المرفّهة الجديدة؛ وكانوا أول من لمس أثر الصدمة «الأولى»، بعد أن أمسى العيش في المدن المعولمة باهظًا ومكلفًا مع ارتفاع أسعار العقارات والإيجارات بجنون.

أما الصدمة الثانية فقد كانت نفسية بحتة. لطالما قابلتُ زملاءً لي من أطباء يشكون من ضنك العيش (أفنيتُ حياتي بالدراسة والتخصّص لأكثر من خمسة عشر عامًا، ولم أبدأ بالادخار إلا متأخرًا. والأدهى أنني أشعر بالبلاهة والغبن حين أشاهد زملاء لي تركوا كليّة الطبّ، والتحقوا بشركة تقنيات احيائية تقوم باستثمار مشاريعهم. لدى هؤلاء المتخلفون عنّا الآن أموال تعادل ما أجنيه في حياة كاملة).

يمثّل هذا الطبيب عينة كبيرة من الموظفين الذين يشعرون بالحرمان وضنك العيش الدائمين؛ لأنهم يعملون بجهدٍ جهيد كي يلتحق أبناؤهم في الجامعات، ويشعرون بصعوبة توفير أسلوب حياة كانوا يتوقعون الحصول عليها بدهيًا حين التحقوا بهذا التخصّص، وصارت المكانة التي يسعون لها

بعيدة المنال؛ لأنهم لا يستطيعون تحمّل كلفة نمط الحياة والحظوة التي كانت ترتبط بهذه الوظيفة في الماضي.

كان والدي محاميًا في بازل، مدينة صغيرة نسبيًا في سويسرا، لكنها مزدهرة اقتصاديًا بسبب وجود مقرات شركات أدوية شهيرة فيها مثل روتش Roche، وسيبا-جيغي Ciba-Geigy، وساندوز Sandoz (اللتان اندمجتا في شركة نوفارتس Novartis). لم يكن في بازل في الستينيات والسبعينيات سوى مائتي محامي فقط، لذلك عندما كنت صغيرًا، وكنت أتنزه مع أبي في مركز المدينة، وكان الجميع يعرفه وفي المقابل كان يعرف الجميع. وفي كل بضع خطوات يقف شخص ما يحيينا، ويبادله أبي التحية برفع قبعته بطريقة أوروبية تقليدية.

كانت بعض العائلات الارستقراطية الثرية تعيش أبًا عن جد في بازل، مثل ملّاك شركة روتش (وما زالوا). لكن لم يكن لهذه الطبقة تأثير في تحديد الجو العام للمدينة. لكن الطبقة الوسطى من محامين أمثال أبي، وأطباء، ومختبريين، ومعماريين، وأساتذة جامعات من كان يحدّد جوّ المدينة، وأفق التوقّعات للجيل القادم من أمثالي ليختاروا مسارهم الوظيفي. كان جليًا أن الوظائف المتوفرة تضمن لك كفاية مادّية، ومكانة مُرضية. وعلى الرغم من أن الطبقة المرفّهة موجودة، لكنها لا تحدّد للطبقة الوسطى أفق توقّعاتها.

لقد تغيّر هذا الوضع جذريًا مع صعود طبقة مرفّهة جديدة. يصف عالم الاجتماع دالتون كونلي Dalton Conley الحالة الذهنية الناجمة عن ذلك بما يطلق عليه «تأثير التبدّل الاقتصادي المربك» Economic Red Shift Effect؛ أي إن الموظفين الذين يتقاضون ٢٠٠,٠٠٠ دولار، الذي كان إلى وقت قريب أجرًا مرتفعًا نسبيًا، صاروا لا يشعرون بالرضا مع هذا الراتب، وكان الإحساس الطاغي أن جهدهم ضائع بلا فائدة. الظاهرة التي تصفها مجلة فوربس Forbes بـ «استياء الأغنياء من السوبر أغنياء».

إضافة إلى المشكلات الاقتصادية التي سببتها المدن المعولمة في الطبقة المتوسطة، أو ما أطلق عليه كونلي بتأثير التبدّل الاقتصادي المربك. ثمّة

ظاهـــرة أخرى لابدّ من التطرّق لها: أظهر علـــم النفس الوجودي أن العمق الإنساني هو الذي يســـتحق العناء وإحداث الفرق، وإضفاء شعور يستحق إلى عـــالم محيـــط. وكلنا بحاجة إلى الشـــعور بأننا نقوم بـــشيءٍ ضمن الإطار المرجعي الذي يحدّد عالمنا المادّي. السؤال المطروح الآن: ماذا نقصد بالإطار المرجعي؟ قد يكون الممارســـون المحليون مؤهلين جدًا ولديهم شغف وإرادة في عملهم، لكن تأثيرهم لا يتعدى البيئة التي يعيشـــون فيها. قد لا يستحق الموضوع جلبة كبيرة في عهد والدي في الخمسينيات؛ لأن الإطار المرجعي لم يكن عالميًا بعد. لكن الممارسين المحليين في عصر العولمة شعروا أن زمنهم قد ولّى؛ لأن الإطار المرجعي للنظام المعلوماتي والترفيهي لا يعتمد عليهم.

خسر كثير من الممارســـين المحليين استقلاليتهم بســـبب الحركة العالمية، وصار عســـيرًا على المحامين مثلاً التنافس مع شركات محاماة توفّر خدمات دائمـــة وسريعة على مدار الســـاعة واليوم والأســـبوع. كذلـــك الحال مع المستشـــارين والمحاســـبين وخبراء الإعلانات الذين تغيّر محيطهم جذريًا، وبات عليهم التنافس مع شركات مثل ماكينزي McKinsey وايرنست آند يونغ Ernst & Young وماكان أريكسون McCann Erickson.

بات لزامًا على الممارسين المحليين ابتكار مسميات وعلامات تجارية لأعمالهم مع أنهم لا يســـتخدمونها؛ لأن معرفة اســـم الخبير ومكانته تكفيان للقبول به والعمل معه. وذلك ما لا يمكن قبوله في الســـياق المعولم الذي تحدّد فيه المكانة بالاعتماد على المسمى والعلامة التجارية التي ينتمي الفرد لها.

جادل ديفيد روثكوف David Rothkopf أن العالم تديره جماعة لا يتجاوز عدد أعضائها الســـتة آلاف شخص فقط، أطلق عليهم السوبرطبقة، هم أفراد دافوس الجـــدد، والنخبة القلائل الذين يمثلون رؤســـاء الدول، والرؤســـاء التنفيذيين في الشركات الكبرى، وذوي الثروات الجبارة. حتى لو كان تعريف روثكـــوف مبالغاً به، لكنه يلامـــس من الواقع كثيرًا من الأشـــياء. فقد أثرت الطبقة المعولمة الجديدة على كلّ من الواقع الاقتصادي والوجودي للأشخاص الذين لا ينتمون إليها.

لا يختلـف تأثير العولمـة على النتـاج الثقـافي والفنّي كثيرًا. خـذ طبيعة النـشر مثـالاً، لقد كان الناشرون في السـابق مسـؤولين عن مـا يجدر نشره أو مـا لا يجـدر مثل آلفريـد نوبـف Alfred Knopf، وروبرت شـتراوس RobertStrauss، وروبرت جيروكس RobertGiroux، والألماني صامويل فيشر Samuel Fischer، والفرنسي غاسـتون غاليمور Gaston Gallimard. كان هؤلاء مولعين بـالأدب، ويعرفون الأدباء والكتّاب حـقّ المعرفة. بينما يعتمد اقتصاد النشر الحالي على الكتب التي تباع نسـخها بـالآلاف بغض النظر عن المسـتوى الأدبي والفكري مادامت تلبّي حاجة السوق الجماهيرية. استحوذت اقتصاديات التوسّـع الحجمي على السـوق في غضون عقود قليلة، واشترت الشركات الكبرى حقوق ملكية الناشرين المسـتقلين، ودمجتهم داخل قطاعها العالمي. لم نعد نستغرب حين نجد عمالقة النظام المعلوماتي والترفيهي مثل فياكوم Viacom، وسوني Sony، وبيرتلسمان Bertelsmann لديها دور نشر خاصّة بها. فليس ضروريًـا أن يكون لدى صاحب دار النشر إطلاع بالكتب والأدب وما شابه. ولا تهم العناوين بقدر أرقام المبيعات، مما حرم المؤلفين وجمهور القرّاء من العناوين ذات القيمة والفائدة. بالتوازي مع ذلك شهدت العقود الماضية إفلاس بائعي الكتب المستقلين وموتهم، وحين تنحوا عن الصورة استحوذت دور النشر الكبيرة مثل بارنيس ونوبل Barnes & Noble، وواترسـتون Waterstone، وعملاق النشر الإلكتروني آمازون Amazon على السوق.

الأمر نفسـه يحدث في قطاع صناعة الموسـيقا والأفلام. قـوى كثيرة باتت تتحكـم في الاسـتوديوهات، وشركات التسـجيل، وشـبكات القنـوات التلفزيونية. النتيجة كانت ما أطلق عليه جون سيبورك بمجتمع اللا-ثقافة أو ثقافة النوبرو NoBrow Culture، وفيها تفوق الاعتبارات التسـويقية أحكام الجودة إلى درجـة يصبح من الضبابي معرفة هل الجودة تحكم الأمر؟ أم هل أن التصنيف مبالغ به أو نجاح المبيعات؟ وذلك لا يختلف عمّا يُطلق عليه من تعبير ملطّف «دمقرطة الذوق» أو إضفـاء الطابع الديموقراطي على الذوق، أي إن السوق يمارس ضغوطًا ليحصل على ما ينشده مقابل القاسم المشترك الأدنى.

تأثير هذه التطورات على الواقع النفسي والمادي لدى الإنسان المعولم شديدٌ ولا حدّ له. فمن جانب لا توجد احتمالات كثيرة لمن يرغب أن يعيش أشكال حياة فردانية مستقلّة أخرى؛ فلا يستطيع المحامي أن يتحول إلى كتُبي، أو أن يتحول المحاسب إلى مؤلف مسرحيات؛ لأن الضغوطات التي يسبّبها السوق المعولم جبّارة فعلاً. ومن ناحية أخرى، ثمّة إغراء لانهائي لقصص نجاح تحظى بتغطيات إعلامية مبالغ بها، من رجال أعمال ورؤساء تنفيذيين أو مشاهير إعلاميين.

لم تكن جملة «افعله فحسب» مجرد شعار، بل واقعًا معاشًا. فإن كانت الثمانينيات قد خلقت نجاحات تجارية وثروات مهولة لنجوم القطاع الاقتصادي، فإن التسعينيات وبداية الألفية قد قزّمت هذه القصص؛ من ستيف جوبز Steve Jobs إلى مارك زوكربيرغ Zuckerberg Mark، ومن إيمينم Eminem إلى بيونسيه Beyoncé. أينما تولي وجهك، تجد دلائل على أنك تستطيع الوصول إلى العُلى، بل أي شخص لديه الشجاعة والقدرة على الابتكار وحاسوب واحد مربوط بالإنترنت يستطيع أن يكون قصة نجاح بحدّ ذاته. في جعبتنا عشرات القصص، من يوتيوب وإي باي وغوغل وفيسبوك، التي تثبت على ما يبدو أن عنان السماء لا توقف الأحلام ولا تحدّها.

دعنا نحلّل التأثير السيكولوجي لواحدة من أشهر الإعلانات الناجحة في التأريخ؛ حملة نايكي Nike «افعلها فحسب». لنبدأ بتحليل إعلاني المفضّل ذي الثلاثين ثانية (إخفاقات)، والذي يظهر فيه مايكل جوردان مرتديًا بدلة رمادية ومعطفاً أسود، ويخرج من سيارة رياضية ماشيًا بخطى مترقّبة حتى يدخل الملعب، وما أن يراه المعجبون وأفراد الأمن وعمّال النظافة حتى يرحبّون به بنظرات الإعجاب والتقدير. كانت ملابس جوردان تضفي عليه إحساسًا بالقوة والضخامة والأناقة غير المبالغ بها. ويُسمع في الخلفية صوته الجهوري يستذكر إخفاقاته من الأهداف الضائعة، والأهداف التي اعتمد

عليه الفريق ليصنعها وفشل، والمباريات الخاسرة. ثم جاءت كلماته الأخيرة حين يفتح الباب للدخول إلى الملعب «لقد فشلت مرارًا وتكرارًا في حياتي، وهذا هو السبب في نجاحي».

إنتاج الإعلان كان متواضعًا، وفيه طاقة باهتة ومكبوتة وإضاءة مركّزة، تجعل ألوان الفيديو تبدو أقرب للأسود والأبيض منها للألوان. وكانت حركة جوردان بطيئة، بما يرمز لوجود طاقة داخلية وهدوء وأناقة غير مصطنعة. وكان يسرد اخفاقاته بكلّ سلاسة، بحيث يخلق قناة تواصل مع المشاهدين، وكأنه شبه إله (حين يجتمع الفناء الإنساني والخلود الإلهي في شخص واحد). نحن جميعًا نعرف كيف يكون الفشل، وندرك أن ٩٩,٩٩٩٩٪ منّا لن يتذوق طعم النجاح كما اختبره مايكل جوردان، لكن النصّ يوحي أننا نستطيع تذوّق طعم النجاح ما أن نتوقف عن الاستسلام.

في فيديو آخر لإعلان اسمه «انظر في عيني»، وفيه لا نرى مايكل جوردان شخصيًا بشحمه ولحمه، لكن نسمع صوته فقط. نعم، مازلنا ننظر إلى مجموعة يافعين، سود البشرة وبيضها، بعضهم بملابس رياضية، وآخرين في ساحات كرة السلّة الاعتيادية. الخلفيات تدلّ على أن الأشخاص ينتمون إلى أحياءٍ فقيرة، وبعض الوجوه توحي بالغضب أو التشكّك، ولكن الجميع في حالة تحدٍّ.

يقول نصّ الفيديو «انظر في عيني. لابأس أن تكون خائفًا، أنا كذلك. لكننا نخاف لأسباب مختلفة، أنا خائف مما لن أكونه، وأنت خائف مما ممكن أن تكون. انظر إلي. أنا لن أسمح لنفسي أن أنهي ما بدأته. ولن أسمح لنفسي الانتهاء ما دمت قد بدأت. أنا أدرك ماذا في داخلي، حتى لو لم تتمكن من رؤيته أنت بعد. انظر في عيني. لدي شيء أكثر من مجرد شجاعة. لدي الصبر، سأكون ما أنا أعرفه عن نفسي» ثم نقرأ كتابة تظهر على الفيديو «كن أسطوريًا».

في إعلان آخر: نرى ماريا شارابوفا، أشهر لاعبات التنس في العالم، وهي تمشي في فندق ما (يبدو فندق والدورف Waldorf)، وتغني جوقة موسيقية

متفرقة من المتفرجين «أشــعر أنني حســناء». في الفيديــو دلالة واضحة أن النساء الحســناوات لا يؤخذن على محمل الجدّ. تحاول شارابوفا أن تتجاهل الآخرين ولا تنظــر في أعينهم، بل تركّز على نفســها، في طريقها إلى ملعب التنس في فلشــنغ ميدوز في نيويورك، حيث نشــاهد جــون ماكينرو ضمن المتفرجين. تتوقف الموســيقا حين تقوم خصمها بالإرسال، فتعيد الإرسال شــارابوفا بضربة أقوى تتجاوز الخصم وتســجل النقــاط. فيعلّق ماكينرو ببداهة وتعجّب «أوتش».

تعمــد شركة نايكي هذه المرّة إلى اســتغلال معاناة أغلب النســاء اللاتي لا يؤخذن على محمل الجدّ لمجرد أنهن نســاء، أو لأنهن حســناوات على أقل تقدير. يشــكّك المجتمع بإنجازاتهن في العمل أو الحياة بسبب مظهرهن ولا شيء غير مظهرهن. لاشكّ أن شارابوفا واجهت فعلاً مثل هذه التحديات، لذلك يبدو أن المتفرجين مستغربون منها؛ لأنها تجمع بين الحُسن والبراعة في لعبة التنس في الوقت نفسه.

يقوم شــعار «افعلها فحســب» بخلق ارتباط بيننا نحن الفانون العوام، وأشباه الإله من مشــاهير الرياضة. رسالة هذه الإعلانات بسهولة أننا حين نشــتري الأحذية والملابس الرياضية التي يستخدمها العالميون، نربط أنفسنا الفانيــة ومواهبنا المتواضعة بأولئك الذين وصلوا عنان الســماء بمواهبهم، وشهرتهم، وثروتهم، وما لديهم وعليهم من أضواء.

سيكولوجية البطولات والسعي إلى الشهرة

لم يكن لحملــة شركة نايكي أن تنجح أو تجعل منها شركة ذات رأســمال يتعدى الخمســين مليار دولار، ومبيعات تتجاوز ثلاثة وثلاثين مليار دولار ما لم ترتبط بنمطية عميقة وواسعة الانتشار.

نمط الحملة قديمٌ قدم قدرة الإنسان على رواية القصص، ويعتمد على أحد أشهر أنماط الأساطير المعروفة: دائمًا يواجه الأبطال في الأساطير شكوكهم، ويتســاءلون أمن الأجدر أن يحققوا مصائرهم أم لا؟ الولادة النفسية للبطل تتمثل في مواجهة الخوف، والشــكوك، والتردّد، وتتمثــل في اللحظة التي

يدرك أن الوصول إلى النجومية يتطلّب اجتياز عقبات الفشل والاستخفاف والأذى والموت؛ وإن عدم المحاولة يفقد إمكانية العظمة والخلود.

تتمتع الميثولوجيا اليونانية بميزة أنها تضع الأنماط التي يتبناها لاوعي الثقافة الحديثة تحت المجهر؛ لأن كل أبطال الأساطير اليونانية منشغلون بالسعي للشهرة والخلود، ومستعدون للموت الجسماني عسى أن تتناقل الأجيال قصص مآثرهم وشجاعتهم. تبيّن نتائج علم النفس الوجودي أن الأساطير اليونانية أجادت في توضيح الفكرة بأسهل صورة ممكنة. إن خوفنا من أن تنتهي حيواتنا بالموت، أو أن نكون نكرة، أو أن نختفي إلى العدم. كلّ هذه المخاوف مرعبة لدرجة أن كثيرين على استعداد للموت شريطة الخلود الرمزي الذي قد تحقّقه هذه البطولة.

تقدير الذات من أهم العوازل الفاعلة لمقاومة خوفنا من أن نكون نكرة، أو أن نموت. وقد أُثبت ذلك في بعض تجارب علم النفس الوجودي: أُعطي لمجموعة من المشاركين دفعة من تقدير الذات بشكل مديح إيجابي لما يقومون به من مهمّات، في حين لم تحصل المجموعة الثانية على أي مديح. ثم أُعطي للمجموعتين إشارات تتناول ثيمة الموت، بحيث تجعل المشارك يدرك حقيقة موته الخاصّ. ثم يُسأل أفراد المجموعتين عن دفاعاتهم إزاء هذه الأفكار. هكذا جاءت النتائج كما كان متوقعًا لها، فالمجموعة التي امتدح تقديرها لذاتها كانت أقل استخدامًا للدفاعات من المجموعة الأخرى.

لا مراء أن تقدير الذات وسيلة دفاعية ناجحة ضدّ خوفنا من الموت، وذلك يعود لأسباب فيسيولوجية بحتة؛ لأننا حين يزداد تقديرنا لذواتنا، ويزداد معدل السيروتونين والتستيسترون، ندرك وقتذاك أننا أقوياء متمكنين. لدينا نحن البشر كثيراً من القواسم المشتركة مع الحيوانات؛ انظر إلى كلبك الأليف حين يتمكن من إمساك العصا الطائرة في الهواء، تراه يعضّها بكل خيلاء وانفعال، ويركض بها نحوك رافعًا ذيله متبخترًا. ذلك لا يختلف مفاهيميًا عن ما نشاهده في ملعب التنس حين يرمي اللاعب الفائز الخصم بضربة موفقة صارخًا (نعم)، وقابضًا على يده دلالة الانتصار، أو حين يُسقِط

الملاكم في الحلبة خصمه بالضربة القاضية. النصر يخلق شعورًا انفعاليًا ممتعًا بأننا أحياء. ونعم، يزيد من تقديرنا لذواتنا. لكن لو أردنا أن نتمكن من تقدير الذات بشكل يومي مستمر، لن يكفي وقتذاك الاعتماد على هذه الاندفاعية الوقتية، ولا يمكن أن يعتمد تقدير الذات على هزيمة الخصوم والنجاحات قصيرة الأمد. إن التقييم الذاتي طويل الأمد يعتمد على أن يكون تقييمنا ضمن إطارنا المرجعي الثقافي؛ وعلى معرفة من نحن، ومعرفة أن ما نقوم به يستحق الاحترام والتقدير، وأن عملنا بوصفنا محامين، أو مصممين، أو صحفيين، أو أطباء لا بأس به؛ لأن عملاءنا يقدروننا، وأن النتاج الذي نقوم به يقع ضمن تصوّرنا لذواتنا.

من المؤكد أن أحد جوانب تقدير الذات يمنح المتعة الجوهرية لنقيام بأفعال الخير، وذلك ما أطلق عليه العالم النفسي شيكزنت ميهالي Csikszentmihalyi بحالة «التدفّق» flow[1]، أو الانغماس في نشاط نجيده ونقدّره جوهريًا. ولا يعتمد التدفّق على تقدير الآخرين. تدلّ أبحاث ميهالي أن التدفّق واحد من أفضل الأشياء التي تتنبأ بالرفاهية الشخصية.

كلنا يرغب أن يكون ضمن الإطار المرجعي في مجتمعنا ذوي المرتبة العالية، ويرغب أن يكون مقدرًّا محترمًا. تبيّن أحد تجارب علم النفس الوجودي أننا حين نشعر بقيمتنا ضمن الإطار المرجعي في مجتمعنا، نكون أقل خوفًا من الموت؛ لأننا نشعر، مثل الأبطال اليونانيين، أن إسهاماتنا إلى ما ننتمي إليه من مجتمع تترك أثرًا، الأثر الذي يطول أكثر من حيواتنا المادّية. لكننا لا نفكّر شعوريًا في كلّ مرّة نشعر فيها بالرضا عن أنفسنا ونقوم بأفعال خير تُخلّد بعد مماتنا. يكفي أن نشعر بما نقوم به من خيرٍ ويقوينا. إننا نعادل لا شعوريًا ما نقوم به بوصفه مساهمة للمجتمع وليس لأنفسنا، ونريد أن نشعر أننا نحظى بالتقدير لما نقوم به.

وذلك ما يدفع الرسامين، والكتّاب، والملحنين، للعمل ليلاً ونهارًا بلا مللٍ وكلل من أجل إبداعات يخلّدها التأريخ، وذلك ما يدفع المعماريون

(١) ميهالي، التدفق: سيكولوجية التجربة المثلى (١٩٩٠).

لإبداع بنايات استثنائية، أو يدفع روّاد الأعمال للإسهام في شركات ذات نفوذ، أو علامات تجارية مميزة. وذلك ما يدفع اليافعين للتنقل من عملٍ إلى عمل، ومقابلة إلى أخرى، على أمل أن يصبحوا ذات يومٍ ممثلين أو مغنينَ أو راقصين يشار لهم بالبنان. وذلك ما يدفع السياسيين لتَحمل الضغوطات والمنافسات في الحملات الانتخابية المروّعة الهوجاء.

يعكس ذلك حاجتنا إلى الخلود الرمزي الذي ناقشه إرنست بيكر بإسهاب: الدافع الدفين للسعي نحو الشهرة والإنجازات الاستثنائية، مع أن المنطق يقول إن القلّة فقط تستطيعون الوصول إلى الخلود الرمزي. فلو تحوّل الجميع إلى مشاهير، ستفقد الشهرة أي قيمة لها، وضمنيًا نحن ندرك أن الخلود في الوعي الإنساني لا يُطال ولا يُدرك على وجه العموم.

من الخلود إلى النجومية

أصبحت الشهرة في النظام المعلوماتي والترفيهي أكثر تعقيدًا، وأقل استقرارًا، ولا تستند غالبًا على أي إنجاز استثنائي. باريس هيلتون Paris Hilton مثلاً تشتهر أساسًا بأنها مشهورة فقط، فلا نجد لديها إنجازات تستحق الحديث عنها، ولكن لا يزال المصوّرون يكسبون الأموال لمجرد أن يلتقطوا لها صورًا غير لائقة، أو فاضحة، أو ما شابه. ولا تقتصر قيمة مشاهير آخرين مثل بيونسي، والزوجين براد بيت، وانجلينا جولي على مواهبهم وإنجازاتهم فقط؛ ولكن لأنهم مشاهير.

يبدو الاعتقاد بأن النجومية مرتبطة بالسعي إلى الخلود الرمزي، للوهلة الأولى، ضربًا من ضروب الجنون. لكن الدراسات عن وظيفة النجومية الثقافية وجدت أن الدور المجتمعي الذي يلعبه النجم المشهور يعادل دور رجل الدين ووظيفته؛ ذلك لأن المشاهير تحيط بهم هالة خاصّة، بحيث يسعى المعجبون دائمًا إلى لمسهم أو رؤيتهم فعليًا بالطريقة نفسها التي يسعى بها المتديّن للمس مراقد المقدّسين أو تقبيل أيادي رجال الدين رفيعي المستوى.

منذ بداية صناعة السينما الأولى، في مطلع القرن العشرين، اكتُشف أن شهرة النجم نقطة جوهرية في تسويق العمل. أما الآن، وبعد قرنٍ من هذه

الصناعة، يمكن لأحد نجوم هوليـــوود الصاعدين أن يحصل على مبلغ ٢٠ مليون دولار إضافة إلى نســـبة من الأرباح لمجرد أن يظهر اســـمه على الفيلم ليحدّد نجاحه. السعي إلى المجد لا يكون مدفوعًا في الأساس بالفائدة المادّية، بل ليجعلوا من حيواتهم ذات قيمة، وأن لا يكونوا معرفين لا مهمشين، وأن يكونوا خالدين في نهاية المطاف.

التناقــض في النجومية المعــاصرة أصبح أكثر وأكثر جــلاءً، فقد حصل الأشـــخاص الذين تمّ إقصاؤهم من برنامج بيغ بـــروذر Big Brother أو برنامج ســـيرفايفر Survivor على شهرة عالمية، وشوهد لقاؤهم ذو الخمس عشرة دقيقة بالملايين، لكن فرصة أن تُذكر أسماؤهم بعد ذلك صارت صعبة التحقّق. أما المشاهير الذين ظلّوا مشهورين لمدد طويلة، فإنهم يحتاجون إدارة حذرة لعلامتهم التجارية. على الممثل أن يســـتمر في الظهور في دور البطل في أدوار ناجحة متكررة. وعلى اللاعب الرياضي أن يستمر مع علمه أن تقهقر قدراته الجسدية تحدّد من مســـيرته المهنية القصيرة نسبيًا. وكذلك عارضات الأزياء اللائي لا يُرجح أن تدوم وظائفهن بعد منتصف العشرينات.

وتحدّد بعض الرياضات أعـــمار لاعبيها: بعض الرياضات تحدّد أن يكون اللاعب في أوائل العشرينات (الجمباز الفني مثلاً)، أو بداية الثلاثينات (كرة القدم والتنس)، وفي حالات قليلة جدًا يستمر اللاعبون بالمهنة مدى حياتهم (مثل المصارعة والملاكمة وسباق السيارات).

عدد قليل مـــن الممثلين واللاعبين مازالت شـــهرتهم مســـتمرة بعد انتهاء مســـيرتهم المهنية: لا يزال مايكل جوردان نجمًا بعد عقدٍ من مســـيرته مع فريق شـــيكاغو بولـــز Chicago Bulls ونصف عقدٍ مع فريق واشـــنطون ويزاردز Washington Wizards. أو بطل التنس بيورن بورغ Bjorn Borg مثالٌ نادرٌ آخر، إذ لا تزال صوره تملأ وسائل الإعلام بعد عقدٍ من انتهاء مسيرته المهنية.

لاشكّ أن النجومية يجب أن ترتبط بالزوال بدلاً من الخلود، لكنها ليست كذلك. الارتباط القديم بين الشهرة والخلود، مهما كان خادعًا، مازال يحتفظ بتأثيره على عقولنا.

مشكلة «افعلها فحسب»

هل الغرض من شعار «افعلها فحسب» مخادع فعلاً؟ إذا كان الإنسان يسعى دائمًا للمجد، حتى لو حذّرت الحِكم والمرويات الشعبية من تقلبات الذوق، وطبيعة المجد الانفعالية، فقد تكون جملة «افعلها فحسب» مجرد تجسيد للرغبة الإنسانية التي لعبت دورًا في كل حقب التاريخ.

ألم يكن مايكل جوردان يتحدث عنّا جميعًا؛ حين قال في إعلان (انظرْ في عينيّ): «سأكون ما أنا أعرف أنني أكونه»؟ أليست الرسالة إيجابية بالمحصلة؛ لأنها تحثّنا أن نكون أفضل ما يمكن أن نكونه؟ ألا تزيد العزم وتشدّ على معنوياتنا كي نسعى نحو الكمال، ولا سيّما حين ترتبط الرسالة بفضيلة الصبر، والتحمّل، والمرونة، والمثابرة؟

أعتقد أن الإجابة أقل وضوحًا ومباشرة مما يحاول اليساريون تصويره. لقد ألهم مايكل جوردان جيلاً كاملاً من الشبيبة. كذلك تايغر وودز Tiger Woods وروجر فريديرير Roger Federer وماريا شارابوفا Maria Sharapova. ووجد أن معدل إقبال كثيرين على لعب التنس يزداد في الدول التي ينتمي إليها لاعب تنس محترف، خذ السويد مثالاً، وانظر كيف فرض نجاح بيورن بورغ في السبعينيات والثمانينيات إلى بزوغ لاعبي تنس محترفين شاركوا في مسابقات عالمية في الثمانينيات والتسعينيات.

أعتقد أن أي محاولة لإضفاء صفة الشرّ على السعي من أجل المجد والشهرة لا يمكن الجزم بها؛ لأنها متأصلة في أعمق طبقات النفس البشرية. يُظهر علم النفس الوجودي أن هذا المسعى من أسهل الطرق التي يتبناها الإنسان للتعامل مع رهبة الموت والفناء. ولاشكّ أن التعصّب الديني والسياسي، والغلو في الإصلاح الذاتي، والرعونة المفرطة أكثر خطرًا من السعي خلف الشهرة؛ لأنه في أحسن الأحوال ينتج مثالية حقّة، وفي الأسوأ ينتج نجومية عابرة لا أكثر ولا أقلّ.

تكمن مشكلة شعار «افعلها فحسب» في محاسن نجاحها ومساوئ تأثيراتها. لم يكن بمقدور اليونانيين، والرومان أيضًا، إلا القراءة عن الأبطال

الأسطوريين والتاريخيين ولم تكن المعلومات تصل إلا إلى القلّة القليلة، حتى اخترعت الطباعة، وأسهمت أيضًا في تمكين الوصول إلى الكتب.

ليس من قبيل الصدفة أن يكون الأبطال في الثقافات الغابرة على هذا النحو. كانوا يحتاجون إلى القيام بشيء ما ليُكتب عنهم، سواء أكان البطل قائدًا سياسيًا، أم عسكريًا عظيمًا، أم كاتبًا، أم عالمًا، أم مستكشفًا. كانت القصص تتناقل عبر الكلمات وتتحوّل إلى حكايات ومرويات أخّاذة وآسرة لمستمعيها.

من الصعب أن نكتب عن سمات الحُسن والجمال أو مآثر الرياضة بإسهاب من دون أن نخسر القارئ أو أن لا نشعره بالملل. فإذا قرأنا السيرة الذاتية لماريلين مونرو Marilyn Monroe أو بيليه Pelé، فإن ما يأسر أرواحنا هو الدراما الإنسانية في الحكاية، وليست القراءة عن دور الممثلة أو طريقة لعب كرة القدم؛ لأن الصبغة الإنسانية تعبّر أيضًا عن الجمال والإثارة بذات الطريقة التي يرونها ويختبرونها.

النجومية بحدّ ذاتها، أو الدور الاجتماعي الذي يؤديه المشهور لكونه مشهورًا، لا تتحقق من دون الإعلام السمعي أو البصري. والسبب أن الدماغ يتمتع بصفة سرعة التناغم والتوجيه أينما كان الانطباع البصري المباشر، وكيفما كان. كان التوجه في البداية ينصبّ نحو ذوي المظهر الحسن، والكاريزما، والرشاقة. وفي غضون عقود قليلة، أصبحت قائمة المشاهير كلّها عبارة عن أسماء أشخاص من ممثلين ورياضيين. وتعدّ قائمة المائة مشهور لمجلة فوربيس Forbes في ٢٠٠٨ خير دليل لأنها تصنّف أكثر المشاهير نفوذًا وفقًا لأربعة عوامل: الأجور التي يتلقونها، واهتمام الصحافة، وكثافة شبكات الإنترنت، والتلفاز.

يوجد كاتب وحيد في قائمة العشرة الأوائل هي الكاتبة جي كي رولينغ J. K. Rowling تحيط بها فرقة الروك The Police من جهة، وبراد بيت Brad Pitt من جهة أخرى. وربما تحتاج أن تنتظر حتى الرقم ٧٥ لتجد إعلاميًا بحقّ، أي إن تجد شخصًا معروفًا بسبب حضوره الفعلي وتأثيره، وبذلك الإعلامي أقصد توم كلانسي Tom Clancy.

يمكن أن نلخّص أهمية التوجّه نحو أشخاص معروفين بسبب حضورهم الكثيف أكثر من أعمالهم إلى ثلاثة عوامل تساعدنا على التخلّص من رهبة الموت؛ الروابط العاطفية من زيجات، وآباء، وأبناء، وأصدقاء (عامل لا يسعنا أن نتطرق إليه في سياق هذا الكتاب). ثم يأتي دور الرؤى التي تساعدنا على إدراك العالم وتوفير المعنى، وتقدير الذات الذي نستمدّه من الروابط آنفة الذكر.

الشعور بأننا لسنا مهمشين ضمن الإطار المرجعي يعدّ ذا قيمة فعلية تعزّز من تقديرنا لذواتنا. يسيّر النظام المعلوماتي والترفيهي بفعل منطق اقتصادي خاصّ به، وذلك المنطق يعدّ كمّيًا إلى حدّ كبير: تستمدّ الصحف، والمجلات، والبرامج التلفازية، والمواقع الالكترونية قوّتها من القراء والمتفرجين والمشترين، ومن ثمّ تراهم يندفعون للكتابة والنشر عن الأشخاص والأحداث التي أسهمت في خلق هذه المواد الترفيهية.

لو افترضنا أن المستهلكين ينجذبون إلى حدٍّ كبيرٍ للمعلومات والقصص والتحليلات عن الذين يعرفونهم. فإن شهرة المرء بحدّ ذاتها قيمة اقتصادية؛ لأنها تعزّز ميل المستهلكين للانجذاب إلى الذين يعرفونهم، ومن ثمّ يزيد من قيمة شهرتهم بطبيعة الحال.

بينما نجد شهرة الذين لا يتمتعون بقوامٍ مميّز وجسد مثالي تزعجنا وتجبرنا على البحث عن معلومات إضافية لنفهم ما سبب شهرتهم؟ ولماذا كان ما قاموا به ذا شأن وأهمية؟ إن معرفة أهمية الشخص تتطلب بذل مجهود، في حين أن الوجه الحسن يعرّف نفسه وفقًا للقدرة الغريزية على لفت الانتباه.

وهكذا دواليك. يسعى النظام المعلوماتي والترفيهي، بمنطقه الخاصّ، أن يبحث عن مشاهير ويأخذ بأيديهم بسبب جمالهم وجاذبيتهم؛ لأن ذلك ما يبقي عيون المستهلكين مفتوحة عليهم من دون تشتّت وتمحيص.

وهذا الأمر أيضًا يغذّي الرغبة الإنسانية الدفينة في أن يكون المرء محبوبًا، العامل الآخر الذي يعمل على بناء تقدير الذات. إننا جميعًا نرغب أن يرعانا أحدٌ ما، وجميعًا اختبرنا هذه الصفة في حيواتنا. لقد برمج التطوّر عقول

البالغين ليحبّوا أطفالهم لا لسـبب إلا لأنهم موجودون فقط، وذلك سبب آخر يجعلنا نكره الكـبر؛ لأننا نفقد الحبّ والتقدير الـذي كان مضمونًا في الطفولة ومن المسلّمات.

يمثّل المشـاهير اليوم الوهـم الخيالي بأنك محبوبٌ لمجـرد أنك موجود. السبب الذي يجعلنا نضفي عليهم صفة المَلَكة السحرية، والهالة للفت الانتباه والإبهار والحبّ غير المشروط الذي نتـوق إليه غريزيًا، حتى لو حاولنا عبر النضـوج أن نزيح هذه المَلَكة بوصفها هدفًا نعمـل على تحقيقه فعلاً. لذلك أصبحت مسـألة التحوّل إلى نجم مشـهور رمزًا ثقافيًا في وسـائل الإعلام تعكس ما في الذات الإنسانية من أمنيات.

اقترح الفيلسـوف الألماني والتر بنيامين Walter Benjamin منذ سنوات تفسيرًا لافتًا للسؤال: لماذا ترانا مهووسين بالأعمال الفنّية؟ تستند فرضيته أننا نبحث عن أصالة الأشياء النفيسة التي يمكنها أن تعيد ترتيب عالمنا بتسلسل هرمي. وهذه الأعمال الفنّية تستطيع أن تشغل مكانة هذه النفائس، ولا سيّما عندما رفعت درجة الفنّ، واقترنت بالدين في القرن التاسع عشر.

مع بزوغ عصر التصوير الفوتوغرافي، وإمكانية استنساخ الأعمال الفنّية، أصبح الهوس بالأعمال الأصلية أمرًا مفروغًا منه. يكفي أن نسـتذكر لوحة الموناليزا، التي يقصدها ملايين الزوّار سـنويًا في متحف اللوفر لا لشيء إلا لمشاهدة النسخة الأصلية، أو نستذكر كيف يتهافت المسلمون لتلبية فرائض الحجّ والطواف، أو كيـف يتدافع اليهود عند حائـط المبكى، أو كيف يحجّ المسيحيون إلى حيث مكان مولد يسـوع ومعاناته وصلبه. يقترح بنيامين أن ثقافتنا قد أحاطت الأعمال الأصلية بالهالة أو شيء أشبه بالمَلَكة السحرية التي تحيط بالنفائس.

في ذات الحقبة التي اسـتُبدل فيها الفنّ بالدين في أوروبا، استُبدل الفنان بالإله. ثم وِلد المفهوم الحديث للعبقرية مع ولادة عصر الرومانسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. كان المذهب الرومانسي مهووسًا بعملية الخلق الفنّي. فلا شيء يبدو أكثر سـحرًا، وخصوصية، وقداسـة من خلق العمل

الفنّي. وعاد الفنان بمكانة كانت حصرية على اللاهوتية ومقتصرة على الإله فقط: أقصد معجزة خلق الشيء من العدم creatio ex nihilo.

اقتراحي أن المشاهير صاروا كائنات ذات هالة خلقها النظام المعلوماتي والترفيهي وعملقها. لو راجعنا الأنظمة الدينية قليلاً لوجدنا أن الشخص المقدّس من أنبياء أو قديسين أو مباركين يكونون خارج نطاق الترتيب الطبيعي للبشر. ولو استُبدلت هذه المباركة بالمَلَكة السحرية بأن تكون معروفًا، أو محبوبًا، أو مبجّلاً من الجماهير. هكذا استبدلت ثقافتنا السؤال عن التنوير، أو الإيمان، أو ما يتطلب الأمر للوصول إلى مرحلة القداسة بسؤال آخر عمّا يتطلب الأمر لنكون مشهورين. لا توجد ظاهرة توضّح هذه الديناميكية أكثر من تلفزيون الواقع Reality TV، الذي استطاع بمفرده تغيير مشهد التلفاز في العقد الماضي. لقد أخذت برامج تلفزيون الواقع الأضواء كلّها في مطلع القرن الواحد والعشرين، وصارت برامج مثل سيرفايفر Survivor وأمريكان آيدل American Idol تتصدّر قائمة المشاهدات، وكذلك خطّطت أربعة قنوات أمريكية وطنية منذ ٢٠٠٨ وهي ABC، و CBS، و NBC، وFox أن تتبنى برنامجاً واقعياً حصرياً واحداً يعرض في السنة.

يركّز تلفزيون الواقع على عملية تحوّل الإنسان الفاني العادي إلى نصف إله. كانت هذه العملية مخفية عن أعين المتفرجين، الذين طالما تساءلوا عن العملية التي حوّلت كلّ من براد بيت، وأنجلينا جولي، وجورج كلوني، وسكارليت جوهانسون إلى مشاهير، ولكنهم لا يرون إلا النتيجة النهائية في التحوّل إلى خالدين. ثقافتنا مهووسة بهذا التحوّل، بل إنها تستقتل لتعرف كيف حدثت المعجزة.

يعتمد نجاح تلفزيون الواقع على أهميته الرمزية في تحوّل الإنسان من فانٍ إلى نصف إله. لو تتبعنا شخصًا ما بعددٍ لا يحصى من الكاميرات، ستتمكن حينذاك من لمس عملية تحوّل الجوهر Transubstantiation في اللحظة التي يلمس بها الإنسان طرف الخلود.

تعكس هذه العملية واحدة من أعمق جذور الوجود الإنساني؛ لأننا جميعًا نولد مع هذه النعمة، أن نكون محبوبين بسبب وجودنا فقط، وقبل أن يولد «الوعي بالذات»، أو قبل أن نسقط في الخطيئة الكبرى ونعرف أكثر عن ذواتنا، إذ كنّا قبلاً في فردوس الخلود مثل العميان لا نعرف بأمر الزمن والفناء. وما أن ولِد الوعي بالذات، طُردنا من فردوس الخلود إلى الأبد، وحُكم علينا بلعنتي الوعي وإدراك حقيقة الموت، ولن يعود بوسعنا أن نسترجع الكمال والبراءة التي عرفناها قبلاً.

ولا أمامنا إلا التعامل مع معرفة أن الحبّ الذي كان بين أيدينا قد ولّى، ولسنا وحيدين ولا مميزين في الأرض، وأن في الأرض من هم محبوبون ومبجلون أكثر منّا.

النجومية هي طريقة ثقافتنا الخيالية للعودة بنا إلى ذلك الفردوس، نحن نُعيد المشاهير إلى حالة القداسة ما قبل السقوط، ونحن نحبّهم لا لسبب إلا لأنهم ما هم عليه. وبغض النظر عن أن الأغلبية يدرك أنه مهما كانت حجم الشهرة والمَلَكة السحرية لا ترفع حاملها إلى عليين، فإننا نبحث عن الشعور بطريقة تعيدنا إلى كمال الحبّ غير المحدود وغير المشروط في الوقت نفسه.

الجانب السلبي من «افعلها فحسب»

سيادة الفنتازيا

لاشكّ أن المخيلة الإنسانية أداة لا تقدّر بثمن؛ لأنها تتيح لنا تصوّر ما لم يحدث بعد، ورسم سيناريوهات لمستقبلنا الفرداني والجمعي على حدّ سواء، بل يمكن القول إن الفنتازيا هي القاعدة التأسيسية في كلّ من الفنّ، والتخطيط المستقبليين. لكن المخيلة الإنسانية تميل بشدّة إلى الأشياء التي يعرفها العقل سلفًا؛ لأن العقل يستخدمها لابتكار المختصرات. عندما لا نعرف كيف نصل إلى هدف ما، نتخيل أن المرأة التي نرغب بها متيّمة بنا مع أنها لا تظهر أدنى اهتمام بنا، ونتخيل السفر في طيارتنا الخاصّة مع أننا لا نملك أدنى فكرة عن كيفية كسب المال، ونتخيل أنفسنا مغنين مع أننا لسنا بالموهوبين ولا يبدو مظهرنا مقبولاً حتى.

دفع شعار «افعلها فحسب» إلى زيادة رهيبة في سيادة الفنتازيا، وربما يحثنا على إيجاد القوة والصبر والطواعية في دواخلنا، لنكون ما ندركه نحن عن أنفسنا. لكن جملة «كن أسطوريًا» لا تثمر في أيّ هدفٍ يمكن تحقيقه من وظيفة جيدة أو عيش حياة ذات معنى. تحثنا هذه الشعارات للسعي إلى الخلود والشهرة الأبدية، وأن تكون إنجازاتنا أشبه بإنجازات تايغر وودز، وروجر فريدرير، وماريا شارابوفا: ذلك فقط ما يجب أن نصبو إليه، وأي شيء أقل من ذلك لا يستحق العناء. لا نسمع شيئًا عن الولادة العسيرة لاكتشاف من نحن فعلاً، أو اكتشاف سماتنا ومواهبنا ومحدداتنا. بل نسمع ما هو عكس ذلك تمامًا بأنه: «لا توجد حدود» No Limit[1].

يبيّن تلفزيون الواقع عمق هذه الرسالة، وكيف أن المساحة الضئيلة التي توفّرها التخيّلات في النظام المعلوماتي والترفيهي يمكن أن تلهمنا المعرفة عن ذواتنا بموضوعية.

إننا ندرك الحدود في أعماقنا، وندرك أن شعار «افعلها فحسب» مجرد أسطورة، لكن تلفزيون الواقع استغلّ هذه المعرفة لصالحه لا غير. يشاهد متابعو أمريكان آيدول بكل شغف وحبور المراحل الأولية من اختيار المشتركين، وفلترة الذين يفتقرون للموهبة وإذلالهم علنًا. ذلك يترك المتابعين في حالة من الغبطة الممزوجة بالريبة من مشاهدة أشخاص يمرّون بهذا التمحيص المؤذي، وكيف تتبخّر أحلامهم أمامهم بكلّ قسوة وبرود. لكن كلّ ذلك يتناساه المتابعون بعد أن يشاهدوا نهاية العملية والتي تنتهي بمشهد التحوّل السحري من إنسانٍ فانٍ إلى نصف إله، ومن ثمّ تبقى سيادة الفانتازيا فاعلة ومفعمة بالحياة.

لاشكّ أن الإنسان المعولم الموهوب لا يتمنى أن يتحوّل إلى نجم في برنامج الواقع. لكنه يطمح بالتأكيد إلى تسلّق سلم سوق الأنا (حتى هذه الرغبة

---

(١) لقد حاولت سلفًا تحليل الخيال اللامحدود وتأثيره على تشكيل الهوية في كتاب الذات المصمّمة: التحليل النفسي والهويات المعاصرة The designed self: Psychoanalysis and contemporary identities (٢٠٠٤).

حاول تلفزيون الواقع أن يحققها مثل برنامج دونالد ترامب «المبتدئ» The Apprentice). هنا يحقّ لنا التساؤل: ألا يمكن أن نعدّ خرافة «افعلها فحسب» مفيدة؟ ألا تقوم بتشجيع الناس للتشبّث بالنجوم؟ أن يكونوا أفضل ما يمكنهم أن يكونوه؟

المشكلة أن ثمّة فرقًا شاسعًا بين الوصول إلى النجومية وأن تكون أفضل ما تستطيع؛ لأن أفضل ما تستطيع أن تكون ليس قريبًا من النجوم على الإطلاق.

يكمن التأثير الكارثي لشعار «افعلها فحسب» أنه يروّج لخرافة لا تمتّ بصلة للواقع. فلا يشترط أن الذي يصعد القمم يكون موهوبًا وشجاعًا وقوي البأس والإرادة وذا شخصية كاريزماتية. لقد أوضح مالكوم غولدويل Mal-colm Gladwell بالتفصيل ماهية المحدّدات الشرطية لبلوغ العُلا من ظروف الولادة، والحظّ الصرف، والترابط الأسري، ومصادفة أن يكون الشخص المناسب في المكان المناسب.

نشرت صحيفة نيويورك تايمز عددًا من المقالات الاستثنائية «الطبقات في أمريكا» Class in America، وحاولت فيها تفكيك جانب آخر من خرافة «افعلها فحسب». وبينما يبقى النظام المعلوماتي والترفيهي يخبرنا باستمرار بعدم وجود حدود لما يمكننا تحقيقه، وأن الأمر ضمن حدود المستطاع، لكن الحقائق تبيّن صورة مختلفة تمامًا. إذ إن التغيّر الاجتماعي في الولايات المتحدة في مطلع القرن الواحد والعشرين أدنى بكثير مما كان عليه قبل نصف قرن.

العامل الرئيس الذي أسهم في هذا التدنّي يعود إلى أن استحصال شهادة تعليم عالٍ صار مكلفًا جدًا، وقد ولّت أيام G.I. Bill الذي أذاب الحواجز في الدراسة والانتماء إلى الطبقة الوسطى.

وخلافًا للأسطورة القائلة إن الذين تركوا الدراسة الجامعية مثل غيتس وزوكيربيرغ يستطيعون أن يكونوا أي شيء حالهم حال صاحب الشهادة الجامعية، فقد وجد أن الدراسة الجامعية ضرورة حاسمة في تحديد من يستحق وظيفة ذات أجرٍ أفضل، أو الصعود إلى طبقة أرقى، كما أوضح كلّ من روثكوف ورايخ. فإن الطليعة المختارة يرتادون جامعات نخبوية متشابهة

توفّر سيرة وعنواناً وظيفياً، وشبكة علاقات تضمن صعود التسلسل الهرمي للأعمال أو الوظائف. لقد أمسى الحصول على شهادة الماجستير من جامعة هارفارد Harvard أو ستانفورد Stanford أو وارتون Wharton أو أنسيد INSEAD من متطلبات حلم الوصول إلى القمّة.

تضاعف الأثرياء في آخر عقدين بعددٍ لم يوجد من قبل (تجاوز عددهم في ٢٠٠٨ عتبة الألف عالميًا)، ولم يكن هؤلاء الـ ٥ , ٠٪ من السكّان يكسبون أموالاً كما اليوم، ولم يكن نجوم الرياضة والإعلام يحصدون أرباحًا فلكية، أو إيرادات من بيع الألبومات، أو شباك التذاكر، أو من مجرد ظهورهم في الإعلانات.

كما يظهر علم النفس المعرفي الحديث أن العقل البشري غير مستعد للتفكير على نحو إحصائي بحت، مع أن الأرقام تثبت أن ٥ , ٩٩٪ من سكّان الدول النامية (بغض النظر عن أن نصف سكان المعمورة يعيشون في فقر مدقع) يستحيل أن يصلوا إلى أدنى درجات الترف. لكن بدلاً من قراءة الإحصاءات لنستوعب ما نستطيع تحقيقه وما لا نستطيع، فقد انشغل الإنسان المعولم في آخر عقدين بخرافة «افعلها فحسب» وتغاضى عن الواقع القاحل ذي الحقائق الجافّة. وعلى الرغم من أن كثيرين يبلون بلاءً حسنًا، لكنهم يشعرون أن أهدافهم أبعد من أن تُطال.

تعدّ القيمة التي تستحق الاكتراث في سوق الأنا، هي إنجازات الـ ٥ , ٠٪ الأوائل فقط، لذلك يشعر الإنسان المعولم دائمًا بأنه مُقصى من نظام التصنيف العالمي. ولا عجب في أن تحويل النفس إلى سلعة جعلت أغلب بني الإنسان المعولم يشعرون أن حياتهم تفتقد إلى المكوّن الرئيس في صناعة المجد، المكون الذي يساعد على الترفّع من رهبة الموت والفناء. إن الإنسان كان وما زال توّاقًا للمجد، وهذه المرّة الأولى التي يشعر فيها أنه أقرب للخلاص المخفيّ عنه، حتى لو كان هذا الخلاص محض وهم لا أكثر.



الفصل الثالث

هزيمة العقل

النسبية والروحانية الشعبوية

كنتُ لا أجد المتعة في شراء الكتب، قبل أمازون amazon.com بالطبع، إلا في رحلاتي بين نيويورك ولندن. وكالعادة تستهويني بعض الأقسام أكثر من غيرها، وبذلك أقصد الفلسفة وعلم النفس. لقد شهدت التسعينيات تغيّرات مرعبة في عالم الكتب.

كنت أشاهد سابقًا في متاجر Barnes & Noble عشرات الرفوف تحمل عناوين عن علم النفس الجادّ إزاء رفٍّ واحدٍ عن كتب «تطوير الذات». ولكن الكفّة انقلبت تمامًا في غضون سنوات قليلة، وبالكاد يمكنك إيجاد كتب عن علم النفس، في حين استحوذت كتب «تطوير الذات» ذات العناوين الروحانية على كلّ الرفوف.

لا يختلف الحال في الفلسفة كثيرًا، ولم تعد متاجر الكتب تفرّق بين الفلسفة الجادّة وصنف يطلق عليه «كتب الروحانيات، والميتافيزيقيا، والدين»، ولكن حين تتفحصها تكتشف أن أغلب العناوين تنتمي إلى عالم التنجيم، والتصوّف، والأفكار الحديثة.

ينعكس الأمر أيضًا في توجّه الناشرين لتصدير كتب مثل «السرّ» الذي تحدثنا عنه سابقًا؛ لأنهم يجنون من مبيعاته أموالاً أكثر مما يجنون من بيع كتاب

«بالآلهة نؤمن» للكاتب سكوت آتران Scot Atran الذي يعدّ تحليلاً تأسيسيًا في الأصل التطوّري للدين[1].

تعود بعض هذه التغيّرات إلى التغيّر الكبير الذي طال هيكل تجارة النشر؛ فقد اندمجت كثير من دور النشر القديمة في عمالقة النظام المعلوماتي والترفيهي الذي يديره أشـخاص لا يفقهون شيئًا عن فحوى الكتب، ولا يكترثون إلا بعدد الأرباح والمبيعات، لذلك يفضلّون العنوان الذي يمكن تحويله إلى فيلم سينمائي أكثر من اكتشاف روائي مؤثر، أو مؤرخ مرموق، أو فيزيائي نجيب.

يعتـذر الناشرون دائمًا بذريعـة «ليس باليد حيلـة»، وأن التجارة تعتمد كليًّا على الكتب الأكثر مبيعًـا، فمتى ما بيعت هذه الكتب، بغض النظر عن محتواها، يمكن حينـذاك توفير الدعم المالي لنشر كتـب أخرى ذات جودة محترمة تقتنيها النخب المحدودة.

ليسـت تجارة الكتب، ونسـق سلاسل المتاجر مسـؤولين حصريين عن أذواق القرّاء، إذ تعكس هذه الأذواق اتجاهًا ثقافيًا واسعًا. تدفع الشركات، الأمريكية وغير الأمريكية، أمـوالاً طائلة على ما يُطلق عليهم «المحاضرون التحفيزيون» الذين يسـوّقون أنفسـهم بأنهم «يكهربون الجو» أو «يرفعون المعنويات». لقد تعرضتُ شخصيًا لهذا الموقف حين دعتني إحدى الشركات للتحدّث في أحد مؤتمراتها، وطلـب أعضاء المؤتمر والمديرون التنفيذيون أن يحصلوا على شـعور جيّد من محاضرتي. كانوا يخشون أن يكون خطابي عصيًّا على الفهم، ويحتاج إلى جهدٍ فكري كي يستسـاغ، واشترطوا عليّ أن أتحدث على نحوٍ سلس، و«إيجابي» قدر الإمكان.

اسـتغربتُ طلبهم؛ لأن أغلب المسـتمعين من عالم التكنولوجيا وقطاع الاقتصاد، وكلهم خريجو جامعات، بعضهم درس الماجستير وآخرون لديه شـهادة الدكتوراه. إذن لماذا يخشـون أن يكون خطابي معقّدًا؟ ولماذا تحرص

---

(١) سكوت أتران. بالآلهة نؤمن: المشهد التطوري للدين In gods we trust: The evolutionary landscape of religion 2002.

الشركات على «رفع معنويات» موظفيها بدلاً من تعليمهم وتزيدهم بوقود التفكير؟ في المقابل نجد العكس حين يكون المتحدث خبيرًا في الاقتصاد أو التسويق، فإن الجمهور يطلب التزوّد بمعلومات فعلية، ولا يكتفي برسائل مبهمة لغرض الشعور الجيّد. لكن عندما يتعلق الأمر بالروح الإنسانية، فالأفضل أن تكون الرسالة ذات جانب إيحائي بدلاً من المعلومات، والتثقيف البحت. لا تعتمد الشركات إلى هذا الخيار عن فراغ، ما لم تكن متأكدة من الحاجة الفعلية له، بل أعتقد أن هذه المحاضرات عبارة عن استجابة للمأزق المعقّد الذي يختبره الإنسان المعولم لا غير.

ما بين اللا-استقرار والسيولة ووطأة النجاح والحاجة إلى الراحة

يعاني الإنسان المعولم من مقلقات متعددة ومتكررة؛ لأن وظيفته تعاني أيضًا من انعطافات متكررة لا تؤمّن له أي نوع من الاستقرار[1]. يخوض هذا الإنسان في وظائف عالم التكنولوجيا، والمال، والإدارة، والإعلام في سلسلة من الخيارات في عدّة شركات. لذلك يتحتم عليه أن يتخذ قرارات اندفاعية كلّ بضعة سنوات، ليختار بين الركود في وظيفة أو المضي قدمًا. لكنه لا يشعر في عالم «افعلها فحسب» بالراحة مطلقًا، ودائمًا ما يشعر أنه تخلّف عن الركب ولمّا يحقّق كثيرًا أو ليس بالسرعة الكافية[2].

الانتقال بين هذه الوظائف يمنح كثيرًا من الإثارة، ولكنه لا يضمن الاستقرار والراحة، لكن الشركات والمؤسسات التي يعمل بها ليست مصدرًا للأمان. ومع الوقت، يتطبّع ويندمج مع ثقافات الشركات هذه، بعد أن يدرك أن عليه التحلّي بروح الفريق والتكيّف مع قيم الشركة وسياساتها،

---

(١) زيغمونت بومان. الأوقات السائلة: العيش في عصر اللايقين Liquid times: Living in an age of uncertainty (٢٠٠٧). يصف بومان في سلسلة شهيرة المجتمع الرأسمالي بالسيولة. وكانت أطروحته الأساسية أن أولئك الذين أطلق عليهم بني الإنسان المعولم يمتازون بدرجة عالية من الانفصال عن المجتمعات، وأنهم لا يثقون في أي من المؤسسات الحالية، ومن ثمّ ينتقلون من مكان إلى آخر، ومن تعلق إلى تعلق، في محاولة لتحقيق فرصهم.

(٢) انظر سوزان جاكوبي. المدن المعولمة: نيويورك، ولندن، وطوكيو .The global city: New York London. Tokyo (٢٠٠٠). والذي يقدّم تحليلاً مستفيضًا عن بنية الاقتصاد الحديثة.

لكن يجدر به التعامل مع هذا التكيّف بوصفه لعبةً مؤقتةً وليس جزءًا محوريًا في تكوين هويته.

الوضع أكثر تدهورًا لدى رواد الأعمال الذين يديرون مشاريعهم الخاصّة من أعمال واستشارات وعيادات، هؤلاء بحاجة إلى التوفيق بين الوقت المخصّص لتكوين شبكات، وتسويق أنفسهم، والعمل نفسه، والبحث عن التغيّرات في بيئاتهم والتي تؤثر على حيواتهم المهنية. أغلب أفراد الطبقة المعلومة لا يتزوجون باكرًا، ويرجئون الأمر لحين الاستقرار والهدوء. يصف عالم الاجتماع دالتون كونلي Dalton Conley[1] بطريقة تجمع بين الصدق والدعابة كيف تحوّلت حياته الزوجية إلى عملية صاخبة ومعقّدة ومتعددة المهمات. كونلي رئيس قسم علم الاجتماع في جامعة نيويورك، وزوجته مصممة أزياء مرموقة، وكلاهما لديه وظيفة معقّدة وناجحة ويشار إليهم بالبنان، وكلاهما أيضًا يعمل من المنزل ما شاء من الوقت، وذلك يعني أنه لا توجد فسحة يشعران فيها بالتخلّص من وطأة العمل، فضلاً عن أن كليهما يعيش حياة معولمة تحتاج إلى التوفيق بين التوقيت الأوروبي والشرقي والشرق الأقصى.

ويدرك كلاهما مسؤوليات الأبوة، والتوفيق العاطفي بين احتياجات الأطفال، وقضاء الوقت الكافي معهما، وتوفير ما شاءوا من موسيقا، ورياضة، ورعاية نفسية. وبين كلّ المشاغل التي يقومان بها لابدّ أن يقلّا الأطفال من دروس اليوغا إلى دروس صناعة الفخار، وتحضير العشاء بينما يجيبان عن الرسائل اللانهائية في جهاز البلاكبيري أو الآيفون. وفي داخل عقولهم يطرحون الأسئلة الأزلية التي ناقشناها في الفصل الأول: «هل أقوم بواجبي على نحوٍ كافٍ؟» و«هل وظيفتي مدهشة على نحوٍ كافٍ؟» ومن ثمّ يقعون في مستنقع ما أطلق عليه كونلي بـ«تأثير التبدّل الاقتصادي المربك» Economic Red Shift Effect. لاشكّ أنهم يكسبون كثيرًا وكثيرًا

---

(١) انظر دالتون كونلي. في مكان آخر من الولايات المتحدة: كيف نوافق بين شخصيات العمل، وعشاء العائلة، والمجتمع البهرجة إلى مكتب المنزل، وأمهات بلاك بيري، والقلق الاقتصادي (٢٠٠٩).

من الأموال، لكن لا يشعرون أنهم وصلوا إلى درجة الاكتفاء، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن الحياة في المدن المعولمة تتماشى أكثر مع الأثرياء؛ ولأنهم يشعرون أن إنجازاتهم يكتسحها أسياد سوق الأنا العالمية، ولا مكان لهم إلا الهامش فقط. يشعر بنو الإنسان المعولم غالبًا وفي وسط كلّ هذه السيولة، والتشكّك، وجوّ المنافسة أنهم لا يستطيعون الرسو على حال. أغلبهم يشعرون بالقلق، حتى لو كانت حيواتهم لا بأس بها، ونادرًا ما يشعرون حقًا بالكفاية. وما زال العدد في تصاعد للذين يبحثون عن مساعدة دوائية: فليس لديهم الوقت، والجهد، وأحيانًا المال كي يستثمرونه بطريقة تعكس ما في دواخلهم. وبالنظر للسهولة النسبية التي يصف بها الأطباء الممارسون مضادّات الاكتئاب SSRIs مثل البروزاك والباكسيل وما شابه. يشعر كثيرون أنهم يحتاجون حلولاً سريعة إذا ما عملت[1]، لكنها لا تعمل في غالب الأحيان. تعدّ مضادّات الاكتئاب فاعلة جدًا في التعامل مع اضطراب الوسواس القهري، واضطرابات الاكتئاب، والعصاب الشديدين، لكن فعاليتها في حالات الاكتئاب الطفيف والقلق المرتبط بنمط الحياة أمرٌ مشكوك فيه جدًا.

وذلك يفسر كثيرًا، لكن لماذا يتعطش المشاركون في سباق العولمة لأي نظام أو معتقد يوفر لهم العزاء والراحة بأن حياتهم لا تسير بالاتجاه الخاطئ. هذه الحاجة المستدامة للعزاء التي زادت من الطلب الكبير على الروحانية الشعبوية pop spirituality التي أغرقت السوق[2].

---

(١) مارك اولوفسان. الأنماط الوطنية في العلاج بمضادات الاكتئاب. محفوظات الطبّ النفسي العام (٢٠٠٩)، ٦٦ (٨): ٨٤٨-٨٥٦؛ كومبتون. التغيرات في انتشار الاكتئاب الشديد واضطرابات تعاطي المخدرات المرافقة في الولايات المتحدة بين ١٩٩١-١٩٩٢ و٢٠٠١-٢٠٠٢. مجلة الطبّ النفسي الأمريكية، ١٦٣ (١٢)، ٢١٤١-٢١٤٧.

(٢) يمكن الاطلاع على كثير من التحليلات البديعة عن سوق الروحانيات الشعبوية. انظر إيفا إيلوس. إنقاذ الروح الحديثة: المعالجة والانفعالات وثقافة التنمية البشرية :Saving the modern soul Therapy. emotions. and the culture of self help (2008)، وفي دراسة تهكمية على الرغم من صراحتها عن هذه الثقافة انظر توم تايد. أمّة التنمية البشرية: الدليل المبرر والعادي والذي طال انتظاره لبائعي زيت الأفعى المتجولين الذين يستنزفون أرواح أمتنا .Self- help nation: The long overdue. entirely justified. delightfully hostile guide to the snake- oil peddlers who are sapping our nation's soul (2001).

في اعتقادي أن هذه الروحانيات قد وُجدت لتضمن الشعور بأن الإنجاز والسلام الروحي يسيران معًا بالضرورة. ويعني ذلك أن الافتراضات الآتية يجب أن تجتمع معًا: الافتراض الأول أن فعلاً الحدّ لما يمكن للإنسان أن يكونه غير موجود، وكأن الذات يمكن إعادة تصميمها بحسب الطلب من جديد. والافتراض الثاني أن البشر الذين يطبّقون هذه الأساليب السحرية لا يقومون بتغيير شيء ما أو شخص ما فعلاً، لكنهم يصبحون ما كان ينبغي أن يبدأون به أو «الذات الحقيقية».

المشكلة أن هذين الافتراضين يتعارضان مع بعضهما، فإذا كان بالإمكان تصميم الذات بصورة ما، فكيف يمكن أن تكون الذات المصمّمة والذات الحقيقية هي الشيء نفسه؟ لا يمكن حلّ هذا التناقض إلا بافتراض ثالث لم يتحدث به علانية وبالتفصيل من قبل: ذلك أن الذات مصدرٌ للحقائق العميقة المحضة. ووفق هذه الرؤيا، يكون الافتراض أننا لا ننتمي إلى الأشياء الخاطئة ما دمنا منفصلين عن ذواتنا الحقيقية العميقة؛ لأننا ندرك في العمق من نحن فعلاً، وما أن نتواصل مع أنفسنا الحقيقية، نتواصل مع مصدر المعرفة المجردة من الأخطاء. وخلف الإرباكات والمنغصات التي تميّز حياة البشر الحقيقيين الذين نعرفهم، ثمة حياة أخرى، وواقع آخر، واقع محض للذات الحقيقية لا يمكن التشكيك به أو تخطيئه.

إن افتراض الذات بوصفها مصدرًا للمعرفة العميقة والمعصومة يسهم في جعل الدائرة مربعة. نعم، لا حدّ لما يمكن أن نكون ونصبح عليه.

لا حدّ لأن ثمة قوة جبّارة غير محدودة الإمكانات في أعماقنا: إنها ذاتنا الروحانية العميقة. وما أن يُطلق العنان لهذه الذات، يمكننا أن نكون أباطرة، ومغنين، وكتّاباً وصانعي أفلام كما نحب ونرضى؛ يمكننا التخلّص من الوزن الزائد الذي لا يرتبط بأنفسنا الحقيقية. الذات الحقيقية دليلٌ معصوم للحياة الرغيدة والإنجاز غير المحدود.

إن فكرة وجود ذات حقيقية متكاملة ومدفونة بالداخل خيال ثقافي أخاذ. يشعر معه الكلّ أن الحياة التي نعيشها لا يكفي أن تكون كلّ ما نملك، وكأننا

فراشـات محبوسـة في شرانقها، ولابدّ أن يأتي اليوم الذي تخرج فيه «الذات الفراشـة» القوية المتحررة من الشرنقة وتحقق إمكاناتها اللانهائية. تسـتمد جاذبية الروحانية الشـعبوية قوتها من هذا الخيال. فلا يستطيع البشر مقاومة فكـرة أننا حقًا أكثر قيمـة وموهبة وكفاءة ونجاحًا ممـا نحن عليه في حياتنا الحقيقية. هكذا فـإن منظومة المعتقدات التي تخبرنـا صحّة هذه الفكرة "أن نتصـلّ بالذات الدفينة لتكون قصتنا إحدى قصـص النجاح التي نتمناها- تتمتع بجاذبية قوية، ولا سـيّما إذا كنا بحاجـة إلى التعامل مع المرونة وعدم اليقين الأنموذجي لكثير من الأشخاص حاليًا.

سوق الروحانيات الجديدة

لا يجد الإنسـان المعولم غالبًـا الراحة في العـزاء الميتافيزيقي الذي توفره الأديان. لذلك تجد أكثر سـكنة أوروبا غير مرتبطين بـأيّ دين. والحال في الولايات المتحدة معقّد أكثر، إذ تعتقد الأغلبية المطلقة من مواطني الولايات المتحـدة أن الدين يلعـب دورًا فاعلاً في حياتهم، لكـن ثمة مؤشرات قوية أن المشـهد الديني تبدل كثيرًا، وإن كثيرين لا يلتزمون بالعقيدة التي نشـأوا عليها[1].

كذلك وجدت المؤشرات أن ارتفاع المسـتوى التدريسي، قلّل من احتمال الانتـماء إلى إحدى الديانـات التقليدية. وكأن المسـاعي تتجه، كما يفترض ريتشارد فلوريدا، نحو تحقيق الإشباع الروحاني على نحو فرداني. كأن يسعى الأشخاص للاستبطان، وممارسـة التأمل، وغير ذلك من التنظيمات الدينية الحداثوية[2].

ولم الاسـتغراب بكلّ الأحـوال؟ ألا يُتوقَّع من جماعة تمتاز بالتسـامح والانفتـاح على العـالم أن تبحث عن أشـكال روحانية تتجـاوز الديانات الكلاسيكية التي تختزل الحقيقة لها وتميل إلى إنكار شرعية الديانات الأخرى؟

---

(١) مسح كامل عن القيم العالمية. يحتوي على ثروة جبارة من البيانات فيما يخصّ هذا الصدد.

(٢) انظر ريتشارد فلوريدا. الإبداع والدين Creativity and religion (٢٠٠٧). وتعدّ فئة الطبقة المعولمة عمومًا مصدرًا لا بأس به لنوع الخطاب الذي يطرحه فلوريدا.

لا يتقاطع الوعي بالترابط العالمي كثيرًا مع الصراعات والنزاعات بين الأديان مثل محاكم التفتيش، أو الجهاد، أو الحروب الصليبية أو غيرها. إذن أين يجد الإنسان المعولم الراحة والعزاء؟ وجدت الأرقام أن الأفراد لا يبحثون عن مصادر، أو كتب، أو محاضرات متخصصة ذات معلومات مدعومة تجريبيًا، بل إن أغلبهم يبحث عن الروحانية الشعبوية بكلّ ضروبها المختلفة. نعم، أشكّ أن أغلب أرباب الروحانية الشعبوية من حملة شهادات أكاديمية معترف بها؛ وتتراوح خلفياتهم من شهادات التسويق إلى الهندسة، ومن التجارة إلى القانون. ولا يحتاج أغلبهم إلى تقديم أوراق تثبت صحّة مزاعمهم، بل يستحيل أحيانًا تتبع مصادر «المعرفة» التي يتبنونها.

الفئة الأولى عبارة عن أشخاص استمدوا قوتهم من تجربتهم الشخصية وتبدلاتها. وخير مثال على ذلك إيكارت تول Eckhart Tolle، الذي حقق كتابه «قوة الآن» نجاحًا مهولاً. إذ مرّ تول بأزمة مطوّلة جعلته مكتئبًا وتائهًا. ويمكن لمس مراحل التبدّل في كتاباته: **عندما حانت الساعة، لم يكن في جعبتي شيءٌ يستحق؛ لا علاقات، ولا وظيفة، ولا منزل، ولا هوية اجتماعية. قضيت عامين من حياتي أجلس على مقاعد المتنزهات تنتابني حالات من الذهول العجيب. وقد يكون أكثر التجارب حضورًا شعور السلام الذي رافقني منذ ذلك الحين. كان شعورًا جارفًا، ويكاد يكون نابضًا؛ وقد يشعر بما مررت به آخرون غيري. كان موجودًا، في الخلفية، حاضرًا مثل اللحن البعيد.**

كان الناس يستفسرون مني: «من أين لك كلّ هذا السلام؟ نريد ما لديك. هل لك أن تعلمنا؟ أو ترينا كيف نحصل عليه؟» وكنت أجيب: «إن ذلك موجود فيكم فعلاً. لكن لا تشعرون به؛ لأن عقلكم متخوم بالضجيج». كبرت هذه الإجابة لاحقًا لتتحول إلى الكتاب الذي بين أيديكم الآن. عرفت حينذاك أن لديّ هوية فعلاً، وقرّرت أن أكون مرشدًا روحيًا[١]. تتمحور سردية تول حول ثيمة قديمة مكرورة في كلّ الشخصيات الروحية والدينية مثل: بوذا،

---

(١) انظر إيكارت تول. قوة الآن: دليل التنوير الروحاني The power of now: A guide to spiritual enlightenment (٢٠٠٤).

ومارتن لوثر، والحاخام نهمان من براتسلاف[1] الذين يمرّون بمراحل من العذاب النفسي التي تولّد فيهم لحظة التنوير. وهذا الأنموذج موجود في كثير من الثقافات، واسمحوا لي أن أطلق عليه «سلطة التجربة الشخصية».

أما الأنموذج الثاني فإنه يلجأ إلى مصدر معرفي قديم غير مشكوك فيه، ويعتمد إما على وحي من مصدر إلهي أو حدس صوفي من رؤيا استثنائية. هذا المصدر التبريري الرئيس نجده في أغلب الديانات التوحيدية الكبرى وبعض المذاهب الروحانية ويمكن أن نطلق عليه «سلطة المعرفة القديمة».

يمثل هذا الأنموذج إشكالية في الوقت الحاضر لأسباب عدّة. فقد كانت المعرفة الإنسانية، على مدار التاريخ، محدودة في ما يخصّ تعقيدات الكون، وأقلّ من ذلك في ما يخصّ التاريخ والثقافات الأخرى. وكان الأسهل الادعاء أن ثمة رسولاً حقيقيًا أو رائيًا تلقّى الوحي الإلهي. لكن مع ولادة التاريخ والأصول الفيلولوجيا، بات من الصعب استساغة هذا الأنموذج. وبما أن كلّ ثقافة وكلّ مذهب يدّعي امتلاكه الحصري لحقيقة الكون، وبما أن هذه الادعاءات تستبعد (وتتعارض مع) بعضها بعضًا، فإن ذلك يلقي بظلال من الشكّ على جدوى ادعاءات المعرفة، إذ قد تكون إحدى هذه الادعاءات صائبة، إن وجدت فعلاً.

ثمة إشكالية أخرى في أنموذج المعرفة القديمة أن الحداثة قد طوّرت سردية بديلة ومتينة في ما يخصّ مجرى التاريخ. وبما أن الأربعمائة عام الماضية أثبتت أن المعرفة الإنسانية تقدمية باطراد، مثل تطوّر علم الكونيات في القرن التاسع عشر، ونضوج المؤسسات الأكاديمية من جامعات ومجلات بحثية في القرن العشرين. قدّمت الحداثة بديلاً صلبًا لأنموذج المعرفة القديمة، وأثبت أن قصة التاريخ الإنساني تقادمية في مجالات المعرفة والتكنولوجيا على أقل تقدير.

---

(١) نحمان من بريسلوف Nahman of Breslov: (١٧٧٢-١٨١٠): معلم، وقائد روحي، ومؤسس حركة بريسلوف «الحريدية» (وتعني كلمة حريدي التقي مأخوذة من الفعل حرد بمعنى اعتكف وترفّع عن الناس)، وقد أعاد إحياء هذه الحركة عبر الجمع بين الأسرار الباطنية لليهودية مع دراسة التوراة المتعمقة (المترجم).

يتعـرض أنموذج المعرفـة القديمة للمحاربة من جميـع الجبهات، لكنه يجد الوسـائل للتعامل مع هذه الإشكالات ويتملص منها. حسنٌ، لقد تعمدت أن يكون مثالي عن أحد دعاة «الكابالا» المشاهير، وليس ذلك لأنني أعتقد أنه أسوأ الأنواع، ولكن اسـتراتيجياته تمثّل خير أنموذج للروحانية الشعبوية المعاصرة. يعدّ الحاخام مايـكل لايتمان Michael Laitman أحـد أرباب العصر الجديد الذيـن بنوا إمبراطوراتهم عـبر المزج بين لغة العـصر و «المعرفة القديمة». ولا أجد منطلق خطاباته مشوقاً بسـبب فرادته، ولكن لأنه يستهدف رواد الأعمال المتدينين والمتعطشين للمعنى. كان يشرح ما أهمية الكابالا اليوم عبر الاستخفاف بمكانة العلوم الطبيعية: «المبدأ الرئيس لنظرية الكمّ هو اللايقين، الذي يؤكد أن الراصـد يؤثر على الموقف المرصود. ومن ثم يكون السـؤال الرئيس: «ما الذي تقيسه القياسـات فعلاً؟». بمعنى أن مفهوم «العملية الموضوعية» بلا جدوى، وبخلاف النتائج المقاسة، لا يمكن بسهولة أن توجد «حقيقة موضوعية»[1].

الخطـوة الأولى أن تزعـم أن العلم غير قادر على تزويدنـا بالحقيقة المطلقة. فيزيـاء الكمّ مثلاً ضحية مسـكينة لدى أرباب العصر الجديـد الذين يحاولون تقويض إيـمان القارئ بالعلوم. إذ يُطرح مبدأ اللايقين لهايزنبرغ لتبرير أي شيء بدءًا من فكـرة أنه «لا توجد حقيقة موضوعيـة» إلى الزعم بأن «العلم يقوض أسسه الخاصّة».

الخطوة اللاحقة أن يزعم المؤلف بالنتيجة أن سلطة العلم قد تلاشت: «مادام العلـم يعترف بما ورد أعلاه فإنه يقوّض من هيمنتـه عمومًا وعلم الفيزياء على وجـه الخصوص. العلم أداة تكشـف جزءًا محدودًا مـن الواقع وليس الحقيقة الكاملة. إن الحقيقة الفعلية مخفية عنا. ولا يمكن اكتشافها عبر البحث العلمي».

أتسـاءل دائمًا أيعتقد هؤلاء فعـلاً بحججهم الخاصّة أم أنهم يسـتعملونها للسـخرية فقط؟ لم تدّعِ فيزياء الكمّ أن نتائجهـا تقوّض العلم إطلاقًا، وجلّ ما

---

(١) يمكنكم البحث أكثر في هذا الموضوع في مايكل لايتمان. علم الكابالا ومعنى الحياة: لأن حياتك لها معنى Kabbalah science and the meaning of life: Because your life has meaning صفحة ١١.

في الأمر أن العلم يناقش طبيعة الواقع المادي ومراجعة العلاقه بين الراصد والمرصود بعد الاكتشافات الحديثة في أصغر مكونات المادة حاليًا.

لا توجد أسباب واقعًا تجعل علماء الفيزياء يرتبكون تجاه تخصّصهم. فيزياء الكمّ ناجحة بصورة مذهلة. فقد تعملق فهمنا لكيفية عمل المادة كثيرًا في القرن الماضي. نعم، أصبح عسيرًا على الشخص العادي أن يفهم الفيزياء المعاصرة، لكن ذلك لا علاقة له بصلاحية الفيزياء. لقد أمست الفيزياء الحديثة معقدة بسبب تعقيد العلاقة المتبادلة بين التجربة والطبيعة، والملاحظة، والرصد، والنتائج التجريبية.

إذا كانت الفيزياء الحديثة تعني أن البشر لا يستطيعون فهم الواقع إلا في ما يقتصر التفاعل معه، فإن النتيجة تكون عدم حيازة أحد على الحقيقة المطلقة. ولكن أتضح على نحو مفاجئ أننا مخطئون. يزعم لايتمان أن ثمة حقيقة مطلقة معروفة منذ آلاف السنين. هذه المعرفة القديمة شاملة لدرجة أنها تتضمن كلّ الحكمة التي توصلت إليها البشرية جمعاء: «هذه هي خلفية ظهور حكمة الكابالا، التي تهب الإنسانية منظورًا جديدًا، ورؤيا علمية محصورة عند الكابالا منذ آلاف السنين. وينمّي الكابالا في دواخلنا القدرة على رسم واقع شامل، ويوفر الوسائل للبحث فيه».

في حركة عجولة ومفرغة من أي منطق، تدعونا الكابالا للإيمان بأن إدراك العلم لمفهوم الواقع يقوّض العلم الحديث، ولكنها ليست منظومة قديمة «مكتشفة منذ آلاف السنين»، إذ يوهم رجالات الدين أن الكابالا موجودة منذ ١٨٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير.

لاشكّ أن ثمة مجموعة كبيرة من الأبحاث التاريخية والفلسفية التي تُظهر الأصل الدقيق للفكر الكابالي. ولا يعود التاريخ، كما يزعم لايتمان أو فيليب بيرغ، اللذان حوّلا مركز الكابالا الدولي إلى إمبراطورية، إلى آلاف السنين. لكن جذورها تمتد إلى الحركة الغنوصية التي ظهرت قبل ألفي عام. لكن الكابالا ازدهرت بين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر، في إسبانيا أولاً، ثم في صفد

في مدينة الجليل في فلسطين، حيث ترعرع أكثر المؤلفين الكاباليين نفوذًا[1]. ولا يهم أن الكابالا تستند على أنموذج كوزمولوجي عفا عليه الزمن. لم تصبح الفيزياء الرياضية ممكنة إلا حين تجاهلت فكرة أن ثمة ارتباط بين الرمزيات والواقع الفيزيائي[2]. لكن لا يتهان يتستر بدهاء خلف هذه الصغائر، ويعلن بصوت عال أن لدى الكاباليين حكمة تفوق أي شيء أنتجه الجنس البشري على الإطلاق.

الجدالات المناهضة للفكر

دائمًا ما أجد نفسي في وسط بيئة من الليبراليين ذوي الميول اليسارية، وغالبًا ما أكون في نقاشات وجدالات أواجه صعوبة في التعامل معها. منذ أن أسّس الحاخام فيليب بيرغ مركز الكابالا وحوّلها إلى إمبراطورية، شرع كثير منهم بدراستها. وسرعان ما بدأوا بالاقتناع بأن لدى الكابالا -أقدم هيأة للحكمة الروحانية في العالم- مفاتيح الكون المخفية، إضافة إلى مفاتيح أسرار قلب الإنسان وروحه. تشرح التعاليم الكابالية تعقيدات الكون المادي وغير المادي، والطبيعة الفيزيقية والميتافيزيقية للبشرية جمعاء. وكأن الكابالا واثقة أن بإمكانها «إزالة كلّ ضروب الفوضى والوجع والمعاناة». هذا الاقتباس مأخوذٌ من الصفحة الرئيسة لمركز الكابالا الدولي، متبوعًا بعبارة أن الكابالا كانت موجودة منذ آلاف السنين.

عندما سألت أحد المعارف: هل ثمة اهتمام بالدراسات التاريخية عن تطوّر الكابالا؟ أجاب بازدراء أن مثل هذه الدراسات لا تفتهم روح الكابالا التي يجب أن «تعاش» لا أن «تدرس». كنت دائمًا أواجه اعتراضًا في هذه المرحلة[3]، ولا سيما من الأشخاص الذين يشعرون أن الكابالا تهبهم معنى

(١) جيرشوم شوليم. المشهور في التصوف اليهودي Major trends in Jewish mysticism (١٩٤١).

(٢) ميشيل فوكو. نظم الأشياء: حفريات العلوم الإنسانية The order of things (١٩٦٦).

(٣) يمكن قراءة التاريخ الفعلي للفكر الكابالي في جيرشوم شوليم. المشهور في التصوف اليهودي Major trends in Jewish mysticism (١٩٤١)، ويمكن الغوص في السياقات الكابالية المعاصرة في موشي عديل. الكابالا: آفاق جديدة عن الكابالا (١٩٨٩).

وفهمًا أفضل لحياتهم: «لماذا أنت وسـواسي وشـكّاك؟ إنك بسهولة لمّا تختبر روح الكابـالا على الإطلاق! ولم تشـارك في طقس الكابـالا حيث تلمس اللحظة التي وهبنا فيها الخالق التوراة! لديك مشـكلة؛ لأنك لست منفتحًا على التجربة الروحية!».

أشـير دائمًا إلى أن التجربة الصوفية ظاهرة عالمية؛ لأنها تثير أسئلة مشوقة عن العقل البشري، وتبرع في التمييز بين «الأنا» و«الذات» الأخرى. وليس من الضروري إنكار القوة الروحية للتجربة الصوفية، أو التشكيك في قدرتها على إعلامنا بواقع العالم الخارجي. لكنني أتسـاءل دائمًا: ما الذي تختلف فيه هذه التجربة عن أي تعاطي مهلوسـات أو غيرها مـن التجارب التي تبدو خارج العالم الحسّي. أدرك أن التجربـة الصوفية تمنح المعنى والعزاء في كثير من الثقافات. وقد اعتمد عليها الشـامان في القبائل الأفريقية والسـيبيرية، وتراوحت تفسيراتها من تواصل مع أرواح الأسلاف إلى وهمية الذات ذاتها في الثقافة البوذية[1]. على أي حال، لا تكفي هذه التجربة لنستخدمها جوابًا لمعرفة طبيعة الكون، لذلك لابدّ من تفسيرها في نظريات معقولة؛ لأن تركها على هـذا الحال محفوف بخطورة ما تقود إليه من اسـتنتاجات متناقضة عن الواقع.مكتبة سُر مَن قرأ

لطالما واجهت عبارات اسـتهجان وردود فعلٍ غاضبة بسـبب جرأتي في هذه الجدالات. يبـدو أن البشر يفضلون إخـراس منظومتهم النقدية حين يتعلق الأمر بالتجارب الدينية بمعناها الواسع، ويفضلون السحر على الفكر والخـبرات، ومن ثمّ يجادلون أن التفكير الجـافّ يتعارض مع ما يطلق عليه الحاخام بيرغ بـ «التجربة الحيّة».

يكون جوابي الأسـلم في هذه الجدالات: المشـكلة في تلقينكم العقائدي الذي يطالبكم بعدم التساؤل عن الأصول الفعلية والبنى الميتافيزيقية للفكر الكابالي قبل أن تتحمسـون له. وأعتقد من واقع خـبرتي أن التاريخ الثقافي

---

(١) أشهر دراسة كلاسيكية في هذا الصدد ميرسي ايلياادي. الحركة الشامانية: تقانات أحفورية في مادة اكستاسي المهلوسة Shamanism: Archaic techniques of ecstasy (٢٠٠٤).

أفضل طريقة لفهم المنظومة الفكرية، وهذا السبب الذي يجعل كثيرًا من الديانات تستهجن التحليل التاريخي ودراسة الأصول الفيلوجية للنصوص المقدسة. كنت واهمًا عندما اعتقدت أن معارفي استثناء بسبب ثقافتهم وتعليمهم، لذلك اعتقدت أنهم قد يرغبون في معرفة كيفية تطوّر المفاهيم التي كانوا يدرسونها.

أعتقد أن من المهم معرفة أن المفاهيم الكابالية الأصلية مبنية على مفهوم التقاطع بين الكون الكبير والكون الأصغر، المفهوم الكوني الذي استغنت عنه الفيزياء الرياضية الحديثة، والذي يستند على فكرة أن جسد الخالق (تعتقد الثقافة الكابالية أن للخالق شكلاً من أشكال الجسد الصوفي) يتشابه بنيويًا مع الجسد البشري. كنتُ أطمح إلى تبيان الصوفية بوصفها شكلاً من أشكال مقاومة المؤسسات الدينية، وأصل الفكرة يعود إلى الغنوص الصوفي واتحاد الأكوان unio mystica. لكن عندما أفصح بجرأة عن شيءٍ من هذا القبيل، ينظرون إليّ وكأنني شخص فاسد أو مفتقر للحياء واحترام التجارب الروحية في أحسن الأحوال.

لطالما سمعتُ بعض رجال الدين يلقون «حججًا» غير مسؤولة وخجولة فكريًا. أخذني صديقي ذات مرّة إلى محاضرة يحاول فيها الحاخام أن يثبت «علميًا» أن (أ) الله موجود و (ب) نظرية التطوّر غير صحيحة. وكانت براهينه على وجود الله عبارة عن حجج نصف مطبوخة مكرورة في تاريخ الفلسفة، مع أنه حرص على تجريدها من مرجعها الأصلي ودقتها وفحواها. لذلك أراد أن يثبت بهتان نظرية التطوّر عبر الإنكار التامّ لكلّ نظريات البيولوجيا.

لكنّ في داخلي شيئًا منعني من الترفّع والسكوت، وبدأت أتحدّى حججه في كثير من المواضع، بحيث شعر الحضور أنني فظّ جدًا. بينما كنت أعتقد أن ما يقوم به غير أخلاقي بالمرّة؛ لأنه يستغل جهل جمهوره. انتهى المشهد بعد اللتيا والتي حين طلب مني أتباع الحاخام مغادرة القاعة قبل أن يستخدموا وسائل أخرى لإسكاتي؛ لأن تحدي الفكر النقدي غير وارد بكلّ سهولة.

غالبًا ما تستبعد مثل هذه الجدالات؛ لأنها غير راكزة، ويُنظر إلى المشكّكين بأنهم غير مؤهلين ويعانون من نقص في الحساسية الروحانية. لذلك يُطلب منّا أن نصمت، وأن نحتفظ بمعرفتنا الجافة وغير المجدية لأنفسنا، وأن نترك أرباب الروحانية الشعبوية في مملكتهم السعيدة كي يشعرون بالرضا عن أنفسهم مع عدم عقلانيتها وتناقضها مع المعرفة المنطقية.

سمعت مرارًا أن المتعة والتفكير التحليلي لا يمتزجان، ووجدتها فكرة مهزوزة. فإن كانت صحيحة، معناها أن خبراء الفنّ لا يستمتعون بالفنّ بقدر الأشخاص الذين يجهلون تاريخه. والأشخاص الذين يدرسون الموسيقا الكلاسيكية وتعقيداتها لن يستمتعوا بما جاد به باخ أو بيتهوفن أو ماهلر. لكن في كلتا الحالتين العكس صحيح. وكلّما عرفت أكثر عن تاريخ الفن أو الموسيقا، أزداد شغفك واستمتاعك.

لا يختلف الأمر كثيرًا في حال الأديان. إذا كانت الحجة المناهضة للفكرة صائبة، يجدر برجالات الدين أن يكافحوا الفكرة أكثر من العوام الذين يعرفون القليل. وإذا ما تعارض الفكر النقدي مع تجربة المعنى، لابدّ أن يسود التشكيك لا الاقتناع.

الروحانية الشعبوية: الدمج بين المقدس والرغبة في النجاح

تحاول الكابالا وكثير من منظومات المعتقدات الشائعة الأخرى أن تملأ الحاجة إلى العزاء الروحاني، وكذلك تحاول أشكال الروحانية الشعبوية الجديدة أن تسوّق مزيجًا بين السلام الروحي والنجاح الدنيوي. كانت أول مصادفة أفزعتني في هذا الصدد حين وجدت أصدقاءً لي أقدّرهم وأحترمهم يقرأون كتبًا مثل «القديس الذي باع سيارته الفيراري» The Monk Who Sold His Ferrari لروبن شارما[1]، إذ قال أحد الأصدقاء والذي أعدّه رجل أعمال ناجحًا ومقدرًا: «أحاول أن أتأنى في قراءة هذا الكتاب لأهضم ما استطعت من أفكاره العميقة». بينما كان صديق آخر، محاسب مالي محترم،

(١) انظر روبين شارما. الراهب الذي باع سيارته الفيراري The monk who sold his Ferrari (١٩٩٩).

يعلّم الصفحات التي بدت عميقة في نظره. وبسبب طبيعتي الشكوكية والمراقبة والناقدة للثقافة المعاصرة، قررتُ إلقاء نظرة على الكتاب عسى أن أجد ما يستحق من ضجيج. وعندما قرأته احترتُ أأغضب أم أضحك من هذا الهراء؟ كان الكتاب عبارة عن «أقصوصة» مكتوبة بطريقة بائسة بلا معنى فلسفي أو نفسي أو روحي. أقصوصة لا يمكن تصديقها لمحامٍ ناجح أصيب بنوبة قلبية بسبب أسلوب حياته المتعب، ثم يختفي ويعودُ أصغر بعشرين عاماً بعد أن أمضى شوطًا من حياته مع مجموعة معمرين غامضين في الشرق.

رسالة الكتاب تافهة جدًا؛ لا تترك نفسك ضحية العمل والضغوطات، وفكّر في الضروري فقط، وإن صحتك هي الشيء المهم (أحد المكاسب الأساسية لبطل الكتاب أنه يفقد من وزنه، وينمو شعره مرة أخرى). يحاول شارما أن يجمع هذه الأفكار عبر المزج بين المجازات و«الحكمة» الفلسفية ذات الطابع الشرقي من دون الاستدلال إلى أي عرف أو فلسفة شرقية. لقد صُدمت حقًا، وشرعت أتساءل ما الذي جذب أصدقائي الفطنين بهذا الكتاب؟ وما الشيء العميق الذي اكتشفوه فيه؟

ثم قلتُ في نفسي أن ثمة شيئًا ما قد فاتني، لذلك بحثت وبحثت عن كتابات شارما، واكتشفتُ في النهاية أنه يجادل: «اكتشافك لفكرة واحدة في كتاب واحد يمكنها تغيير طريقة رؤياك للعالم». سأتناول في ما يأتي مجموعة من الآلئ– ما جادت بس كتابات شارما وكيف بإمكانها تغيير حياتك:

• إذا ما كنت ناجحًا في ما تقوم به في عملك، لن تنفع المؤسسة التي تعمل فيها فحسب؛ بل إن ذلك هدية تقدّمها لنفسك.

• بينما تعيش ساعاتك، تخلق سنواتك. وعندما تعيش يومك، تحفر حياتك.

• أكثر الناس نجاحًا في هذا الكوكب فشلوا أكثر من البقية.

• أفتخرْ بصعودك إلى قمة الجبل. لكن استمتع بالتسلّق أيضًا.

• غالبًا ما تحدث أعظم الإنجازات حين تكون ظهورنا في مواجهة حائط.

• قم بالقليل يوميًا للوصول إلى أهدافك، ومع الوقت ستصل إلى ما تصبو إليه.
• لوم الآخرين ذريعة تقدمها لنفسك.
• كلّ تحدٍّ مجرد فرصة لتحسين الأمور.
• لا تحدث الشيخوخة إلا للأشخاص الذين فقدوا الشغف، وانفصلوا عن طبيعتهم الفضولية.

تمتاز هذه الاقتباسات، مقارنة بأقصوصة شارما الفلسفية، بأنها أقل تشويشًا، وموجزة بابتذال، ومستهلكة مرارًا وتكرارًا في كتب التنمية والمساعدة الذاتية، وذلك ما يدفعك للتساؤل لماذا يتسابق الأشخاص لسماع هذه «الحكم» الرخيصة؟ ولماذا أصبح مروّجها خبيرًا؟

صدّق أو لا تصدّق، الأرقام تتحدث عن نفسها، وكتاب رومدا بايرن Rhonda Byrne «السرّ» الذي اتفق كل النقّاد على سطحيته، ولاعقلانية محتواه، ومعلوماته المغلوطة، والمفرغة من أي نسق أخلاقي. أو كتاب قانون الجذب لإستر وجيري هيكس Esther and Jerry Hicks، اللذين ادعيا أنهما اكتسبا «معرفتهما» من مجموعة أرواح إبراهيمية، سوق مثل هذه الكتب لا تضاهيها سوق، والنسخ بيعت ومازالت تباع بالملايين.

يعدّ كتاب «السرّ» الذي وُصِف بأنه إحدى أعاجيب ظواهر النشر في السنوات الأخيرة تسويقيًا بالفعل. ويعود أحد أسباب نجاح الكتاب لارتباطه بأسلوب الأحاجي في العصور الوسطى، محاكيًا كتاب دان براون «شفرة دافنشي»، والذي أثبت فيه أن ثمة تعطشًا عجيبًا للمخطوطات القديمة. وكأن ثمة سرًّا دفينًا لا يعرفه إلا المفكرون العظماء أمثال أفلاطون، وغوته، وآينشتاين، ولكنه محجوب ومخفي عن بقية العوام. وذلك السرّ هو «قانون الجذب» الذي يفترض أن الكون مبرمج بطريقة بحيث ما أن تفكر في شيء وترغب به يأتيك. المضحك المبكي الذي يطمحون تحقيقه مجرد تمني شؤون دنيوية جدًا تعكس مخاوف الطبقة الوسطى مثل هوس السمنة، أو الحصول على سيارة حديثة، أو قضاء إجازة ممتعة.

تزعم بيرن أن السرّ انكشــف لها في مرحلة صعبة من حياتها. ولا تفصح كيف كان أفلاطون وغوته وآينشــتاين «يعرفون» أو يأمنون بقانون الجذب، وتجد صعوبة شديدة في إثبات ذلك. وتقتبس الكاتبة صحّة ادعائها من أربعة وعشرين مصدرًا، وجميعهم، ما خلا اثنين، متحدثو تنمية بشرية من نوع ما. والاثنان عالما فيزياء لكنهما غير معروفين في المجتمع العلمي. وعلى أي حال، عندما سُئلا تبرئا صراحةً من ادعاء السرّ. وقال أحدهما: إنه سُئِل جهارًا عن رأيه في فيزياء الكمّ، لكن ذلك النصّ محذوف من الكتاب.

أظهرت المباحث المصدرية أن كتاب السرّ مأخوذ أساسًا من آخر منسي من تأليــف والاس واتلز Wallace Wattles. تحت عنوان «علم أن تكون غنيًا» The Science of Getting Rich الذي اقتناه لها أحد أطفالها حين بدأت تخسر المال من عالم الإنتاج في تلفزيون الواقع الذي كانت تعمل فيه، ثم تواصلت مع زوجين كانا يكســبان مالاً كثيرًا عبر بيع قانون الجذب. وادعت إســتر هيكس Esther Hicks أنها حصلت على «المعرفة» عبر التواصل مع الأرواح الإبراهيمية. لا أجد من داع للتطــرق للخلافات القانونية التي حدثت بين هيكس وبايرن لاحقًا عن الملكية الفكرية.

أنا لســت مهتمًا بأن ادعاءات الكتاب لا أســاس لها فحســب، بل إن له تبعات فكرية وأخلاقيــة، وربما أن كلّ ما يحدث لنا يرجع لأفكارنا الإيجابية أو السلبية، وكلّ الملايين الذين ماتوا من الجوع أو القمع السياسي أو الإبادة الجماعية حدثت بسبب «جذب» اللعنة على أنفسهم، ومن ثمّ فإنهم مسؤولون عن زوالهم.

وثمة تســاؤل آخــر يعترض على أســلوبي: «لماذا كلّ هذه القســوة على أشخاص مثل شارما، أو بيرن، أو إستر وجيري هيكس؟ هؤلاء لا يحاولون إلا إسعاد الناس وجعلهم يشعرون بالرضا عن أنفسهم، ويمنحونهم بعض التفاؤل، وهذا ليس بالشيء المذموم. أليس كذلك؟ إذن ما الســيئ في القليل من التأثير الجيد بكلّ الأحوال؟». الجواب ســهل جدًا. لا شــكّ أن الذين يلجــأون إلى اقتناء زيت الأفعى «المقروء عليــه» يعانون من ضيق نفسي من نوع ما. وقد لا تتعدى المشــكلة أن تكون نتاج عــدم رضا عن الحياة. لكن

ذلك لا يمنع أن تكون المشــكلات حقيقية فعلاً مثل الصعوبات الاقتصادية أو العائلية أو الصحّية. وأولئك الذين يعانون من مشكلات حقيقية يحتاجون إلى مســاعدة حقيقية. ولكن الثمن الذي يدفعونه إزاء تجربة شعور إحساس تافه أبهظ بكثير مما يعترف به المدافعون عن الروحانية الشعبوية. أولاً، لأنهم قد يســتغنون عن المســاعدة الفعلية التي يحتاجون إليها، إذ لابدّ من معالجة المرض والتعامل معــه جديًا متى ما وجد. فلا يعالج التفكير الإيجابي مرض السرطان، وقد أظهرت الدراسات البحثية - الممولة بملايين الدولارات - على نحوٍ قاطع أن الصلاة لا تساعد أيضًا.

والثمن الثاني الذي يدفعونه هو الأمل المحطَّم. فقد قمت مثلاً في دراســة عيّنة من الأشــخاص من منتصف العمر ممن لا يزاولون عملاً[1]؛ إما لأنهم يفتقــرون إلى راتب تقاعدي أو أن الراتب التقاعدي لا يكفي نفقاتهم. وكان الرفض مآلهم، بل وكل الشركات التي يقدّمون عليها لا تنتهي حتى بإجراء مقابلة.

إذا كانت بيرن وشــارما ومن لفّ لفّهم على صواب، لن نحتاج حينذاك إلا إلى تعليــم الناس على التكفــير بإيجابية، ومن ثمّ تنهــال عليهم فرص العمل. لكن الرغبة في الحصول على المــال، لن تجلب المال أو الوظيفة. أنا لا أنفر من ضروب الروحانية الشــعبوية؛ لأن لا أســاس يسند ما تزعمه من «معرفة عميقة»، بل أشــكّ فيها أخلاقيًا أيضًــا. عندما تنمي في داخل الشــخص آمالاً زائفة، ثم تحطمها في الواقع المعاش، تصبح احتمالية اليأس غير قابلة للتحمّل.

التآلف بين التوجهين المحافظ والليبرالي الذي أنتج الصوابية السياسية

لطالما كانت جاذبية التنجيم والشــعوذة قويتين، وليس بعيدًا عنهما الفكر المعاصر المســتحدث أو روحانية الاندماج. لقد ظهــرت هذه الحركات في أواخــر القرن التاســع عشر بدعم من شــخصيات كاريزمية مثل الســيدة

(١) كارلو سترينجر. الضرورة الوجودية لتغيير منتصف العمر The existential necessity of midlife change (٢٠٠٨) مراجعات أعمال هارفارد، ٨٢-٩٠.

بلافاتسكي Helena Blavatsky، التي ادعت أن لديها وصول ما روائي إلى الحقائق التي كانت بالأساس مزيجًا من التقاليد الروحانية المختلفة. ولم يسلم من موجة التنجيم والشعوذة حتى بعض الأكاديميين الجادين من ويليام جيمس William James إلى كارل يونغ Carl Jung في ذلك الوقت. النجاح المهول للكتاب السطحي وغير اللافت والمثير للاشمئزاز «السرّ» عبارة عن أحدث طبعة من الميل الإنساني إلى السقوط في فخّ أولئك الذين يعدوننا بأنه يمكننا الحصول على كلّ ما نريده بسهولة إذا ما اكتسبنا هذه السمة على نحوٍ صحيح.

السبب في سيادة الروحانية الشعبوية حاليًا تتطلب اهتمامًا خاصًا؛ لأن هذا العصر يمتاز بخصوصية وفرة المعرفة والوصول السهل إليها. بينما لم يكن في السابق معرفة سهلة عن الطبيعة أو التاريخ أو الاقتصاد أو العقل البشري أو أي جانب آخر من جوانب الكون، وكانت المعرفة متكلفة وصعبة الاستساغة. وكان القرّاء لآلاف السنين قليلين، وحتى في القرون الأربعة الماضية منذ الثورة العلمية في القرن السابع عشر، كانت الحاجة إلى الوصول إلى الكتب والمدارس والجامعات باهظة الثمن.

لقد أتاح الإنترنت لأي شخص لديه جهاز كمبيوتر الوصول إلى كمّ غير محدود من المعرفة. لو دخلت على موقع المعهد الوطني للصحّة NIH لانبهرت بكمّ المعلومات الطبية الحديثة وسهلة الاستيعاب. أو معلومات موقع ويكيبيديا المجانية التي تتناقل عبر الفضاء الإلكتروني بسهولة للذين يرغبون في التعمق أكثر في موضوعاتهم.

تختلف الطبقة المعولمة اجتماعيًا وثقافيًا عن أي فئة سابقة من ناحيتين: هم على درجة عالية من التعلم، ولديهم تعليم جامعي على أقل تقدير، إن لم تكن لديهم شهادات عليا. ولكن سياق التعليم جعلهم يقيمون المعرفة نقديًا من دون التحقق من موثوقية المصادر. لديهم إمكانية الوصول إلى المعرفة إلى درجة لم تكن ممكنة من قبل في تاريخ البشرية عبر الإنترنت ولديهم درجة أعلى من الوعي بالترابط العالمي أكثر من أي جيل مضى. لذلك نتوقع مع ما

لديهـــم من موارد أن يكونوا على درجة عالية من الوعي بالتاريخ والعلوم في صياغة رؤاهم.

قـــد تظنّ أنهم ليســـوا بالســـاذجين ولا يقعـــون ضحية المعرفـــة الزائفة والمعلومات الرخيصة. وتأمـــل أن يطبقوا الأدوات النقديـــة التي تتلمذوا عليها لمنع أن تكون رؤاهم ضيقة الأفق أو جاهلة أو غير عقلانية. لكن يبدو أن كثيرين لا يهتمون بتطبيق هذه الأدوات على رؤاهم. إذن ما أســـاس الميل إلى إخـــراس العقل النقدي حين يتعلّق الأمر بصياغة الرؤى؟ وما أســـباب مناهضـــة الفكر حين يتعلّق الأمر بمســـائل الإيمان؟ ولمـــاذا يبتاع أصحاب شهادات عليا ترياقاً السلوى بأبخس ثمن فكري؟

لا توجد إجابة ســـهلة على هذه التســـاؤلات، والواقـــع متعدد الأوجه بحيث لا يمكـــن لنظرية ميسرة أن تختزله. لكن اســـمحوا لي أولاً أن أحدّد مجـــال موضوعي. لن أحاول في هذا الصدد مناقشـــة ردود الفعل الأصولية التي شغلت كثيرين، ولا سيّما في الولايات المتحدة. فلا يواجه أعضاء الطبقة المعولمة هذه الهجمات على نحوٍ عقلاني أو علمي، وينقســـمون إلى قلّة اتخذوا من التخندق العدواني، وإدانة المثليين، والهجوم الواسع على الإجهاض أمرًا ملائمًا. والأغلبية يميلون إلى التســـامح العـــالي، من دون تخندق عدواني ولا قمع محافظ. قد يكون هذا الميل إلى التســـامح ما يجعل بني الإنســـان المعولم يستسهلون الانتماء إلى مذهب النسبية. تراهم يرغبون التعايش في عالم يجتمع فيه الكل بالكل بلا اقتتال أو موات باسم الدين والإيمان.

تتمثل مشـــكلتهم بالأحرى في كيفية المحافظة على مســـاحة الحرية التي يعتزون بهـــا، والحلّ الذي يدافعـــون عنه يتمثل في تجنّـــب الجدالات. كان يفترض أن تكون التعددية الثقافية الآلة الغيبية التي ســـتحل معظم أمراض المجتمع الحديث. ستعيش الذئاب والأغنام معًا أخيرًا؛ سيتعايش المسلمون تحت ســـقف واحد مع المســـيحيين؛ وسيغني الرســـتفاريون مع الملحدين، وسيرقص البوذيون مع الهندوس. بحيث ينبذ التضادّ الديني ويعلي من شأن الانسجام والتفاهم.

أرجو توضيح أنه ليس لدي أي نية للانضمام إلى الكتاب المحافظين الذين يرون حقبة الستينيات على أنها أصل كلّ الشرور، وبداية تفكّك النظام المجتمعي، وانحطاط التقاليد. أعتقد أن الستينيات كانت مسؤولة عن تطوّرات لافتة أنتجت كثيرًا من التغيير في العالم الغربي، بدءًا من الحركة النسوية إلى تحرير المثليين.

لا تعود جذور مناهضة الفكر الحالية إلى الستينيات، بل تمتاز الستينيات والسبعينيات بعمق النقاش الفكري في المجال السياسي مثلاً. وقد تكون الثمانينيات بداية أكثر أشكال مناهضة الفكر التي هيمنت على الثقافة الغربية في العقود الماضية.

قد يجد بعضهم «من المناسب» اتهام الليبراليين والمحافظين بعضهم بعضًا بالأمراض المجتمعية والثقافية الحالية، أعتقد أن لمناهضة الفكر الحالية مصادرها في كلا المعسكرين، والتي تفاعلت معًا في صورة غريبة من التآزر مسببة ما نعاني منه من مستوى ثقافي ضحل وسطحي فكريًا.

شهدت الولايات المتحدة، على الجانب المحافظ، تصاعدًا لافتًا في ازدراء الجدالات الفكرية التي بدأت مع صعود الأصولية المسيحية في السبعينيات. كان انتخاب رونالد ريغان في الثمانينيات بمثابة الفتيل لهذا الجدال المحتدم في الرأي العام. على الرغم من أن ريغان نفسه كان سياسيًا ذكيًا ولبقًا وموهوبًا، لكنه صرّح بوضوح بانعدام الفائدة من المثقفين، سواء أفي دائرته السياسية أم في المشهد الثقافي أجمع.

هكذا انتمى ريغان إلى الخطّ المناهض للفكر في الثقافة الأمريكية الذي وصفه ريتشارد هوفستاتر Richard Hofstadter في كتابه الكلاسيكي «مناهضة الفكر في الحياة الأمريكية»، الكتاب الذي مازال مفعوله ساريًا حتى يومنا هذا. ليس لدي مساحة للكتابة عن هوفستاتر هنا. لكن دعنا نقول إن أمريكا كانت دائمًا تقدّر رجل الأفعال على رجل الأفكار. وكان يُنظر إلى «أصحاب الكلام» نظرة دونيّة مقارنة «بأصحاب الأفعال» إلى حدّ ما. في موازاة ذلك، هيمنت الأشكال البروتستانتية التطهيرية على المشهد

الديني الأمريكي. لطالما كان تمجيد ذوي الإيمان الفطري، وازدراء ذوي الفكر المعقد موجودًا في الثقافة الأمريكية. على عكس ما تقوم به المؤسسات الأكاديمية العريقة منذ الآباء المؤسسين.

دفع عصر ريغان إلى اندفاع حثيث للشغف الأمريكي بالأعمال غير المقيّدة بالتدخلات والأنظمة معتمدةً على الفطرة السليمة بدلاً من الجدالات المعقّدة. بدأ الأمر في تحرير الأسواق المالية التي كانت، لأكثر من عقدين، تعدّ منبع تغذية نمو الاقتصاد الأمريكي -وقد تبين الآن أنها أصل أكبر كارثة اقتصادية منذ الكساد الكبير.

ازداد منذ ذلك الحين اعتماد الحزب الجمهوري على القاعدة الدينية المحافظة فقط، إلى أن وصل الأمر إلى ذروته في فترتي جي دبليو بوش، الذي دفع -لأسباب شخصية وسياسية- لمناهضة الفكر إلى آفاق جديدة. لقد أوضحت سوزان جاكوبي بالتفصيل إلى أي مدى رفضت سياسات بوش صراحةً عقلنة الحقائق؛ لأن إدارته اعتقدوا أن بإمكانهم خلق هذه الحقائق، فلا حاجة إذن لدراستها.

أسهم الليبراليون أيضًا في مناهضة الفكر في العقود الماضية. فقد حشّد اليسار الليبرالي في كلّ من أوروبا والولايات المتحدة كمية مهولة من الازدراء والكراهية للتقاليد الفكرية الغربية، بحيث اتخذت هذه الكراهية لكلّ ما يمثله الغرب أشكالاً عدّة: أولى هذه الإدانات كانت موجهة لصورة الغرب الذي دافع عن الإمبريالية، والقمع، والاستعمار.

هاجم المثقفون الماركسيون من هربرت ماركوز Herbert Marcuse ونورمان براون Norman Brown إلى جان بول سارتر Jean– Paul Sartre وفيليكس جواتاري Felix Guattari كلّ ضروب التقاليد الغربية بوصفها أصل كلّ الشرور: حتى هيمنة الذكور والاستغلال الرأسمالي مرتبطٌ بطريقة ما بالغرب. بينما وجد بعضهم أن أفلاطون قد ارتكب الخطيئة الأولى حين وضع العقلانية قبل العاطفة. بينما رجّح آخرون أن البرجوازية والرأسمالية أصل كلّ الشرور؛ لأنها قامت بتسليع كلّ شيء من الذات إلى الفنّ.

تشبّث كثير منهم بالاعتقاد بأن الشيوعية كانت البديل الذي من شأنه أن يجلب الخلاص للبشرية، وتمسكوا بهذا الاعتقاد على الرغم من التدفق المتزايد للمعلومات عن فضائح ستالين وسياساته.

اعتقد آخرون مجددًا أن كل فئات الفكر الغربي تحتاج إلى فضيحة؛ لأنها تعمد إلى المخادعة لإخفاء المصالح الطبقية أو عدم المساواة بين الجنسين. أصبح «التخريب» أعظم فضيلة للمفكرين والأكاديميين في العلوم الإنسانية والاجتماعية الذين تسارعوا إلى فضح الكذبة الغربية في ادّعاء التحرّر والحرية[1].

لم يكن هذا الفضح كافيًا لليبراليين: ففكرة أن الغرب قد أنتج شيئًا جيدًا كان يُنظر إليها على أنها ضرب من ضروب الهيمنة والاستعمار. وأمسى قانون الأعمال الذي يدرس في الجامعات غير جدير بالاهتمام الآن؛ لأنه مجرد ترهات مجموعة ذكور بيض موتى، أو أمسى وصف مؤلفين مثل شكسبير، وتولستوي، وستيندال، وتوماس مان بالعظماء، مجرد حيلة أخرى لفرض سيادة «الذكور البيض الموتى».

استنكر جدال معايير الجودة في الفنّ أو العلم بوصفها تكتيكات لإبقاء بعض المجموعات (السود، والنساء، والمسلمون، والمثليون، أي شيء عدا الذكور البيض الأسوياء) بعيدًا عن مشاركة أضواء الهيمنة الثقافية.

مع كلّ عام تأتي موضة جديدة تكشف شكلاً جديدًا من أشكال القمع والانتهاكات. كان يُعتقد أن كل الأمراض النفسية في الثمانينيات تحدث بسبب الاعتداء الجنسي، واتُهم المجتمع بأسره بالتستّر على أهوال إساءة معاملة الذكور السرّية للنساء[2]. وظهرت حركة علاج نفسي متكاملة ادّعت أنها تساعد المرضى على التعافي من الذكريات المكبوتة. وإن لم يستطيعوا

(١) لقراءة نقد متين وواضح في هذا الصدد، انظر تيري إيغلتون. أوهام ما بعد الحداثة The illusions of postmodernism (١٩٩٦).

(٢) من الأمثلة السديدة في هذا الاتجاه انظر جيفري ماسون. ضد المعالجة Against therapy (١٩٩٣).

اســترجاع الذكريات من دون مساعدة، يمكن اســتخدام التنويم الايحائي «لاســترجاعها»، مما أدى إلى حالات تغيير عدة شــفيت باستخدام التنويم الإيحائي فقط.

ولا بــدّ أن الطلبــة الذيــن تتلمــذوا في أثناء هــذه الحقبة قد ســمعوا مصطلحات رنّانــة مثل مصطلح جاك دريدا «المركزيــة اللغوية الرجولية» Phallologocentrism أو تفكيك الأشــكال الحاكمية مقترنة بشعور مبهم مثــل مغالطة المحاججة النقدية؛ لأن ذلك قد يجرح مشــاعر أشــخاص أو مجموعات مضطهدة.

وما بين الترمّت المحافظ على عقيدة الســلف والهجوم الليبرالي على الفكر العقلاني بوصفه اخــتراع ذكور غربيين بيض البــشرة، انبثقت أيديولوجية الصوابيــة السياســية [1] Political Correctness. فقد وافــق المحافظون على هذه العقيدة؛ لأنهم احتاجوا إلى اســتيعاب العدد المتزايد من الطوائف الدينية، والإنجيلية، والكنائس الجديدة. ولم يرغبوا لأســباب سياسية في نبذ أي معتقد ديني؛ لأنه يزيد مــن تيار «الأغلبية الأخلاقية» التي كانوا يأملون في أن تعيد إلى أمريــكا جذورها وتزيل الجذور «غــير الأمريكية» والإلحاد الليبرالي. وكذلك وافق متطرفو الليبراليين بالصوابية السياســية؛ لأنها تخدم حملتهم الصليبية ضد الغرب «أصل كلّ الشرور».

هذا التحالف غير المقصود بينهما ولّــد مناهضة الفكر في العقود الماضية، وسبّب ارباكًا كبيرًا بين الذين حاولوا فهم حياتهم وأزمانهم. وتوصّل الطلبة في هذه الحقبة إلى اســتنتاج مفــاده أن أي شيء لا ينتمي إلى مجالات الإدارة والرياضيات لا يُقبل حلًا للاســتقصاء والتفكــير النقدي. الأهم من ذلك كلّــه، أن أي شيء يتطرق إلى مســائل الإيمان والعقائد يفــترض أن يكون

---

(١) يدلّ مصطلح «الصوابية السياسية» Political Correctness أساسًا على الانضباط والرقابة اللغوية بهدف تجنب أدنى إساءة إلى الأقليات، والمهمشين، والمضطهدين اجتماعيًا وتاريخيًا، تكريسًا لتصورات تيارات سياسية وحقوقية متداخلة عن المجتمع المثالي، للقضاء على التمييز اللفظي والقوالب النمطية السلبية (المترجم).

خارج حدود المناقشـــة العقلانية. يجب احترام المعتقدات لمجرد أن شخصًا ما يحملها؛ ولأن لمس هذا الاعتقاد قد يكون مسيئًا. ومن هنا ضاع كلّ شيء: انتصر الاعتقاد بأن الله سيأخذ بيد المسيحيين جسديًا إلى الفردوس الأبدي، مثله مثل الاعتقاد بأن ثمة كائنـــات فضائية انزلت الحكمة على رون هوبارد Ron Hubbard في كنيسة السـيانتولوجي، ومثل ذلك انتصر الاعتقاد بأن الغزو اليهودي للضفة الغربية كان بداية آخر الزمان ونهاية العالم.

كانت هزيمة العقل شبه محتومة. أرى أن لدى الإنسان المعولم مصلحة قوية في المضي تجاه توطيد رؤى ذات أسس فكرية متينة؛ لأن الروحانية الشعبوية لا تلبّي ما نحتاجه نحن جميعًا: وما نحتاجه هو رؤيا عالمية مستقرة نسبيًا تزودنا بمعاني تصمـــد أمام النقد. إن الذين يستســـلمون لجاذبية الإصلاح السريع الذي وعدت به الروحانيات الشـــعبوية قد يصابـــون بخيبة أمل: فمهما كان سحر الرؤى، فإنها لا توفر أساسًا مستقرًا لفهمنا لذواتنا وحيواتنا وعوالمنا. وبعد أن تنتهي هرجة الكابالا، أو التنجيم الهندي، أو أحدث طرائق التنمية والمساعدة الذاتية، نجد أنفسنا وحدنا في مواجهة الفراغ الذي نسعى للهرب منه.



الجزء الثاني

من سوق الأنا إلى دراما الفردانية


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

الفصل الرابع

دراما الفردانية

تعتمد فكرة الليبرالية على ضرورة أن يعزّز المجتمع من فردانية الفرد ولا يتدخل في نهائه. في أطروحة جون ستيوارت ميل الدفاعية عن الليبرالية، والتي لا يضاهيها دفاع حتى يومنا هذا، اشترط أن يكون للفرد الحقّ في اتخاذ أي قرار يخصّ أيسر مسائل الحياة، وأن يعيش على وفق فهمه وتفضيلاته التي تبلورت لديه فقط لا غير. يتضح من ذلك أن الليبرالية لو كُتب لها أن تنجح، لابدّ أن تستوفي بعضًا من الشروط، كأن يوفّر المجتمع اللامؤسساتي للأفراد الأدوات الكفيلة ليختار ويعزّز من قيم الإرادة الحرّة لمواطنيه ليكون مجتمعًا ليبراليًا[1].

أسهمت ثلاث عقبات في العالم الحرّ في إضعاف مكانة الليبرالية: العقبة الأولى هي الهوس في تشييء قيم الفرد التي ناقشناها في أول فصلين في محاولة لاختزال كلّ القيم في مصطلحات اقتصادية. ونتج من تبجيل هذه المصطلحات الاقتصادية في خلق رؤى عالمية، ولم يعدّ ينظر إلى تطوّر الشخصية على أنها قيمة في حدّ ذاتها، إلا تلك التي تحتسبها سوق الأنا.

---

(١) يمكنكم إيجاد مثل هذه النقاط في كتاب شروط الحرية: المجتمع المدني وخصوماته، إرنيست غيلنر (١٩٩٤).

أما العقبة الثانية التي تواجه الليبرالية تتمثل في سيادة ظاهرة الهويّات. فقد أمست الذات الحقيقية للفرد تحدّد فرضيًا عبر الانتماء إلى الديانة، والعرق، والثقافة، والجندر، والأقلية الجنسية، ولا سيّما حين تكون المجموعة مهدّدة في الماضي أو في الحاضر. ودفعت ظاهرة الهويّات تجاه عقبة ثالثة في وجه الليبرالية تتمثل في تسقيط قيمة الفكر التي ناقشناها في الفصل الثالث؛ فإن كان سين من الناس (يهوديًا، أو مسلمًا، أو مثليًا، أو امرأة، أو أسود البشرة)، سيكون لزامًا عليه أن يرتضي حزمة المعتقدات، والقيم، والتوجهات التي تحدّدها مجموعته، ويقاتل من أجلها، أو يموت دونها في بعض الأحيان.

كان الفيلسوف الهندي أمارتيا سن Amartya Kumar Sen الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد أحد أكثر النقّاد صرامةً ووضوحًا في افتراض أن الفردانية قد اختزلت إلى هوية جمعية[1]. وقدّم حجة دامغة ضد الفردانية الانعكاسية التي تفترض أن كلّ فردٍ يتشظى إلى عددٍ متنوع من الانتماءات (تستطيع أن تكون مسلمًا، ومحاميًا، وشغوفًا بالموسيقا الكلاسيكية، وهندي الجنسية، ومغاير الجنس، وناشطًا في حقوق المثليين، ومتذوّقًا للمطبخ الإيطالي.. إلخ). الأمر متروك للفرد أن يحدّد أي من هذه الهويات مركزية أكثر أو أقل في تحديد مفهوم حياته. ولا يشترط أن تختزل الهوية إلى مجموعة منفردة تحدّد سياسة الفرد، وقيمته، وأسلوب حياته.

تأسست الليبرالية على فكرة أن عملية التطوّر الفرداني قيّمة في حدّ ذاتها، أي لا بدّ من الاحتفاء بالسعي الحثيث المتمثل في أن يتمتع الفرد بسمات ورؤى خاصّة به، لذلك علينا أن نتطلع إلى الفرد الذي يتمتع بكفاءة (وبسوق أنا متداولة تجاريًا)، أو الفرد الذي لديه ولاء أعمى للمجموعة (يهوديًا، أو مثليًا، أو أسود اللون)، ولكن لا ينشغل في النزاعات والتوترات التي تنطوي عليها عملية التنمية، والتي تقوّض أيضًا أحد أسس الليبرالية. إن تجاوز الأكاذيب، وخلق الآمال ورفع قيمتها، واكتساب المعتقدات، والتخلّص

---

(١) أمارتيا سن، الهوية والعنف: وهم المصير (٢٠٠٦).

من معتقدات خاطئة في ضوء النقد، ومن ثم اكتساب معرفة الذات، كلّ ما سبق يمكن أن يعدّ قيم جوهرية إذا ما ازدهر المجتمع الليبرالي.

كان أحد الموروثات التأسيسية في الفلسفة الرومانسية الأوروبية هو الافتتان بتعقيدات التطوّر الفرداني: من «الاعترافات» لجان جاك روسو إلى «فيلهلم مايستر» لغوته، ومن السيرة الذاتية لستيوارت ميل إلى «أما أو» لسورين كريكاغرد، جميعهم احتفى بالفردانية Selbstwerdung، وكان النماء الفرداني ثيمة جوهرية في الفلسفة الرومانسية.

تطوّرت الثيمة أكثر على يدّ علم النفس التحليلي والأفكار الوجودية، وأُضيف إلى الاحتفاء بالفردانية عنصر الصراع بين الواقع والرغبة، وبين الخيال ومعرفة الذات. كانت هذه العملية ضرورية؛ لأن الأفراد لا يمكنهم اختيار المواد الخامّ لحياتهم (الجندر، والثقافة، واللغة، ..الخ). وتشكيلها في حياةٍ يختبرون عيشها فعلاً، ووجد أيضًا مدى صعوبة اكتساب معرفة الذات على نحو موضوعي مع الحفاظ على الشغف الذي يجعل الحياة تستحق العيش.

الحداثة وأزمة المعنى

يذكر ماكس فيبر في تحليله الفذّ عن جوهر الحداثة واصفًا إياها بأنها «خيبة أمل العالم». وإن خلاصة الثورة العلمية في القرن السابع عشر أن العلوم الطبيعية الحديثة لم تعد تستخدم العلاقات الرمزية لتفسر ظواهر العالم. ودحضت كلّ خرافات القرن السادس عشر من أمثال «ثمة سبعة كواكب في الكون؛ لأن لدى الإنسان سبعة ثقوب»، ومثل ذلك القول بـ «أن العالم الكبير والعالم الصغير يرتبطان فيما بينهما»، وأن «للجنس البشري مكانة خاصّة وترتيب أولي (حرفيًا) في نسيج الكون».

دمرت ثورة كوبرنيكوس وظهور الفيزياء الرياضية من نسيج الكون إلى الأبد، ولم تعد مركزية الإنسان في العالم أو مركزية الكون في المجرة ذات أهمية بعد الآن، ولم يعد بالإمكان اشتقاق معنى لحيواتنا من العلاقات الرمزية التي تربط بين خالق الكون والكون نفسه والطبيعة البشرية.

باتت الجملة الوجودية الأبرز تقول: إن كان الكون غير مبالٍ بشأننا، إذن كيف نعرف أن حياتنا ذات أهمية؟ وكيف نعرف أن ثمّة نداء يمثل المعنى الحقيقي للنداء «النداء الإلهي» الذي يمكن إثباته في علم الكونيات الحديث؟

يربط فيبر بين طبيعة الحداثة وخيبة الأمل بالعالم بظهور الأطروحات الأخلاقية البروتستانتية[1]؛ أن تسأل نفسك في عالم مخيّب للآمال ماذا يعني أن يعيش الفرد حياة ذات معنى أصبح سؤالاً إشكاليًا جدًا، وأصبح من غير المستساغ الحفاظ على مفهوم أن الخالق ينادي أولياءه للقيام بشيء ما. حاولت الأطروحات البروتستانتية أن تضفي على الرأسمالية أساسًا لاهوتيًا. هكذا افترض فيبر بحنكة وذكاء أن هذه الأطروحة أسست المفهوم اللاهوتي للنداء، أي إن الإله ينادي عليك للقيام بشيء ما.

أُعيدت صياغة معنى الحياة على وفق ذلك، وأصبح النجاح المالي مقياسًا للقيمة الجوهرية للإنسان، وربطت الديانات بين الخلاص والثراء. ولم يعد بالضرورة أن تشعر بالذنب لأنك ثري، وقد يكون العكس صحيحًا بدعوى أن الخالق وهبك مكانة خاصّة في الكون. وذلك يكفي تبريرًا يعتمد عليه العالم الغربي للهيمنة على العالم عبر تحسين جوانب الحياة من الهندسة إلى التجارة والحروب.

كان لعصر العجل الذهبي في نهاية القرن العشرين جذور عميقة ظهرت على أساسها الحداثة، ويعدّ سوق الأنا نسخة متطرفة من الأطروحات البروتستانتية؛ لأن حالة النعمة تحدّدها قيمة الذات. كلّ الفكر الوجودي، بدءًا من كريكغارد وفيودور ديستويفسكي، مرورًا بذروة أعمال مارتن هايدجر وكارل ياسبرز وجان بول سارتر في القرن العشرين، وُضعت في محاولة لمعالجة هذا التساؤل بكل عناية ودقة؛ كيف يمكننا أن نجد معنى في عالمٍ لا يكترث بنا أساسًا؟

---

(١) تشدد الأطروحات الأخلاقية البروتستانتية، التي نجدها في أعمال ماكس فيبر، على ضرورة العمل الجادّ بوصفه عنصرًا من عناصر النجاح الدنيوي ونتيجة مضمونة للوصول إلى الخلاص الإنساني الفردي.

كان جواب الفلسفة الوجودية أن حرية الإنسان ومحدوديته هما مصدرا القلق العميق الذي يعاني منه أغلبية البشر. فلم تكن الوجودية وجهة نظر رقيقة ومتفائلة عن الوجود البشري، وليست وجهة نظر عدمية بالتأكيد. كان ادعاءها الأساس أن المعنى يولد حين نواجه البنية المأساوية لوجودنا: نعم، عندما ندرك أننا سنموت، وعندما نتحمل المسؤولية عن حيواتنا وهوياتنا من دون إنكار التوتر الناشئ بين طبيعتنا البيولوجية والوعي الذاتي الذي يجبرنا على التساؤل عما يعنيه أن نعيش حياة ذات معنى. وليس غريبًا أن تفقد الفلسفة الوجودية من حضورها الثقافي في عصر العجل الذهبي الذي يحتفي بوهم القدرة المطلقة. ولو تمعننا في لبّ الأفكار الوجودية، سنجد من الأصح انتقاد المفهوم الذي يعدّ أن الحياة الهانئة خالية من التوترات والصراعات، وأن الهدف من الحياة يجب أن يتوجه نحو تطبيعها وتصميمها على غرار الرموز أحادية البعد «للحياة الرغيدة» التي يوجهها لنا النظام المعلوماتي الترفيهي.

أسهم شعار «افعلها فحسب» في استحالة أن نشعر بأننا نعيش حياة ذات معنى؛ لأن من الصعب على الحياة البشرية أن تواجه ما أطلق عليه الفيلسوف والطبيب النفسي الألماني كارل ياسبرز «المواقف الحدّية»[1]؛ تلك المواقف التي تحمل الفشل الحتمي في مواجهة القيود الثابتة للوجود البشري، والتي كان الموت من أهمها[2].

يمنحنا التعامل مع قيود هوياتنا الفردانية والجماعية تحديدًا يمنحنا كلّ ما نبتغي من معنى. إننا نواجه في هذا الكون الفسيح الذي لا يكترث بأمرنا مهمة تشكيل المواد الخام لوجودنا في حياة هي بالفعل حياة ذات القيمة في عيون الأقربين والثقافة التي نعيش فيها. وهكذا يمكن إعطاء تفسير جديد للدعوة اللاهوتية: عندما تكون الحلول لصراعاتنا الشخصية ذات قيمة في نظر الآخرين، نستطيع وقتذاك أن نشعر بأن حيواتنا ذات معنى حقًا.

---

(١) كارل ياسبرز، الوسيلة للحكمة: مقدمة إلى الفلسفة (١٩٥٣).

(٢) للاطلاع أكثر سنحاول الإسهاب أكثر في أفكار ياسبرز في الفصل الخامس.

الرومانسية: الحياة والفردانية بوصفها فنًا

جادلت الفلسفة الرومانسية الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر بأن الكفاءة والعقلانية لا يمكن أن تكونا مصدرًا كافيًا للمعنى. وكان الحلّ إيجاد مصدر المعنى في الذات الإبداعية. وبذلك تكون الفلسفة الرومانسية قد حوّلت مفهوم الفنّ من مجرد حرفة إلى قمة الإنسانية. ولأن ثقافتنا بالأساس تنتمي إلى حقبة ما بعد الرومانسية؛ فمن الصعب أحيانًا أن ندرك مدى حداثة الفنّ تاريخيًا. إن موسيقا يوهان سيباستيان باخ، الذي توفي في منتصف القرن الثامن عشر، مازالت تُفهم بأنها حرفة. على الرغم من أنه كان يفتخر بمهارته واحترافه، ولكنه حين يسُئل عما إذا كانت مؤلفاته تعكس شخصيته وإبداعه، فإنه يعجز عن الإجابة. ولم يكن يمانع أن تتمحور بعض من أعظم مؤلفاته حول مواضيع أرسلت إليه وليست من اختياره. وكان يُفترض أن فنّ الفوغ المسجل باسمه عبارة عن تقنية شاذة ولا تمثل بصمته الشخصية. لقد كان الفنانون في عهده ينتجون مؤلفات جميلة بحسب الطلب، ولم تكن مكانتهم تختلف كثيرًا عن مكانة ذوي الحرف الآخرين الذين يقدمون ما تيسر من سلع وخدمات.

تعكس اعترافات روسو، التي تعدّ إحدى الوثائق التأسيسية للفلسفة الرومانسية الأوروبية، منحى مختلفًا تمامًا؛ فلم تعد الفردانية متجهة نحو الحقيقة الكونية، بل نحو الأصالة والارتباط بالحقيقة الذاتية التي يحتاج أن يتصالح معها الفرد ليعيش حياة تستحق.

وبعد مرور نصف قرن من وفاة باخ، تغيّرت أمور كثيرة من الثقافة الغربية فيما يخصّ فهم الفنّ ومكانته الحقيقية. وأصبحت الفلسفة الرومانسية مهووسة بمفهوم العبقرية وعملية الخلق الفنَي، وأمسى الفنان العظيم أشبه بالإله، ذلك الشخص الذي يشارك الخالق بفضيلة الخلق من العدم creatio ex nihilo. أمسى الإبداع غاية في حدّ ذاته[1]، ولم تعد معايير الإبداع محدّدة أو مفهرسة

(١) يمكن تتبع خير تحليل عن النظرة التعبيرية للحياة الإنسانية في تشارلز تايلر، مصادر الذات (١٩٨٩). أنا نفسي مدين لتحليلات تايلر المستفيضة والدقيقة من نواحٍ شتّى.

في قواميس الفضائل التي تحدّدها سلطة الدين أو سلطة العرف الاجتماعي، بل يحدّدها التماسك الداخلي للشخصية. لقد أوضح فريدريك نيتشه هذه الملكة القيادية الثقافية الجديدة بإيجاز حين قال:

شيء لا بدّ منه أن تضفي إبداعًا فنيًا على طبعنا - فهذا فن عظيم ونادر يمارسه الذي يعانق كلّ ما يمنحه طبعه من قوة ومن ضعف! والذي يعرف بعد ذلك، كيف يدمجه في مشروع فنّي على نحو جيّد يبدو معه كلّ عنصر مثل قطعة فنّ وعقل، حتى الضعف تكون له ميزة سحر النظر... وفي النهاية، حين يكتمل العمل، يظهر أن إكراه نفس الذوق هو الذي كان يسود في الأشياء الصغيرة والكبيرة ويهيئها: أن يكون الذوق سليمًا أو غير سليم لا يهم بالقدر الذي كنّا نظنه، يكفي أن يكون ذوقًا![١]

لقد حولتنا الفلسفة الرومانسية إلى فنانين، إذ يعني عيش حياة تستحق أن يكون المرء مؤلفًا لقصة حياته الخاصّة. لقد أبدع فريدريك نيتشه في صياغة المعيار للحكم على هذا الخلق: **يجب أن تكون حياة ذات تماسك جمالي داخلي. وذلك يتطلب، مثل كل إبداع فني، أن نستخدم ملكاتنا الجمالية بكل دراية وحكمة.** ثمة فرق وحيد بين الخلق الفنّي والخلق الذي يرتبط بعيش الحياة؛ إذ يمكن للفنان أن يختار موضوعه، وتصميمه، وتقنيته؛ أو أي طيف يفضل من بين الأطياف الفنّية، في حين إننا لا نستطيع في أثناء عيش حياتنا أن نختار موادنا الأولية[٢].

إننا لم نخلق أنفسنا، وإن وجودنا الجسدي نتيجة فعل جنسي بين رجل وامرأة لم نختارهما ليكونا والدينا، وإن عقولنا نتيجة تفاعل مؤثرات لم نتحكم في أي منها. تتطور جيناتنا إلى قدرات، وسمات، وطباع، وميول عاطفية تمثل الأساس البيولوجي لكلّ ما نفكر به ونشعر ونختبر. تتشكل رؤانا عن العالم من اللغة التي تشكّل المادة الخام لعقولنا، والثقافة التي تحدّد نظرتنا عن الحياة والطبقة الاجتماعية التي ولدنا فيها. حتى شخصيتنا تتشكل بشكل لا يمحى

---

(١) فريدريك نيتشه، العلم المرح. وأليكسندر نيهاس، نيتشه: الحياة بوصفها لونًا أدبيًا (١٩٨٧).
(٢) لقد أسهبت في تطوير هذه الثيمة في كارلو سترينجر، الفردانية، المشروع المستحيل (١٩٩٨/ ٢٠٠٠).

عبر تأثير شخصيات الوالدين والمعلمين وأمثالهم. وبحلول الوقت الذي يتبلور فينا شعور الفردانية، تتحدد المعايير الأساسية لحياتنا؛ لقد حصلنا على مجموعة من البطاقات التي يستحيل استبدالها؛ هنا تبدأ دراما الفردانية.

قد يجد الفرد نفسه في صراع مع عائلته، أو ثقافته، أو دينه، وقد يجد الفضولي المشكّك أن الأسئلة المتعلقة بطبيعة معتقد الأهل الديني محض هرطقة غير مستساغة أخلاقيًا، أو قد يجد الفرد، في صراع آخر، أنه مثلي الجنس في عائلة ومجتمع يعدّ هذا التوجه غير شرعي.

رغبتنا نحو التفرّد غالبًا ما تتمرد حين نضطر للعيش في ظلّ القيود والحدود التي لم نختارها. مشروع أن نصبح مؤلفي حيواتنا محاولة أن نعيد خلق جوانب الواقع الحتمي، في الواقع أحيانًا والخيال في أحيان أخرى. وتتشكل الذات ومسار الحياة بأسلوب العمل الفني. على الرغم من أن قوى القدر، والرغبة في التأليف، والصعاب، والآلام، والرغبات، والمقلقات، تتفاعل فيما بينها بطرق لا يستطيع الفرد أن يقفز فوقها تمامًا. تختلف قدرتنا على تأليف الحياة من شخص لآخر. فقد يؤدي هذا المشروع لدى بعضهم إلى طرق تتعارض مع الأعراف الاجتماعية، ويختارون أنماط حياة تتطلب اختيارًا واعيًا؛ لأنهم لا ينتمون إلى تيار المجتمع الجارف.

تجدهم يتعدّون أحيانًا حدود الآراء الدينية والسياسية التي تعدّ مقبولة في ثقافتهم الأصلية؛ ويخلقون أنماط حياة تجبرهم على عيش صراع مع ما تعلموه. هكذا يعيدون خلق أنفسهم وحياتهم بما يرضيهم بعد صراعات مؤلمة، ومن ثمّ يستعيدون الشعور بأنهم يكتبون قصة حياتهم. إنهم يعيشون حياة غنية ثرية، ولديهم علاقات وثيقة ذات مغزى، ويجدون طرقًا كثيرة ليعبروا فيها عن قدراتهم.

لا شكّ أن المنحى الرومانسي لوصف الفرد بأنه مؤلف قصة حياته منحى يحتوي كثيرًا من اللغط والإشكالات. فلا يشعر غالبيتنا عادة أننا نخلق حياتنا؛ بل نشعر أننا نسترشد بالأعراف الثقافية، وتوقّعات الأسرة، والحاجة إلى الاندماج في المجتمع. يجسّد هذا المنحى شيئًا عميقًا يلامس الطبيعة البشرية. فالإنسان الوحيد هو الكائن الذي يتمتع بالوعي الذاتي. نعم، إنه

الوحيد الذي لا يكتفي بالوجود فقط، بل لديه علاقة بنفسه وحياته. وإن الهوية ليست مجرد معطى، بل نتاج قرارات، ومن ثم فإنها إلى حدّ ما صنيعته.

الفلسفة الوجودية وبنية الوجود الإنساني

استعمل الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر في كتابه «الوجود والزمان» مصطلحًا مؤثرًا لحقيقة أننا لم نختر أيًا من المعايير الأساسية لوجودنا: فلم نختر والدينا، أو أجسادنا، أو الجنس البيولوجي، ولم نختر الثقافة التي شكّلت عقولنا، أو مستوى مواهبنا، التي تحدّد كثيرًا من مسار حياتنا. وأطلق على هذه السمة الوجودية بـ «الوثب الوجودي» existential thrownness. لقد قُذف بنا إلى الوجود (لم نختر أن نولد على أي حال، حتى لو تقبّلنا هذه الحقيقة الآن). لذلك فإن البنية الميتافيزيقية الأساسية لوجودنا أنه لم يكن لدينا أيّ رأي فيما يتعلق بأي من أيسر معاييرنا.

يمهد الوثب الوجودي الطريق للدراما الفردانية الإنسانية، إذ يتمتع البشر بقدرتين فريدتين على حدّ علمنا في مملكة الحيوان؛ القدرة الأولى هي امتلاك الوعي الذاتي، إذ نحن ندرك أننا موجودون، ولدينا تصوّر لا بأس به عن أنفسنا، ولدينا موقف تجاه ما نحن عليه. والقدرة الثانية أننا نتمتع بخيال خصب ونشط كفايةً لنتخيل أن الأشياء قد تكون مختلفة.

بينما قام أحد أهم الفلاسفة الوجوديين في القرن العشرين، جان بول سارتر، باستغلال هذا النمط وتحويله إلى أعجوبته الفلسفية «الوجود والعدم». يذكر سارتر أننا من ناحية مجرد كائنات حية، شيء في حدّ ذاته en-soi، شيء مجرد لا أكثر. لكن لدينا، من ناحية أخرى، ذوات، نعيش على غرار أنفسنا pour-soi، ونتمتع بالوعي الذاتي، وذلك ما يغير من وجودنا. لدينا القدرة على تجاوز القيود التي تفرضها المعايير الوجودية التي لا حيلة لنا فيها، نتخيل تجاوزها مع عجزنا عن تغييرها بإرادتنا.

قد يكون صميم ما وصلت إليه الفلسفة الوجودية أن الوجود في الأساس مأساوي؛ لأنه من المستحيل أن نجد طريقة للهرب من التوتر الناجم بين «الوثب الوجودي» و«الواقعية» (حقيقة أننا لا نستطيع اختيار المعايير

الأساسية لحياتنا) وحرية الوعي بالذات. لا نستطيع الهروب من الحرية الممنوحة لنا بإدراكنا أن حيواتنا من صنعنا، أو تجاوز واقعية تاريخنا؛ ولا نستطيع تغيير المعايير الأساسية لهويتنا.

ومن هنا، تعدّ الدراما الحقيقية للفردانية بمثابة شدّ وجذب بين الواقعية والحرية. ولا فكاك من هذا الشدّ والجذب. إن أسطورة «افعلها فحسب» مضللة جدًا؛ لأنها تفترض أن باستطاعتنا إعادة تشكيل أنفسنا متى ما شئنا؛ ولأن البشر لا يمكنهم الهرب من تاريخهم، لذلك فإن الحياة الكريمة ليست حياة ذاتية الخلق، إنها تعايش مع التوتر المتأصل في وجودنا، ومن ثم العيش بتسامح وخلق قدر المستطاع. فالمهمة أن نحوّل قصة الحياة هذه إلى عمل نختبره بأنفسنا حقًا؛ لنكون مؤلفي حياتنا، على الرغم من أننا لم نبدأ هذه القصة بخياراتنا.

وهذا المشروع ليس سهلاً بكل الأحوال. نحن مثل الفنانين متعددي المواهب الذين لا يمكنهم بدء عملهم من الصفر بوضع الكانفاس على الإطار أو وضع صفحة بيضاء في الآلة الكاتبة؛ لأن المواد الخام موجودة فينا وجزء كبير من عملنا (الحياة) موجود بالفعل، ولا نستطيع المضي إلا على وفق تاريخنا. إن وضعنا الوجودي أشبه بحال الفنان الذي لم يشترِ المواد اللازمة لابتكاراته على وفق خطّة مسبقة إطلاقًا؛ ولكن مثل متعدد المواهب، يأخذ المواد الموجودة في متناول يده من هنا وهناك، ثم يبتكر منها ما ملكت يداه. إن مهمة حياتنا أن نحوّل القصة إلى عمل نختبره بأنفسنا فعلاً؛ لنصبح مؤلفي حياتنا، مع أننا لم نبدأ هذه القصة بخياراتنا.

الواقعية والوعي بالذات

أوضح الروائي التشيكي ميلان كونديرا في واحدة من أكثر السرديات الأدبية تأثيرًا حالة التوتر بين الواقعية والوعي بالذات في روايته الأشهر «كائن لا تحتمل خفته»[1]. فقد خلق بريشة فنان خبير أربعة أبطال يتصارعون فيما بينهم تحت ظلّ أنواع التوتر الوجودي الذي لا يستطيعون الفكاك منه، والذي

(١) ميلان كونديرا، كائن لا تحتمل خفته (١٩٨٦).

أطلــق كونديرا عليه «المعادلة الوجودية»[1] للشــخصية. تعدّ رواية «كائن لا تحتمل خفته» إحدى الروايات الفلسفية القلائل التي تنجح أدبيًا وفلسفيًا، بل تعدّ أطروحتها الفلســفية فيها استثنائية: إذ افترض أن البشر يتشكل على وفق معادلــة وجودية لا يمكنه اختيارها أو الفكاك منها. كلّ ما نســتطيع فعله أن نعيش هذه المعادلة بأفضل ما نستطيع.

نشــأت تيريزا، إحدى أبطال الرواية، مع أم تكرههــا؛ لأنها اضطرت أن تداري حملها وتتزوج رجلاً تبين أنه مخيب للآمال. وكانت تشــعر أن جاذبية جسدها مجرد سلعة زائلة تختفي مع تقادم العمر، لذلك كانت مصمّمة على أن لا تدع تيريزا تشعر بأنها مميزة أو فردانية كما تريد.

كانــت أكثر أمنيات تيريزا حضورًا أن تهرب مــن الوجود الذي تُدان أمها فيــه، أو الوجود الذي تريد أمها أن تربطها به؛ وأن تهرب إلى وجود تكون فيه جســدًا نقيًا فردانيًا. ترى تيريزا أن الكتب والثقافة هما السبيل الوحيد لتشعر بالوجود الأهون من وحشية ما تراه في محيط بلدتها الصغيرة.

عندما وصل توماس، جراح الأعصاب من براغ، إلى المدينة لإجراء عملية جراحية، حدثت سلســلة من المصادفات التي جعلت تيريزا تشــعر أن هذا الرجل مقدر لها كي يساعدها على الهرب من هذا الوجود البائس.

معادلة تيريزا الوجودية عبارة عن توتر بين الجســد والروح؛ يمكن إعادة صياغة هذا التوتر على ضوء الفلسفة الوجودية بأنه توتر بين طبيعتنا البيولوجية (والدة تيريزا) والوعي بالذات (سعي تيريزا المستميت للتحرر والفردانية).

بينما معادلة توماس الوجودية تتمثل في الصراع بين الخفة والثقل. فقد قرّر، بعد أن فقد الاتصال بابنه، بسبب الصراع مع زوجته عن كيفية تربيته، أن لا يطالب مجددًا بأي علاقة عاطفية. ويبدو أنه اختار حياة الخفاء بامتياز، وجعل علاقاته بالجنس الآخر تقتصر على ما يطلق عليه «الصداقات الشــهوانية». وعلى أي حال، عندما ســقطت تيريزا مغشية عليها أمام عتبة منزله، شعر كما

---

(١) ميلان كونديرا، فنّ الرواية (١٩٨٨).

لو أن طفلاً قد وُلِد في تلك العتبة، وقد أوكل القدر إليه مسؤولية لا يستطيع رفضها، ومن ثم يعود الثقل إلى حياته من جديد. وفي تقادم الصفحات، نجد أنه سيدفع ثمنًا باهظًا؛ لأنه رفض التراجع عن مقال ينتقد فيه النظام الشيوعي التشيكي؛ أي إن الصراع بين الخفة والثقل لا مناص منه.

نكتشف في كلّ فصول الرواية كيف تفشل تيريزا في حلّ معادلتها الوجودية. لذلك نجدها في أكثر اللحظات حميمية، تقرقر بطنها فجأة، وتشعر بالخجل وعدم الارتياح. وبينما يساعدها توماس على الاستقلال والهرب من بلدتها الصغيرة، فإنه يزيد من معاناتها؛ لأنه لا يستطيع ولا يرغب في أن يتوقف خيانتها مع نساء أخريات، مما يجعلها تشعر مجددًا بأنها اختزلت من مجرد لحم إلى لحم من جديد.

تدفعنا رواية كونديرا إلى استنتاج أن مشكلة تيريزا ليست فريدة من نوعها، بل العكس؛ لأنها تعبّر عن التوتر المستدام الذي يحدد مسار حياتنا بين طبيعتنا الجسدية ووعينا بالذات. ولم يستطع توماس أن يحل التوتر بين الخفة والثقل مثله مثل تيريزا: وعلى الرغم من أنه لم يتوقف عن الخيانات والمغازلات، إلا أنه ظلّ مغرمًا بتيريزا. وبينما لم يكن يرغب في الانخراط في السياسة، انتهى به الأمر بالاستقالة من عمل الجراحة؛ لأنه غير مستعد للتنازل عن مبادئه.

توضح فلسفة ميلان كونديرا أنه لا توجد طريقة صحيحة لفكّ معادلتنا الوجودية. ويبدو أن توماس وتيريزا قد وجدا، بعد محاولات وصراعات ومآسي، طريقة للخروج من معادلاتهما الوجودية. فقد شعر توماس، بعد أن استقر في قرية صغيرة في الريف، بالاكتفاء بتيريزا، في حين تصالحت تيريزا مع فردانيتها، إلى أن توفيا في حادث سيارة.

إن معادلتنا الوجودية عبارة عنّا نحن. الحياة الحافلة ليست الحياة التي قد حُلّت فيها المعادلة الوجودية، بل الحياة التي تُعاش فيها المعادلة الوجودية بطريقة مثمرة وغنية وخلّاقة. إن حلّ هذه المعادلة يعني بالضرورة نهاية الحياة والموت.

كفاح الإنسان المعولم لكتابة قصة حياته

يواجه الإنسان المعولم صعوبات في التعامل مع أزمة الهويات المتضاربة أكثر من أي وقت مضى. لا يخفى على الجميع أن أعداد البشر الذين يعيشون في ما يطلق عليه بالهويّات المتقاطعة hyphenated identities قد ازداد باضطراد، وتعقيدات هذه الهويات لافتة للانتباه. فإن كان في السابق يكفي أن ندمج مصطلحين معًا مثل «أميركي-أفريقي» أو «مسلم- فرنسي» أو «يهودي-بولندي» كي نصف هوية ما، فلم يعد هذا الدمج كافيًا. وأشهر مثال على صعوبة هذا الدمج الرئيس السابق باراك أوباما؛ الذي كان من جهة أبيه نصف كيني ونصف مسلم، في حين تنحدر عائلة أمه من أصول قوقازية أمريكية ومسيحية. تقف خلف المصطلح «الهويات المتقاطعة» دراما معقدة. خذ حياة أوباما على سبيل المثال الذي تجسّد حياته البنية المعقدة لمشروع الفردانية بامتياز، ولا يحتاج أن نسرد قصة حياته المعروفة للجميع[١]، يكفي أن نقول إنه ولد لأم أمريكية بيضاء وأب كيني أسود، الذي قام بطلاق زوجته حين كان في الثانية، لذلك ترعرع مشتتًا بين هاواي وإندونيسيا.

عندما عاد أوباما إلى الولايات المتحدة، واجه إشكالات العرق بطرق موجعة. كان شابًا شديد الطموح، تسلق بإصرار السلّم الأكاديمي الأمريكي، حتى انتُخب بوصفه أول رئيس أسود البشرة في مجلة هارفارد للقانون، وكان يجمع بين وظيفتي أستاذ قانون في جامعة شيكاغو والنشاط المجتمعي. ويمكنك ملاحظة كيف كان يعيش في هذه الهويّات المتقاطعة حين تقرأ سيرته الذاتية «أحلام من أبي»؛ فقد كان يدرك منذ القدم أن حياته ستكون جسرًا تتقاطع فيه صراعات سياسية واجتماعية عدّة، لذلك تخلّى عن صفة الطالب الألمعي في جامعة هارفارد، واستقل في مهنة مربحة في شركة محاماة كبرى. ويبدو أنه شعر أن معادلته الوجودية تدور حول مقارعة الصراعات التي سببتها إشكالات الهوية، ومن ثم بدأ صعوده المتأني في السياسة من منصب منتخب في ولاية إلينوي إلى مجلس الشيوخ الأمريكي.

---

(١) باراك أوباما، أحلام من أبي (٢٠٠٤).

دمج أوباما هويّات مختلفة في هوية معقدة ومتنوعة الأوجه مع أنها فردانية بشكل لا لبس فيه. كان معولمًا وأمريكيًا في الوقت نفسه، بلوني البشرة الأسود والأبيض، ورؤيا محدّدة عن العالم ومنفتحة على أشــكال مختلفة من الخبرات الاجتماعيــة، والثقافية، والدينية إضافة إلى تجربتــه الخاصة. ولو لم ينجح في عملية بناء جسور بين الأضداد، لما وثق به الأمريكيون ليقود أمتهم.

ثمة أمثلة أخرى لأشخاص واجهوا تضاربًا بين الأسس الفطرية والأولية لشــخصياتهم والظروف التي ولدوا فيها، وقــد يكون هذا التضارب حجر الأساس لفردانيتهم. في مثال ثانٍ، نجد الناشطة الصومالية أيان علي هيرسي Ayaan Ali Hirsi التــي ولدت بخصال التمرّد عــلى مجتمعها التقليدي[1]، وحدّدت هــذه الخصال توجهاتها لبقية حياتها. وعلى الرغم من أنها خرجت من حدود المجتمع الإســلامي الذي ولدت فيها، لكن الماضي سيبقى رفيقًا لها إلى الأبد.

كانت هيرسي ربيبة إحدى الشــخصيات البارزة في الثــورة الصومالية، والذي سُجن بســبب نشاطه الســياسي في طفولتها. وكان والدها مناهضًا لختان الأعضاء التناســلية الأنثويــة التي كانت إجــراءً عرفيًا في مجتمعات جنوب الصحراء الكبرى، مع أن جدتها قامت بختانها حين كانت في الخامسة من عمرها. لكنها بعد اللتيا والتي من زواج تقليدي، وحصلت على لجوء في هولندا، وانتهى بها الأمر لتكون أحد أعضاء البرلمان الهولندي.

بقيت هيرسي، بعد عدة ســنوات من اللجوء، ترى نفسها امرأه مسلمة. لقد أيدت، على ســبيل المثال، الفتوى التي أصدرهــا آية الله الخميني والتي هدر فيها دم الكاتب ســلمان رشدي بســبب روايته «آيات شيطانية». لكنها قررت، بعد صراع داخلي طويل، أن تســتقل عن الدين الإســلامي، أو عن الأديان عمومًا، مع أنها كانت مناهضة صريحة للدين الذي آمنت وترعرعت في كفنه.

---

(١) إيان علي هيرسي، الكافرة (٢٠٠٧).

كتبت هيرسي سيناريو فيلم قصير يحمل عنوان «إذعان»، والذي أخرجه الهولندي ثيو فان كوخ، وقد انتقدت فيه دور المرأة في الإسلام. لكن المخرج أغتاله أحد المتعصبين الدينيين، وكتب على جسد الضحية رسالة مفادها أن أيان هيرسي ستكون اللاحقة. وبعد أن سحبت الحكومة الهولندية الوصاية الشخصية عنها، قررت أن تنقذ بجلدها مخافة القتل، وانتقلت إلى الولايات المتحدة، وباتت زميلة في معهد المشروع الأمريكي للعلوم السياسية في واشنطن. هناك نشرت سيرتها الذاتية، ورواية جريئة مناهضة للدين الإسلامي.

ربّ سائل يسأل: «ألا تدرك هيرسي أنها تعرّض نفسها للخطر حين تنشر مثل هذا المؤلفات؟ ألم تتعظ من التجربة؟ ألم تنضج بعد؟». لكن النضج في منظور هيرسي قد تبلور مع تشويه جسدها الذي بقيت آثاره فيها، ومع ذكريات الصغر التي أجبرها فيها المجتمع على العيش بطريقة أساءت إليها؛ ولأنها تشعر أنها لاجئة دائمًا، وأنها مهددة بالخطر من المتشددين في كلّ الأحوال. ولاشكّ أن ثمة كتّابًا مرموقين يعتقدون أن هيرسي بالغت في قضيتها، وأن هجومها على الإسلام متطرف أكثر مما ينبغي، ولا تؤخذ تصريحاتها بالنظر ما خلا من المشككين والملحدين. وثمة كتاب آخرون يطلقون عليها «أصولية تنويرية»، ويعتقدون أن موقفها الفلسفي ساذج جدًا. ولكن لا مراء أن المعادلة الوجودية عند أيان هيرسي قد توضحت معالمها؛ ماضيها وصراعاتها وطبعها المستقل الانتفاضوي قد شكّل طينتها، أن تعيش حياة راضية وغزيرة لا يعني أن تتجاوز الصراعات والخلافات في هويتها، بل أن تعيشها على أكمل وجه وأتمّه.

مثال ثالث هو الكاتب الأمريكي فيليب روث، الذي ولد في عائلة يهودية تقليدية. كان والده، بولندي الأصل، يكافح ليمنح عائلته وأطفاله حياة كريمة كان محرومًا منها. كان يبيع بوالص التأمين، ليتسنى لابنه الحصول على تعليم أكاديمي. وكان حريصًا على تربية أطفاله على الولاء للشعب اليهودي وتاريخهم وقيمهم. ولا شكّ أن روث ممتن ومقدّر لوالده، وقد أدلى بشهادة مؤثرة عن شهامة والده وأصالته وعطفه.

التحــق روث بالجامعة في حقبة الازدهار الاقتصادي بعد حقبة الكســاد العظيم والحرب العالمية الثانية. وقد تبدّلت القيم حينذاك من أنموذج المعيل الشهم، وربّ الأسرة الصالح إلى أنموذج التعبير الإبداعي عن الذات. كان روث الشاب يشــعر بالامتعاض من بيئة المعيلين الذين يكافحون بإخلاص ليكونوا ضمن الطبقة الوسطى ويتفاخرون بذلك. وقد أوضح وجهة نظره في المجموعــة القصصية «وداعًا كولومبوس»، التي وصف فيها جيل والديه بطريقة مليئة بالمفارقات، بحيث شعر المجتمع اليهودي بنكران الجميل؛ لأنه صوّرهم بأنهم ضيقو الأفق بدلاً من نظرة الشهامة والكفاح الدؤوب.

نشر روث في ١٩٦٩ رواية «شــكوى بورتنوي» التــي وضعته في مقدمة المشــهد الأدبي الأمريكي. الروايــة عبارة عن مونولوج للبطل، ألكســندر بورتنوي، في أثناء جلســات العلاج النفسي التحليلي الأولى. يسرد بورتنوي كيف كان يشــعر بالارتباك من أمه المستبدة، وكيف دفعته حياته الجنسية إلى أعتاب الجنون، وكان يسرد تشتته بين القيم الأخلاقية السامية التي فرضتها عليه مهنة المحاماة والرغبة المســعورة نحو النساء، واستحالة أن يخوض مثل هذه التجربة في سياق العلاقات الدائمة، ولا سيّما مع النساء اليهوديات. كان بورتنوي يشعر بأنه سجين بين قطبي الرغبة المكبوتة والذنب الذي لا يطاق.

الرواية صريحــة جدًا في إيحائها الجنسي، وســاخرة بإمتــاع، وغير عابئة بالتنشــئة اليهودية التي تلقاها روث. لكن الرواية مع النجاح الذي حقّقته، قد أثــارت حفيظة الجالية اليهودية الأمريكية الذين شــعروا فيها أن فيليب روث يستخف بجيل والديه.

كان عمر روث ٣٦ عامًا حين نشرت روايته. ولم تكن ثمة دلالات في أثناء تلك السنوات أن الموضوعات التي طرحتها الرواية على وشك الانقراض. كان ناثان زوكرمان، الشــخصية التــي تمثل الأنا العليــا في روايات روث التســعة، يتحدث بلا انقطاع عن المشكلات التي تســبّب بها كارنوفسكي (القرين المتخيل لرواية شكوى بورتنوي)، مثل مشكلة الالتزام في العلاقات النسائية، وفخاخ الشهرة الأدبية، والصراع الدائم مع الرغبة الجنسية.

كان مـــن المتوقــع ضمن بدهيــات النضج الشــخصي أن يتجاوز روث هــذه الموضوعات ويمضي قدمًا، لكنه لم يفعل، فقد اســتمر يكتب عن ثيمة زوكرمان في رواياته التسعة، وانشغل في آخرها في مثالب الشيخوخة والقيود الجسمانية المترتبة على السنّ الكبير.

ربّ ســائل يســأل: «ألا يكبر هذا الرجل أبدًا؟ ألا يتخلى عن صراعات المــاضي ويمضي بحياته؟ لماذا يكون أكثر انضباطًــا واتزانًا؟ بوصفه كاتبًا أو إنســانًا في كلّ الأحوال؟ لمــاذا يتعين عليه أن يعيش مثل الناســك في منزلٍ صغيرٍ في ولاية كونيتيكت، ويحافظ على جدول كتابة صارم لا تقطعه سوى السباحة أو مكالمة هاتفية قصيرة مع هارولد بلوم في نادر الأيام؟».

أعتقد أن هذا التساؤل مبني على فكرة مغلوطة تفترض أن الحياة الرغيدة يمكــن أن تحلّ المعادلة الوجودية للفرد، وأن الموضوعات والصراعات التي تشكّل الفرد يمكن أن تتلاشى، أو يمكن للحياة أن تستقر في سلام وتصالح مثل الأنموذج الذي وعدت به الروحانية الشعبوية.

تقود نظرة الحياة الوجودية إلى شيء مختلف تمامًا. لاشكّ أننا نأمل أن يتعلم النــاس من أخطائهم، ونأمل أن يجدوا طرقًــا لعيش الصراعات والتوترات بطــرق إبداعية لا هدّامة، وأن يعزز هذا الإبداع من رفاهيتهم واســهاماتهم في العالم.

الفردانية .. الثقافة .. التاريخ

أتوقــع أن القارئ، في هــذه المرحلة، يخالجه اعــتراض معقول جدًا. لقد انتقدت عقلية «افعلها فحســب» بكل جوارحي، لكنّ نــماذجَ مثل: باراك أوباما، وأيان هيرسي علي، وفيليب روث كانوا عبارة عن شخصيات عاشت معادلتهــا الوجودية بفرادة اســتثنائية. إذن كيف تنطبق هــذه الأمثلة على أغلبيتنا نحن الذين ندرك أن أوجاعنا وصراعاتنا وانقساماتنا لن تتحول إلى مثل هذه الفرادة الاستثنائية؟ وذلك بالذات ما أصبو إليه، لا أقصد أن عيش معادلتنا الوجودية على أتمّ وجه عبارة عن وصفة مضمونة للنجاح. النجاح ليس مهمًا هنا. يجسد أوباما، وهيرسي، وروث دراما الفردانية بصورة لافتة؛

لأنهـم لا يختلفون عن كل البشر في أنهم ولـدوا ضمن واقع تاريخي ومادّي واقتصادي وثقافي خـاصّ حدّد تركيبتهم الجسـمانية والعقلية. لم يعشْ أيّ أحد منهم حياة سهلة. لقد عانوا من الشدّ والجذب بين الواقعية والحرية على نحوٍ حادٍ، وتحدّوا معضلاتٍ وأوجاعاً وصعوباتٍ تتعدى ما يواجهه أغلب البشر. وبذلك اكتسـبوا، كلّ بطريقته، حقّ كتابة قصة حياته حرفيًا ومجازًا. وعلى أي حال، لم يستطيعوا دفن ماضيهم الذي بقي يحدّد مسار حياتهم.

أذكر في ما أذكر حكاية رواها لي البـارون جون توماس ألدرديس John Alderdice، في سـياق لجنة الرقابـة الدائمة للاتحاد العالمي للعلماء بشـأن الإرهاب في صقلية. كان ألدرديس طبيبًا نفسـيًا تحـت التدريب حين حاز على مرتبة النبالة لمساهمته الفذّة في صنع السلام في إيرلندا الشمالية قبل اتفاق الجمعة الصالح[1]، وبينما كان لا يـزال زعيماً لحزب التحالف قبل أن يكون رئيسًا لجمعية إيرلندا الشمالية.

يذكـر ألدرديس أنـه كان يتسـاءل في طفولتـه كيف يمكـن لمجتمعه البروتستانتي أن يحمي نفسه من الكاثوليك. وكان والده يقول له: «تخيّل أن يبقى بيتنا موصدًا من دون أن نسـتطيع الخروج منه. وفي داخل البيت قفص للأسود. ونحن في انتظار أن يُفتح هذا القفص في غضون أسبوعين من دون أن يكون باليد حيلة إزاء ذلـك. ألا تعتقد أن من الأفضل أن نبدأ التفاوض مع هذه الأسود؟». لاشكّ أن هذه النصيحة مرعبة. هل تستطيع ضمان أن لا تأكلك الأسود؟ الشيء الوحيد الذي تضمنه أن الأسود موجودة هنا، وأنها لا بدّ أن تخرج من قفصها.

كانت الخطوة الأولى للبارون ألدرديس أن يدرس تخصص الطبّ النفسي، كان يحتاج أن يفهم خفايا اللاعقلانية التي تسـبّبت في المعاناة في البلد الذي

---

(١) اتفاق الجمعة الصالح Good Friday Agreement أو اتفاق بلفاست الذي وقعت عليه بريطانيا في ١٩٩٨ مع جمهورية أيرلندا وأحزاب أيرلندا الشمالية. يدعو الاتفاق البروتستانت إلى تقاسم السلطة السياسية في أيرلندا الشمالية مع الأقلية الكاثوليكية لحلّ النزاع المستميت الذي وقع في أيرلندا ذلك الوقت (المترجم).

نشأ فيه، وتابع تدريبه في العلاج التحليلي ليفهم أكثر عمّا يعتمل في داخل العقل بعد الصدمات والخسارات والانفعالات. أسهمت هذه البصيرة التي اكتسبها في عملية صنع السلام في أيرلندا الشمالية، والتي تكللت بالنجاح في نهاية المطاف. كان بمقدور ألدرديس أن يختار أسلوب حياة مسالم ومريح، لكنه ارتأى أن تكون ممارسته خير أنموذج يحتذى به في أجزاء مختلفة من العالم، ولا سيما في الأماكن التي تعاني من الصراعات مستعصية الحلول.

لا يشترط دائمًا أن تكون الحياة سهلة يسيرة. على سبيل المثال، النساء اللواتي عشن في أسرٍ تعاني من الأمراض، تحولن إلى ممرضات مجتهدات للتخفيف من معاناة الذين على شفا حفرة من الموت يوميًا في عملهن. والرجال الذين عاشوا في بيئة عنف، وقرروا الالتحاق بالقوات الأمنية للحدّ من الجريمة، يواجهون قدرًا كبيرًا من المشقة من جهة، ويشعرون بالرضا حين ينجحون في مسعاهم من جهة أخرى. أشخاص مثل: أوباما، وهيرسي، وألدرديس يحاولون قدر المستطاع جعل العالم مكانًا أفضل بينما يحاولون الاستفادة من تجاربهم الصعبة.

جميع هذه الأمثلة تعزّز ما نصبو إليه من العلاقة المعقدة بين الفردانية والثقافة. لا يستطيع أي أحد منا أن يشعر أن حياته ذات أهمية من دون خلفية ثقافية ورؤيا واضحة عن العالم تحدّد ما الذي يستحق وما إلى ذلك. ينكشف هذا الحال جليًا جدًا في عالم السياسة، فإن نشاط إدارة الجماعة البشرية وتنظيمها وقيادتها ترتبط أساسًا بهيكل ثقافي مشترك. ولا يختلف الحال في عالم الرواية، فقد حاول فيليب روث في مهمته أن يواصل الأعراف الثقافية المتبعة في كتابة الرواية الأوروبية.

يحتاج الإنسان المعولم أن يجد وسيلة يدمج فيها التقاليد الثقافية المختلفة التي تبلور حياته. ويُظهر أشخاص مثل: أوباما، وهيرسي، وروث، وألدرديس أن الأمر يتطلب تنازلات ومفاوضات بين السياقات الثقافية المختلفة، ودمجها في حياة واحدة ذات قيمة. لقد قام أوباما بالجمع بين ثقافات قارات وأعراق وديانات مختلفة في هوية اعترف بها الأمريكيون على

أنها بالفعل أمريكية، في حين كان يـــراه بقية العالم بأنه مواطن عالمي بامتياز. وبينـــما احتاج كلّ من هيرسي وروث إلى مقاطعـــة موجعة مع ماضيهما، كان ألدرديس ناجحًا في دمج خلفيته الدينيـــة بمنظومة الطبّ النفسي والتحليل النفسي في دعوة لإحلال الســـلام في وطنه، وفي مناطق الصراع في كل أنحاء العالم على وجه العموم.

الاحساس المأساوي بالحياة

تســـتند النظـــرة الوجودية للحياة عـــلى فكرة أن المأســـاة متأصلة في لبّ الفردانية الإنســـانية، وأننا محكومون في هذا التوتر من الشـــدّ والجذب بين الواقعية والوعي بالذات، ولا مناصّ منه.

ثمة عدد لا يحصى من الأســـاطير التي تحاول التقاط هذا التوتر المأساوي. أكثرهـــا تأثيرًا قصة آدم وحـــواء وطردهما من الجنة بســـبب تعدّيهما الحدود واشـــتهاء الفاكهة المحرمّة، وما تبع ذلك حين شـــعرا بالعار وطفقا يخصفان من الورق ليسترا سوآتهما.

تعدّ هذه الأسطورة تعبيرًا سافرًا عن حالة الإنسان: لم يكن لدينا حين كنّا أطفالاً وعياً بالذات، ومن ثم لم نشـــعر بالخـــزي والعار. ومع ظهور الوعي بالذات أصبحـــت علاقتنا بأنفســـنا معقدّة على نحو مأســـاوي. نحن على سجيتنا وواقعيتنا من ناحية (كينونة سارتر)، ومن ناحية أخرى لدينا صورة عن أنفســـنا بحيث نشعر بالمسؤولية بما يجب أن نكون عليه أو كيف يجب أن نكون، ونشعر بالعار حين نفشل أن نكون بأكمل صورة لنا.

تعدّ الســـير الذاتية للفنانين خير مثال لنفهم البنية العميقة للفردانية، كان بعض الكتّاب مثل: روث، وســـارتر، وسيمون دي بوفوار تتناول مؤلفاتهم الكفاح بوصفه هدفًا ومقصـــدًا. ومثل حالهم نجد روّاد الأعمال، والفنانين، والعلماء، والسياســـيين الذين ابتكروا وســـائل مختلفة للعب دراما الفردانية الإنسانية بالطريقة التي تنشأ بها (أو لا تنشأ) العوائل، أو الطريقة التي يمكن أن تخدم (أو لا تخدم) بلدانهم، أو أي جانب آخر في حياتهم.

نجد خير تعبير لهذه القصة في حكاية رواها آستور بيازولا Astor Piazzolla، الملحن الذي أحدث ثورة في رقصة التانغو حين دمج في موسيقاه بين الموسيقا الكلاسيكية وموسيقا الجاز. ولد بيازولا في الأرجنتين، وترعرع في نيويورك، وكان شغوفًا بالموسيقى منذ نعومة أظفاره، وباخ خاصّة، حتى إن أباه اقتنى آلة الباندونيون من سوق المستعمل، وكانت بداية مسيرته عازفًا في قاعات الرقص المختلفة لكسب لقمة العيش. وقد نصحه آرثر روبنشتاين، أحد أعظم عازفي البيانو الكلاسيكيين في بوينس آيرس في ذلك الوقت، أن يدرس الموسيقا الكلاسيكية، وهكذا صعد في سلم الدراسة منتقلاً بين السمفونيات الجماعية وموسيقا الصولو المنفردة.

حصل بيازولا في سنّ الثلاثين على منحة لدراسة الموسيقا تحت إشراف الأستاذة والملحنة الأسطورية ناديا بولانغر Nadia Boulanger التي وصف أول لقاء له بها:

عندما قابلتها أول مرة، وأريتها ما في جعبتي من سوناتات وسمفونيات، شرعت في قراءتها بنهم، ثم رفعت حاجبيها وقالت ببرود: «إنها مكتوبة على نحو جيد». ثم سكتت لوهلة وقالت: «هنا تشبه سترافينسكي، وهنا تشبه بارتوك، وهنا رافيل، لكنني لا أعثر على بيازولا». وراحت تحقق في حياتي الخاصّة: ما الذي قمت به؟ وما الذي حققته؟ وماذا عزفت؟ وما الذي لم أعزفه؟ وأأنا عازب أم مرتبط؟ وأأعيش وحدي أم مع شخص ما؟ كانت أشبه بالمحقق الفيدرالي! شعرت بالخجل الشديد من إخبارها أنني أهوى تلحين التانغو فقلت: «أنا أعزف في ملهى ليلي» خجلاً من البوح أنني أعزف في كابريه. لكنها أجابت: «ملهى ليلي، واضح جدًا، تقصد كابريه أليس كذلك؟»، «بلى» أجبت وفي حفيظتي كنت أنوي أن أضرب رأس هذه المرأة بالمذياع... لم يكن من السهل استغفالها، لكنها بقيت تسأل: «تقول: إنك لست عازف بيانو. إذن ما الآلة التي تعزف عليها؟» لم أرغب في مصارحتها بأنني أعزف على الباندونيون؛ لأنني اعتقدت أنها ستلقي بي من الطابق الرابع، لكنني اعترفت، وطلبت مني عزف بعض مقاطع التانغو

الخاصّة بي. هكذا فتحت عينيها فجأة، وأخذت بيدي وقالت: «أيها الأحمق، هذه مقطوعة بيازولا!». هكذا تخليت عن عشر سنوات من التأليف، عشر سنوات من حياتي، وألقيت بها إلى الجحيم في ثانيتين فقط.

تكمن روعة هذه القصة في أنها تبيّن السعي الإنساني المعقّد عن كتابة قصة الحياة باختصار. حاول بيازولا لسنوات أن يكون شخصًا آخر غير نفسه. تبنى الموسيقا الكلاسيكية، وقرّر أن يكون موسيقارًا كلاسيكيًا، وبذل جهدًا جبارًا في تحقيق هذا الهدف. لكنه كان ينكر عنصرًا أساسيًا في ملكته الموسيقية من ناحية الألحان والإيقاعات التي تشكّل معدنه الموسيقي الأساس.

يذكر بيازولا في مرحلة لاحقة من حياته أنه كان مجرد عازف ملاهٍ ليلية، هذه اللمحة عن هويته حافظت على بصيرته التي اكتسبها من السيدة بولانجر بأن التانغو صميمي في ملكته الموسيقية. وذلك لم يمنعه من الأخذ بالتانغو إلى اتجاه جديد تمامًا، ودمج عناصر كلاسيكية من العهد الباروكي مع عناصر من الجاز، ليتتهي به المطاف ليدمج موسيقاه مع الرباعيات الكلاسيكية الرائدة ويعزف في قاعة كارنيجي Carnegie. وما زالت موسيقاه الخالدة تُعزف وتُسجل من كبار الفنانين مثل عازف التشيلو يويوما Yo-Yo Ma حتى يومنا هذا. لطالما حاول بيازولا أن يحلّ التوتر في معادلته الوجودية، لكنه عجز عن العثور على صوته الفريد حين حاول الانتماء إلى مدرسة الموسيقا الكلاسيكية، وإنكار ملكة التانغو التي تعدّ مصدر أصالته. ولكن سرعان ما أدرك أنه سيبقى عازف تانغو، بل أمسى مؤلفًا محترفًا لروائع جمالية وتجريبية في الوقت نفسه.

لقد بدأت عملية تقبّل الذات حين وجد بيازولا أصالته، في عملية المعرفة بالذات التي تعلن بدء تشكّل الفردانية، الفردانية التي هي ملكة خاصّة بنا، وليست مفروضة خارجيًا على ميولنا الطبيعية. عندما ندخل في الفصل القادم سنرى أن نتيجة عملية تقبّل الذات الفاعل ليست عملية بعيدة عن مخيال الذات الحقيقية. الفرق الوحيد أن تقبّل الذات الفاعل عملية شاقة تتطلب الانضباط والقدرة على الصمود إزاء الوجع النفسي.

الفصل الخامس

التحوّل من «افعلها فحسب» إلى التقبّل الفاعل للذات

تستند أسطورة «افعلها فحسب» على خطأ فلسفي قديم وشائع؛ ألا وهو صورة الحرية بوصفها غياب القيود. تغذي هذه الصورة النزعة إلى رؤية مرحلة الشباب على أنها المرحلة الوحيدة القيّمة فعلاً، المرحلة التي لا تعوّض، مرحلة الحرية المفتوحة من دون قيود على كلّ الاحتمالات[1]. لذلك فإن افتراض وجود حرية حقيقية في أراذل العمر تبدو محاولة رخيصة، وغير مهضومة من جهة، ومغلوطة بسبب المحددات الجسمانية من جهة أخرى. وذلك له عواقب نفسية وخيمة. فقد تكون هذه المحددات سببًا للتشكيك والاشمئزاز المروّع من الذات، والذي يسبّب أيضًا استحالة تحقيق ما يمكن تحقيقه.

كان الاعتقاد بأن أسطورة «افعلها فحسب» تشجعنا على فعل ما نريده حقًا. لكنها تسبب نوعًا من الشلل للأغلبية في حقيقة الأمر. عندما يتعرض الفرد ذو الحياة الواقعية إلى قصص أشخاص قاموا بتغييرات سحرية في حيواتهم (محامون صاروا طهاة، ومديرون تبدلوا إلى رواد أعمال ناجحين بين عشية وضحاها، وربات البيوت أصبحن في لمح البصر كاتبات شهيرات)،

(١) إليوت جاك، الموت وأزمة منتصف العمر (١٩٦٥). المجلة الدولية للتحليل النفسي، ٤٦، ٥٠٢-٥١٤.

لا بدّ أن ينال منه الشعور بالعجز والشلل؛ لأن القدرة على التحوّل تبقى محدودة على فئة معيّنة من الذين يتمتعون برؤية ومخيّلة استثنائيتين.

الهدف من هذا الفصل أن نقدم مفهومًا للحرية يختلف عن مفهوم الحرية بوصفها مجرد غياب القيود، لكن الحرية التي أطلق عليها «التقبّل الفاعل للذات» active self- acceptance أو القدرة على نيل الحرية عبر مواجهة المواقف الحدّية boundary situation كما يطلق عليها الفيلسوف والطبيب النفسي الوجودي الألماني كارل ياسبرز[1]. يفترض ياسبرز أننا نستطيع نيل حريتنا حين نواجه صعوبات مستعصية لا فكاك منها، وأحد المواقف الحدّية المتأصلة في الفكر أن «الجوهر» لا يمكن تغييره، أو السوسين Sosein في اللغة الألمانية كما يسميها ياسبرز بمعنى «أن نكون هذا وليس غير شيء»[2] (قد نستعيض بمصطلح السوسين للإيجاز والدقة).

يعرف ياسبرز «السوسين» بأنها النواة التي تقاوم أي محاولة للتغيير. ولا يشترط أن يكون شعور عدم القدرة على التحوّل مدعاة للشعور بالضيق، بل قد يكون أحد أعظم مصادر الشعور بالبهجة والمفاخرة والتفرد. خير مثال على ما نبتغي طرحه أغنية فرانك سيناترا الأشهر «طريقي» My Way التي تعبّر عن الحاجة إلى الشعور بأن ثمة نفسًا راكزة وقادرة على التعبير في أفعالها، ذلك أن الرغبة الإنسانية في ترك بصمة في العالم لن يكون لها أي معنى حين تكون النفس غير راكزة ومستقرة[3].

نحتاج لنخلق علاقة فعلية بالسوسين Sosein أن نصل إلى معرفة ما الذات، وقد تكون معرفة موجعة، أو وقد توقظنا من الأوهام التي نعتز بها عن سؤال «من نكون؟» أو «من يمكن أن نكون؟». نعم، ذلك يعني أن نتقبل محدوديتانا. ولكن كما الحال في ممارسة الرياضة، غالبًا ما يتطلب تحقيق

---

(١) كارل ياسبرز، الفلسفة (المجلد الثاني، الجزء الثالث) (١٩٣٢)، وكارل ياسبرز، الطريق إلى الحكمة: مقدمة في الفلسفة (الطبعة الثانية، الفصل الثاني) (١٩٥٣).

(٢) كارل ياسبرز، علم النفس المرضي العام (١٩٩٧) ص (٨٠١).

(٣) إرنست بيكر، إنكار الموت (١٩٧٤).

أقصى حدّ نصل إليه بعد أن نحرق السفن ونتخلى عن الاحتمالات الأخرى. نحتاج إلى معرفة ما لن نكون قادرين على القيام به لنحقق أقصى إمكاناتنا[1]، وأن نتخلى عن المفاهيم المغلوطة والأوهام التي رسمناها عن أنفسنا لنفسح المجال للأدلة المتراكمة على «من نحن؟» و«كيف عشنا؟».

التقبّل الفاعل للذات

لا أبتغي من هذا النقاش افتراض أن نستسلم لنكون ما نحن عليه. يشتكي صول بيلو Saul Bellow، في كلمته في حفل تكريمه بجائزة نوبل، أن ثقافة العلاج النفسي لا تترك أي مجال للإيجابية، ووصف «مفهوم التحليل النفسي عن الشخصية» بأنه تركيبة قبيحة، وجامدة، ومدعاة للاستسلام، ولا يجدر الدعوة إلى تبنيه بكلّ فخر وسرور»[2].

يُظهر عمل بيلو كيف يمكن للتأمل الصادق أن يساعد الشخصية المعيبة على الحبّ، ونجد هذه الفكرة جلية في تحفته الروائية التي وضعته ضمن قائمة كبار الكتّاب الأمريكيين: هيرزوغ Herzog، والتي تتناول ثيمة منتصف العمر[3]؛ بحيث ينهار بطل الرواية، موسى هيرزوغ، حين ينهار زواجه. تمثل هذه المخطوطة التي تؤرخ الفكر الرومانسي تحفة فنية خلابة لم يستطع إنهاءها.

نتعرف في الرواية على هيرزوغ بكل عيوبه؛ كيف عجز مخزونه المعرفي عن إسعافه في التعامل مع مواقف الحياة الواقعية. ومع ذلك، لا يستطيع القارئ إلا الإعجاب بشخصية هيرزوغ (كذلك كانت رامونا المرأة التي تحاول جذبه إلى الحياة مجددًا؛ لأنها تجده رجلاً جذابًا ومحبوبًا). وتلك إحدى سمات الكتاب الكبار الذين يستطيعون رسم شخصيات مع مثالبها وعيوبها، ولكن تبقى إنسانيتها جلية وضّاءة. تقود الاستسلام غير الفاعل للمقيدات إلى كراهية الذات أكثر من تقبّلها، ولا أقصد مؤكدًا أن يقود إلى التحوّل.

---

(١) ويلفريد بيون، الانتباه والتفسير (١٩٦٢).

(٢) بيلو صول، كل شيء مختلط: من الماضي المظلم إلى المستقبل المجهول (١٩٩٤) ص ٩٠.

(٣) بيلو صول، هيرزوغ (١٩٦٤).

نعـــم، يحتاج التحوّل الحقيقي إلى شيء مثـــل الإدراك الميتافيزيقي لما يعنيه أن تكون حرًّا، كما أكد ياســـبرز مرّات عدّة. الحرية التي أتحدث عنها نلمســـها كثيرًا في لوحات بوتريه الفنان الهولندي رامبرانت الذي كان يرســـم نفســـه طوال حياته، وأقصد بذلك تسعين لوحة بوتريه رسمها طوال أربعة عقود. ويشير مؤرخو الفنّ[1] أن هذه البوتريهات كانت مجرد حملات تسويق دعائية لأعماله في أول جزء من حياته، ثم تحوّلت في عمر الخمســـين إلى شـــكلٍ من أشـــكال التبصّر الذاتي. هكذا شـــهد رامبرانت صعود اسمه إلى عتبة المَجد، وسقوطه بعدها، ثم اقصاءه عن المجتمع في أواخر عمره.

يصوّر رامبرانت نفسه في بوتريهاته أشعثَ وعلامات الكهولة بادية عليه، وتبرز نظرته القلقة صورة شـــخصٍ علكتـــه صعاب الحياة واخترق حجاب الأوهام، مع أن اللوحات ليســـت قاتمة ولا ســـوداوية، بل تبعث شـــعورًا بالنورانية والجمال الفتّان. نعم، لم تكن اللوحات محبطة، لكنها تثير مشـــاعر في النفس تجمع بين الغبطة، والتأمل، والتفكير.

لا يخفى أن هذه اللوحات الإبداعية تتطلب نشـــاطًا فاعلاً طويل الأمد، فقد احتاج رامبرانت إلى تأمّل نفســـه على نحو موضوعي وفوقي في كلّ مرة يرســـم لوحة؛ لأن أحد أبرز أهداف الرسم في القرن السابع عشر تحديدًا، أن يبدع الفنان ضروبًا مســـتحدثة من الجمال. وقد جمع رامبرانت في لوحاته بين شـــفافية معرفة الذات، وإدراكها مع خلق الفن الخالـــد عبر القرون بعد أن يستمر برسم أشباهه مرارًا وتكرارًا، لينفذ عبرها هويته ويثبت فنّه العظيم.

لا يعني تقبّل الذات الـــذي ترجمه رامبرانت في بوتريتاته إذعانًا غير فاعل للواقع، بل تعبيرًا فاعلاً عن قدرة العقل على رؤية هذا الفهم وفهمه وتشكيله في إبداعـــات ذات قيمة. لذا أقترح أن نطلق عليـــه مصطلح «التقبّل الفاعل للذات»، وقد أخترت كلمة «الفاعل» لســـببين متلازمين: أولاً، العقل ليس وعاء ســـلبيًا أو مرآة للواقع فحســـب، بل إنه في حاجة إلى هيكلة التمثيلات

---

(١) غاري شوارتز، رامبرانت: حياته وأعماله (١٩٨٥).

بفاعلية. وقد تسلّط عملية رسم البوتريهات الضوء على هذا الخلق المعقّد بطريقة دراماتيكية ملحوظة.

السبب الثاني لاختياري مصطلح «الفاعل» أن نتيجة التقبل الفاعل للذات لا تعني بسهولة الإذعان لما نحن عليه، بل تقبّل للدعوة الوجودية بأن نكون ما نستطيع أن نكون، ومن ثم -- كما يقترح ياسبرز - بداية التحوّل الذاتي. يتطلب ذلك القيام بالعمل الجاد الذي اختصره فريدريك نيتشه في «العلم المرح» بأنه أسلوب معطاء لشخصيتنا: لرؤية مواطن قوتنا وضعفنا بوضوح لجعل حياتنا في حالة خلق متماسك ملموس.

كارل ياسبرز، الشفافية ومعرفة الذات بوصفهما شرطان للحرية

يتطلب التقبّل الفاعل للذات أن نكون شجعانًا في أسئلتنا، وأن نواجه الإجابات حال اكتشافها داخل أنفسنا. قد تبدو الجملة وكأنها نصيحة سهلة القول، لكن من الصعب تنفيذها. دعونا نلقي نظرة على حياة الفيلسوف كارل ياسبرز الذي عانى في بداية حياته من المرض وحتمية الموت.

وُلِد ياسبرز في ١٨٨٣ لعائلة ميسورة الحال في شمال ألمانيا، وترعرع في كنف عائلة مسيحية على الطائفة البروتستانتية. كان شابًا متزنًا وسعيدًا إلى حدّ ما حتى سنّ العشرين، حين بدأ يعاني من أعراض تنفسية مستمرة. لم يكن طبيبه صريحًا ليفصح عن التشخيص، لكن ياسبرز أصرّ على معرفة ما به. وكانت الإجابة محطمة، فقد كان يعاني من مرض رئوي عضال، وثمة احتمال ليس بالقليل أن لا يعيش طويلاً، لذلك امتنع عن القيام بأي مجهود بدني أو العمل لأكثر من سبع ساعاتٍ في اليوم، وحُكم عليه أن يستلقي ساعة في اليوم لتدفئة رئتيه لعلّه يسعل المتراكمة في جسده.

لا تضمن الشخص الذي يعاني في مثل هذه السنّ من الانهيار، لكن ردّ فعل ياسبرز كان مدهشًا إلى حدّ ما: فقد فكّر في وضع خطة ليستفيد أقصى استفادة من بقية أيامه. وقد كتب في رسالة مؤثرة إلى والديه (لم يرسلها لكنها مذكورة في مذكراته) أنه ينوي عيش حياة مزدهرة طالما وجدت. ولأنه لم يعتقد أنه موهوب كفاية ليتخصّص في وظيفة علمية أو فلسفية؛ فقد قرّر

دراسة الطبّ ليفهم شيئًا مما يعانيه على أقل تقدير. ثمّ قرر دراسة الطبّ النفسي لعدم وجود تخصصّ طبّي آخر يتوافق مع مقيداته الجسمانية من جهة، ولاهتمامه الغريزي بعلم النفس من جهة أخرى. عندما شبّ إلى الثلاثين، طلب منه الناشر المرموق سبرينغر Springer أن يؤلف بنفسه كتابًا منهجيًا عن الطبّ النفسي، فنُشر في ١٩١٣، وشُهد أنه تحفة كلاسيكية فور صدوره. لقد أخذ ياسبرز على عاتقه تحديث علم النفس المرضي General Psycho-pathology قراءةً وإعادة طباعة سنويًا.

التقى ياسبرز في العشرين من عمره بشابة يهودية تدعى جيرترود ماير Gertrude Mayer التي عانت من المرض أيضًا في مرحلة مبكرة من حياتها. وقد شعر المريضان بتقارب عميق وتزوجا. أصبحت تجربة زواجها خير مثال لقدرة الحبّ والحميمية على تهدئة فورة الوحدة، والتي لعبت دورًا علاجيًا في كتاباته المستقبلية.

تميّز ياسبرز بقدرة رائعة على النظر إلى الواقع الإنساني بكلّ شفافية، مع أن مشاعره قد تكون باردة وجافة أحيانًا. تجد هذه الحقيقة المبكرة في كتاباته عن الطبّ النفسي، وكتابة السيرة عن أوغست سترينبرغ August Strindberg، ونيتشه Nietzsche، أو في أوصافه القاسية عن واقع البوندسريبوبليك الألماني Bundesrepublik بعد الحرب العالمية الثانية، كان يرى نفسه مراقبًا مخلصًا يتسامى في حقيقة الواقع الإنساني.

شعر ياسبرز بعد ١٩٢٠ للانجذاب أكثر وأكثر للفلسفة، وبدأ ينشر في هذا المجال باستفاضة وامتاع، إلى أن حصل على درجة الأستاذية من جامعة هايدلبرغ المرموقة. وكتب في أثناء هذه السنوات تحفته الفلسفية Philosophie في ثلاثة مجلدات. نعم، قد أعجز عن تلخيص كل نتاجاته هنا، لذلك سأختصر ما له علاقة بفكرة التقبّل الفاعل للذات.

حاول ياسبرز توضيح البنية الأساسية للوجود البشري. كانت تجربته مع المرض المستعصي خير تعبير للمفهوم الذي طرحه «الموقف الحدّي» bound-ary situation، والذي عرَّفه على أنه مواجهة مع حدّ صعب التجاوز نفشل

فيه بالضرورة. المواقف الحدّية الأنموذجية هي تلك المتعلقة بالمرض والموت. نعم، تواجهنا هذه المواقف الحدّية والفشل الجوهري المتأصل فيها بالمقيدات الأساسية لوجودنا. يرى ياسبرز أن الفشل الوجودي الذي يميّز المواقف الحدّية يمثل مصدر البحث الفلسفي والوعي الإنساني بالحرية.

مواجهة الموقف الحدّي في نظره ضرورة للحياة الإنسانية؛ لأن البشر يمكن أن يكتشفوا حريتهم عبر هذه المواجهة. عندما نعود إلى الفشل المتأصل في الوجود الإنساني، كما الحال في حالات المرض والاحتضار، يستطيع البشر أن يلمسوا حرية اختيار كيفية التعامل مع هذه المشاكل. والاختيار بين الحبّ والكراهية، بين مواجهة الواقع والابتعاد عنه، وبين الكرامة في مواجهة الألم والجبن في تجنبه.

هكذا حوّل ياسبرز تجربته في مواجهة الموقف الحدّي لخطر الموت والحدّ من المرض إلى أساس لفلسفة منهجية. وسرعان ما واجه مثل هذه الحدود مجددًا حين صعد النظام النازي في ألمانيا إلى دكّة الحكم، فقد أظهر شجاعة لافتة حين دافع عن زملائه اليهود في الجامعة، لذلك جرّده النظام من منصبه في ١٩٣٧. وبسبب هذا الموقف المعارض وكون زوجته يهودية الديانة، أدرك ياسبرز أنه في خطر محدق، فقرّر الفرار قبل أن تتفاقم الأمور، وأخذ معه كبسولات السيانيد تحسبًا للأخطار. نجا ياسبرز وزوجته من الهولوكوست، واختارته حكومة الولايات المتحدة بعد الحرب ليساعد في إعادة إعمار الجامعة نظرًا لسلوكه غير المتحيّز في أثناء الحرب.

لكنه شعر أنه لا يستطيع أن يفرض على زوجته العيش في بلد كان يهدّد حياتها، فقبل أن يدرّس في جامعة بازل بسويسرا. وأصبح أحد الشخصيات البارزة في عداد المفكرين الألمانيين، وأول من ناقش مسألة مسؤولية الشعب الألماني وتعامله مع ذنب الحقبة النازية. توفي ياسبرز في ١٩٦٩، عن عمر يناهز ٨٦ عامًا، بعد أن نشر ٣٤ مؤلفًا عن موضوعات لا عدّ ولا حصر لها.

على عكس كثير من الذين يشعرون بمرارة الخذلان والتجرّد من ملذات الحياة حين يواجهون الصعاب في وقتٍ مبكرٍ من حساباتهم، وجد ياسبرز

حريتــه في مواجهة هذه الصعاب، بما في ذلــك احتمالية الموت المبكر. وبدلاً من الخوف والتشكّي وإنكار الحقيقة ولعن القدر، واجه الواقع بكلّ كياسة. ووجد حريته في رســم خطّة حياة في وضع لا يريد له الحرية. وحوّل معاناته إلى أحد إنجازاته الفلســفية الغزيرة، وصار تفسيره للحرية الإنسانية مصدر إلهام للقراء.

لم يحاول ياسبرز أن يمجد معاناته، ولم يحوّل محنته إلى مصدر تفاخر أو غلو أو ميلودراما، ، بخلاف بقية الفلاســفة الوجوديين الآخرين. كان يواجهها بوصفها شرطًا لم يختره وليس له أي معنــى عميق. كان يرفض طوال حياته أن يقدم نفسه البطل المغوار؛ لأنه رفض التعاون مع النظام النازي. كلّ ما في الأمر أنه كان يســعى إلى عيش حياة كريمة في زمن مرعب، وأراد أن يعيش على وفق مبادئه.

يتعارض مبدأ ياســبرز في مواجهة المواقف الحدّية بشدّة مع روح العصر الحالي بأمله اللانهائي في حلّ كل المشــكلات الوجودية عبر الوسائل التقنية. نعم، لم يفتأ ياســبرز يمتدح ويعتز بالتقدم العلمي، لكنه يشــكّك في التوجّه العلموي، واعتقد أن لغة العلوم وممارستها قد تغيّر أو تلغي الهياكل الأساسية للوجود الإنساني. لو كان حيًّا اليوم لنظر باستغراب وفزع فيما يخصّ مقارعة الشيخوخة الحالي. نعم، لاشكّ أنه يرحب بأيّ تقدم طبّي يحسّن من متوسط العمر المتوقع، لكنه سيرفض أن التقدم العلمي يحررنا من الحاجة إلى مواجهة الفناء والموت.

كتب ياسبرز قبل عقود أن التدخل في التوارث البشري لا يتعدى أن يكون خيــالاً علميًا، لكن هذه الأفكار قد عفا عليهــا الزمن؛ لأنها تخصّ النصف الأول من القــرن العشرين. على الرغم من أن الموت مــازال أفقًا محتومًا في حياتنا، ولم تغيّر هذه الحقيقة أيّ أدوية أو مستحضرات أو جراحات تجميلية.

دانيال: أنا لا أريد أن أكون ما أنا عليه

أنا الذي خُلق على عجل، ولم يؤتَ من جمال المحبين،
ما يخطر به أمام حسناء مختالة لعوب،
أنا الذي حُرم اتساق القسمات

وزيّفت الطبيعة الخادعة بنيته،
أنا المشوّه المنقوص، الذي أرسل قبل الأوان
إلى هذا العالم النابض بالحياة، ولّما يكد يتم خلقه،
أنا الذي تنبحه الكلاب إذا وقف عليها،
لما تراه من بالغ عجزه، وغرابة هيأته،
أما أنا فلا أجد في هذا الوقت، وقت السلم،
-الذي تخفت فيه الأصوات وترق، شيئًا من المتعة أتسلى به-
إلا أن أخالس النظر إلى ظلي في ضوء الشمس؛
وأتغنى بخلقتي الشائبة.
فلأكن إذن شريرًا!
ما دمت لا أصلح للحبّ
ولا للاستمتاع بهذه الأيام الزاهرة...
شكسبير، ريتشارد الثالث، الفصل ١، المشهد ١، ١٦-٣١

جلس دانيال على الكرسي قبالتي يحدّق في ما حوله نظرة شخصٍ منفتح الآفاق. تعرّف فورًا على بعض اللوحات الموجودة على الحائط التي ورثتها من أبي، كون أبي جامعًا للوحات، ثم ألقى نظرات ممتعضة على الفوضى التي تميز غرفة الفحص. كان يرتدي ملابس لا تشوبها شائبة، أكثر رسمية بكثير مما تستحق الجلسة أن يكون[1]. كان في إجازة من وظيفته بوصفه مؤرخ أعمال فنّية، حصل على درجة الأستاذية من جامعة فرنسية مرموقة «لا أعتقد أنني أستحق هذه الشهادة حقًا. أسمح لي أن أوضح لك الأمر؛ إذا كانت الشهادات تقاس بالأرقام، فأنا الأجدر بالدور. لقد نشرتُ بحوثًا تكفي لأكون أستاذًا. ولستُ بالمحاضر البائس، وتقريبًا يستمتع طلبتي بما ألقيه من محاضرات، وأعتقد أحيانًا أنهم يتعلمون شيئًا ما».

سألتُه: «لِمَ تشعر أنك لا تستحق هذه الدرجة؟» «لم أفعل شيئًا استثنائيًا. حسنٌ، أنا أستحقها بمعنى ما. صورتي تتوافق تمامًا مع الصورة النمطية

(١) لاشكّ أنني حاولت قدر الإمكان إلى تغيير كلّ تفصيلة في شخصية العميل، مع احتفاظي بالسوسين Sosein الخاصّ به، لكنني اشترطت إضافة تفاصيل أخرى، في محاولة لإضفاء فهم ثلاثي الأبعاد للحالة.

للأستاذ الذي كتب ما يكفي من أطروحات، لكنه لم يقدم شيئًا ذا قيمة فعلية». كان يصعب تصنيف نبرة صوته، صوت غير مكترث ووقور، وكان يترك مساحة ساخرة في كلّ ما ينطق به، حتى حين يسخر من نفسه. ولا يبدو قطعًا بمظهر الشخص الذي يعاني، باستثناء نزعته الأقرب للملل والبرود.

استفسرتُ عن إمكانية مساعدته. فأجاب: «حسنٌ، ثمة مشكلة لم تفتأ تزعجني، كيف أقولها؟ أنا مهووس بخيانة زوجتي».

اعترفت له أن أسلوبه لا يتناسب مع ما تدلّ الجملة من معاناة، لعلّه يفصح عمّا يقف خلف نبرته الساخرة.

«نعم، بالتأكيد. يعتقد الأطباء النفسيون أنك حين لا تعبّر عن مشاعرك فلن تكون صادقًا. تريد مني أن أعبّر عن أحزاني أو عن غضبي إن أردنا الدقة. وتستشعر وقتذاك أننا فعلاً على توافق. ما المشاعر التي لو أظهرتها تسعدك يا دكتور؟ أوه.. آسف، يا أستاذ..!».

ترعرع دانيال في كنف أسرة فرنسية متوسطة الدخل ذات طموحات اجتماعية. لكن والده، الذي عمل محاميًا، لم يكسب مالاً كافيًا يمكنه من الانتماء إلى الطبقة البرجوازية، وفشل في تحقيق طموحه الحالم. لكنه بقي يتصرف مع زوجته، مع شحّة المال، على غرار من يجمع بين التحذلق والخيلاء الثقافية. هكذا تربى دانيال وأخته على التمنطق باللغة الثقافية المرموقة، وأن لا يتنازل في حديثه إزاء الأشخاص الأقل ذوقًا. وكان الأب يخضع أولاده لاختبارات مفاجئة دورية ليجيبوا عن أسئلة عن مقطوعات من موسيقا الكلاسيك أو لوحات من عصر النهضة أو أخرى انطباعية. يذكر دانيال كيف كان يخاف أن لا يعترف على أحد الأعمال، أو يخطئ باسمٍ ما، وكان يتنافس مع أخته على سرعة الإجابات الصحيحة.

لم يكن يفترض به أن يحبّ القيام بالأمور «العادية» مثل لعب كرة القدم، لذلك علّم نفسه مبكرًا ألا يحبّ ما لا يفترض أن يحبّه. تذكّر بعض اللحظات حين كان يرغب فيها أن يستمتع مثل بقية الأطفال الآخرين في المدرسة، لكنها كانت محض لحظات عابرة، ثم يعود بعدها إلى حياة التحذلق والخيلاء

«حتى تسريحة شعري كانت تذكرني بأي طفل أرستقراطي من القرن التاسع عشر... هل قرأت مذكرات سارتر (الكلمات)، سيرته الذاتية؟ حسنٌ، بالطبع قرأتها. هل تذكر كيف أدرك سارتر مبكرًا أن والدته ستنتشي لو علمت أنه كتب شيئًا ما. هكذا صار كاتبًا لا لشيء إلا ليكسب انتباه والدته. حسنٌ، هذه عين قصتي. لقد افتتنوا بمخيلتي الثقافية. وإلا ما الشيء الأفضل من أن أكون مؤرخًا للفنّ؟ الاختلاف الوحيد أنني على عكس سارتر كنت أرضي كلا والديّ. أعتقد أنني لو صرت مثليًا، لافتتنا بالفكرة؛ لأنها تلائم وجهة نظرهم عن التحذلق الفكري. لكنني لسوء الحظ لم أستطع تحقيق هذا الجزء من مخيلتهم. وإن الجنس، على ما يبدو، يحدّده البيولوجيا أكثر من أي شيء آخر، لذلك تستهويني النساء بكلّ الأحوال».

كان مظهر دانيال مرغوبًا لدى النساء إلى حدّ ما؛ طويل القدّ نحيفاً مقسم العضلات، حاول أن ينجح بقصته مع امرأه واحدة، لكنه تغير في عمر الثلاثين وراح يقفز من علاقة إلى علاقة، مع حرص دائم على عدم المساس بمشاعره مع أيّ من هذه النساء. لكن ذلك لم ينطبق على زوجته، إذ لم تكن جميلة وذكية فحسب، بل كانت رقيقة لطيفة مراعية. فضلاً عن أنها تنتمي إلى أسرة ثرية. لقد لمست في داخله شيئًا، ويبدو أنها استطاعت على تحريره من واجهته الزائفة، وسرعان ما تزوجها.

«لطالما تساءلت أنني بقدر ما باستطاعتي الحبّ، فأنا أحبها. لكن تنتابني فكرة أحيانًا بأنني تزوجتها لأن ذلك ما يفترض به أن يكون. فعلى كلّ حال، الأمر الوحيد الذي لم فشل والداي في تحقيقه أن يجعلوا منّا أغنياء. لكن زواجي من ماري، نقلني فورًا إلى قصر بهيج في أفضل أحياء باريس؟ جهزناه بأجمل الأثاث وأروع الديكورات. وبعد مدة وجيزة حصلت على التقدير الجامعي، هكذا اكتملت الصورة. لقد أصبحنا زوجين مثاليين، واكتملت الصورة أكثر حين رزقنا بطفلين رائعين».

سألته عما كان يتوقعه من زيارتي؟ ولماذا اختار المجيء لرؤيتي على وجه الخصوص؟ فأجاب: «كنت أعمل منذ مدّة على لوحة لبيكاسو، وأخبرني

زميلي أن لديك تحليلاً مشوّقًا لدوافع الفنان الدفينة في أحد كتبك. وبصريح العبارة، وجدتُ تحليلك متكلفاً وغير أصيل، إلا أنك تتمتع بالصوابية لتعترف أن ما كتبت يستند إلى عمل آخرين. وعندما صادفت ما كتبت وجدت فيك شخصًا يحبّ الاستمالة والتضليل. لا أتوقع كثيرًا من مجيئي إليك مؤكدًا. أحتاج أن أعود إلى باريس بعد بضعة شهور، ولا أظن أن بإمكاننا فعل كثير في هذا الصدد».

أشعرني دانيال بالتشتّت، فقد كان يروي حكايته بذات النبرة الملولة المختفية خلف رداء السخرية. كان يقول إن حكايتي أشبه بحكاية محتال ذكي، وواجهة خدّاعة، وقراقوزًا مغلّفًا داخل شخصية، لكنه يتقن الدور بذكاء في حياته المهنية مرورًا بزواجه. فكرتُ مليًا في أمر هذا الرجل الذي يعيش في جحيم. فهمت تحديدًا ما يعني حين أحال قصته إلى سيرة سارتر، يذكر سارتر في سيرته «كلمات» Les Mots أنه حين كان طفلاً، كان ينطق الكلمات بطريقة خاصّة، لا لشيء إلا ليرضي أمه، واستنتج حين صار في الأربعينيات أن كلّ هذا التمنطق ليس إلا حيلة. لقد استطاع دانيال أن يؤثر فيّ عبر روايته مع الفجوة الخدّاعة في الحديث التي كان يرويها منها.

لكن هل أستطيع مساعدته مع هذا الوقت اليسير الذي تبقى بيننا؟ الأمر يستحق المحاولة. ظلّ دانيال يراجع دوريًا ليشاركني ازدراءه وكراهيته لنفسه «لقد تحوّلت مع الوقت إلى كلب البودل الأشعث الذي يحتار مقتنوه في تشكيل تسريحات سخيفة به، إلى حيوان استعراضي مدرّب للشحاذة يستجدي المكافآت كي يطعمونه! هل هذه حقيقتي؟ هل هكذا يعاملونني؟ هل هكذا أصبحت؟ الأدهى أنني صرت كلب البودل بملء إرادتي. تعلمت الحيل وتطبيقها بكلّ إتقان يومًا بعد يوم، ثم يصفقون لي فأهرع إلى العرض الذي يتبعه، ألست أشبه العاهرة في هذا الحال قليلاً؟».

«هل تعتقد أن مصطلح (أجير المتعة) يناسب ما تعنيه؟».

صمت برهة ثم ابتسم ابتسامة صفراء وقال: «ذلك أفضل شيء نطقت به يا أستاذ حتى الآن. ذلك بالضبط ما أنا عليه»، وأردف: «أنا رجل محافظ في

نهاية المطاف، ولم يسعني المحافظة على أسلوب حياتي إلا مع مضاجعة المرأة التي تحتفظ بي».

صمتنا لبرهة من الوقت، وغصت بنا الجملة الأخيرة.

ثم طرقت بالي فكرة وقلت: «إذا كان المصطلح صحيحًا، أليس من المفارقة أن تستمر في مضاجعة النساء الأخريات مجانًا؟».

رفع دانيال حاجبيه ورمقني بنظرة لم أعهدها فيه من قبل. بدا مرتبكًا ومرتاحًا في الوقت نفسه: «لم أخبرك بذلك، لكنني أتأكد من أنهن لن يحصلن على قيمة ما لم يدفعنه. لذلك أعمد مع النساء الأخريات أن أكون عشيقًا سيئًا كي أحصل على ما أريد، ولا أكترث أاستمعن أم لا؟ ربما تكون مغامراتي الطائشة هذه الشيء الوحيد الذي أفعله من دون أن أكون قراقوزًا». ثم أردف: «وقد يكون ذلك السبب الذي يمنعني من التوقف عن الخيانة، أرتضي أن أكون كلبًا سيئًا يمتطي الإناث على أن أكون مجرد كلب بودل تافه».

بات نمطه الوجودي الآن أكثر جلاءً؛ لأنه استبصر حقيقة أنه ضحية اغتصاب إرادية، شخص ضحى بكل براءته ليحصل على تصفيق والديه، وتحوّل ذلك إلى أسلوب حياة، لكنه تخيّل أن باستطاعته التحوّل الكلّي يومًا ما. ذكر لي وهو يمزح في إحدى الجلسات: «يجب أن أرتدي حذاء نايكي الرياضي و(افعلها فحسب)؛ أكون شخصًا مختلفًا فحسب». بينما لم يؤمن فعلاً بهذه الفكرة، لكنه تساءل والغصّة في حنجرته عمّا إذا كانت قصص التحوّل العجيب التي يقرأ عنها في الجرائد صحيحة، وما إذا كان بالإمكان أن يطولها أيضًا.

مع تقادم الجلسات، تبدلت طريقة تواصله معي أيضًا، فلم يعد يلعب دور الشخص اللعوب أو أجير المتعة. وقال في إحدى الجلسات: «عليك أن تكون راضيًا بمنجزك حتى الآن، لقد نجحت في فكّ أقفالي. مع أنني لست متأكدًا من نتيجة ما نقوم به، فلا أدري صراحة ماذا أفعل بنفسي الآن. أبلغ من العمر ٤٨ عامًا، ولم أعش لحظة حقيقية واحدة في حياتي كلّها، ولا أعرف شيئًا آخر، ولا لدي مكان آخر أذهب إليه».

أجبته: «أقبل التحدّي، سأخبرك بما أفكر به. مع تشكّكي في أن ما أقوم به صحيحًا. كان المحلل النفسي البريطاني دونالد وينيكوت يقول: «قد تكون الذات الزائفة أحيانًا هي مآل الذات الحقيقية لو ظهرت في الصدارة». يشغلني السؤال عمّا إذا كانت هذه ليست حكايتك، وأنك تهوى تاريخ الفنّ فعلاً، مع أنك اكتسبت هذا الهواية لأسباب خاطئة، وبذات الطريقة الخاطئة التي اكتسب بها سارتر مهنة الكتابة، ولكن ألم يكن كاتبًا عظيمًا؟ أو لم يكن موزارت أحد أعظم الموسيقيين الذين أنجبتهم البشرية مع أن والده أجبره على ذلك في طفولته الأولى؟ ألا يحتمل أنك تحبّ زوجتك، حتى لو كنت مشكّكًا أنك تزوجتها لأسباب خاطئة؟».

بدا الحوار مع دانيال مثمرًا، لكن الوقت أزف بالانتهاء، فأعرب عن قلقه من ذلك وقال: «مازلت أشعر أنني عشت حياة قواد أو كلب البودل أو أجير المتعة. أنا لست الشخص الذي أود أن أكونه. نعم، لقد دفعني والديّ في اتجاه معين. لكن لو كانت شخصيتي أقوى، لقاومت، في الطفولة أو في أي عمر لاحق، لكنني لم أفعل ذلك. أنا لست شخصًا قويًا، لذلك أخترت الطريق الأسهل».

«لا أستطيع تغيير سيرة حياتي، فلا أستطيع محوها ولا أن أدّعي أنها قصة نجاح. أنتم الأطباء النفسيون تعتقدون أن ثمة زرًّا تضغط عليه فيتغير الإنسان، أنا لا أؤمن بذلك. هل تراك تظنّ أن بعد هذا الحديث أشعر بالرضا عن نفسي؟ هل تظن أن حديثك يريحني؟ أو أن أحب نفسي وحياتي؟ هل تعتقد أن الأمر بهذه السهولة؟».

يبدو أننا علقنا في هذه المرحلة، فقد كانت وجهة نظره سديدة. وبينما بدا افتراضي منطقيًا له، لم أستطع تغيير شعوره حيال حياته. نعم، قد تكون اختياراته مناسبة لانفعاله ومزاجه وطباعه. لكن هذه الاختيارات استهدفت إرضاء والديه. لذلك كره نفسه وحياته، ووصلنا إلى نتيجة في التحليل النفسي النهائي أن هذه الكراهية كانت مشكلته الحقيقية. لم يتبقَ لدينا وقت للحديث سوى بضع جلسات، وكان دانيال على وشك السفر. فكرت مليًا

قبل الجلسة الآتية، وقرّرت أن آخذ اعتراضه على محمل الجدّ. لذلك بدأت الجلسة التي أعقبتها بالحديث:

فكرتُ مليًا فيما تفضلت به المرّة السابقة، ووصلت إلى استنتاج أنني أتفق مع كثير مما قلته. إن المنظور الذي اقترحته على حياتك لا يستطيع تغييرك في حدّ ذاته. اسمح لي أن أوضح أنني لم أكن ولن أحاول تسويق سلعة رخيصة لك. ولا أحاول أيضًا إعادة كتابة تاريخك. لقد أدركت ما تعني حين اتهمت نفسك بأنك كنت ضحية إذعان وإمتاع، حتى لو كانت اختياراتك تناسب قدراتك ومزاجك.

أدرك أيضًا ارتباطك بسارتر. نعم، وفقاً لاصطلاحات سارتر، فإنك اتخذت قرارًا أصيلاً. لقد اخترت أن تكون الابن المثقف الذي تمناه والداه ونجحت في ذلك. سؤالي لك: «هل تعتقد أن كره الذات الذي يفترضه سارتر يمثل الطريقة الوحيدة للتعامل مع الحياة؟» ألا يمكن أن نتعامل مع خيارات حياتنا ببعض الفكاهة مثلاً؟ ألا يعني التوقّع بأن داخل نصف كل خيارٍ ثمة أمر غير واقعي في أعماق كياننا؟ ألا يمكن أن نضحك على حال الإنسان بدلاً من أن نكرهه؟ لا تعبأ بإمكانية المضي قدمًا والشعور بالحميمية تجاه نفسك والآخرين... هل الكره والبغيضة برأيك الطريق الوحيد للتعامل مع هذا الأمر؟ إن كان ذلك اختيار، أعتقد أن الواجب تحمّل المسؤولية. خلاصة القول، ومع أننا ندرك موقفك الوجودي تجاه حياتك، فذلك لا يعني أن بالإمكان تغييره، أو أنه سيتغير حين ندركه. ولا مناص من أنك يا دانيال مجبر على الاختيار؛ هذه مسؤوليتك وحدك. يمكنني أن أكون معك للتناقش وتبادل الأفكار؟ لكن الخيار يقع على كاهلك وحدك[1].

كان دانيال يصغي بكل جوارحه، وبقي صامتًا بعد انتهائي من الحديث برهة من الزمن. ثم ابتسم وقال: «أحببت هذه منك كثيرًا أستاذ، تقول إنك ساعدتني في اجتياز هذه المسافة. وبمجرد أننا حددنا المكان الذي أقف عليه،

(١) نجد هذا النوع من التواصل مع المريض لغرض المسؤولية الوجودية مشروحًا باستفاضة في الجزء الثاني من كتاب إيرفين يالوم، العلاج النفسي الوجودي (١٩٨٠).

تقول إن الباقي يقع على عاتقي. ياللبؤس! وصلنا إلى اللحظة الحاسمة قبل أن ننهي الجلسات. وبات الأمر متروكاً لي على أي حال. إذن أودّ إضافة شيء يهمني أن تدركه الآن؛ أنت تقول إننا يجب أن نتقبل أنفسنا كما نحن، لكن تقبّل أنفسنا كما نحن يفتح إمكانية أن نكون ما يمكننا أن نكونه، ما تمنينا أن نكونه؛ وطالما أننا نمقت ما نحن عليه، فالتحوّل غير ممكن بكلّ يسر».

وانتهت الجلسات، لكنني بقيت على تواصل متقطع به في العامين اللذين أعقبا هذه الجلسات، تحادثنا أحيانًا عبر الهاتف، وأحيانًا يتصادف وجودنا في المدينة نفسها في الوقت نفسه فنلتقي مرة أو مرتين وهكذا.

لكن عملية التحوّل التي طرأت على دانيال في أثناء هذين العامين استثنائية. ظلّ يعاني من اكتئاب طفيف في بادئ الأيام، وكان كلّ شيء يبدو باهتًا وبلا غاية، طلبت منه أن يتحدث عن مشاعره إلى زوجته. وبالفعل استطاع أن يتحدث معها بعد زواج دام ١٥ عامًا، ويفصح عن شعور كونه شخصًا مزيفًا وزوجًا سيئًا. ولدهشته أجابت زوجته أنها تعرف ما في داخله، وأنها تعرف نقاط ضعف شخصيته منذ البداية. «أنا أحبّك أنت فحسب، مع أن هذا الأمر اليسير عسيرٌ عليك تصديقه».

صُدم دانيال حين سمع كلمات زوجته، واستغرق الأمر أشهرًا قبل أن يقتنع به، وأكثر من ذلك ليدرك أنه يبادلها الحبّ والامتنان، مع أنه لا يعدّ نفسه قادرًا على الحبّ الحقيقي. لقد غيّرت هذه الحادثة نظرته عن الزواج تمامًا. ولم يعد يشعر نفسه بأنه كلب البودل أو أجير المتعة أو الاستغلالي الذي تزوج للمنفعة المادّية أو إرضاءً لوالديه. لم يعد يجد الأمر مجديًا أن يكرّه نفسه بالزواج. وهكذا توقف عن مضاجعة نساء أخريات.

انتقل دانيال بعد أكثر من عام إلى مرحلة أخرى؛ فقد كان يدرّس المادة نفسها لسنوات مضت، لكنه طلب الآن من القسم التدريسي أن يعيد هيكلته ليدرّس موادًا جديدة. أمضى الصيف في إعدادها بعناية. ولأول مرّة في حياته، كان يراجع المحاضرات، ويدقق في كلّ مصطلح، وكلّ مفهوم، ويتأكد من وصول المعلومة للطلبة كما يقصدها. عاد دانيال يكتشف متعة

طرقٍ جديدة في ما كان يعيشه سلفًا. وأدرك بحلول نهاية الصيف أنه اخترع مفهوماً تدريسياً جديداً في مجاله، وبدأ في تدوين الملاحظات للشروع في تأليف كتاب. وبعد ذلك بعامين، أرسل لي نسخة من الكتاب الذي أشيد به بأنه سابقة كبيرة في مجال عمله.

مفارقات معرفة الذات: الألم والتحرّر

اعتاد المحلل النفسي البريطاني ويلفريد بيون Wilfred Bion على تكرار أن عملية النضوج النفسي تسهم في زيادة القدرة على تحمل الألم النفسي[1]. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تحمّل بعض الصحة، لكنها تبدو لي نصف الحقيقة فقط. اسمحوا لي أن شرح ما أروم عبر هذه المقاربة؛ إننا عندما نمارس التمارين الرياضية، نضبط كيفية شدّ العضلات، هذه من البدهيات التي يتعلمها كلّ من يمارس الرياضة. عندما نقوم بشدّ العضلات، نصل إلى نقطة الألم؛ وإذا ما ترددنا، لن تتمدّد العضلات. وإذا ما أجبرنا أنفسنا على تجاوز الحدود، تبدأ أجسامنا بالعمل العكسي وتستنفر دفاعاتها خوفًا من الإصابة وتعيق الحركة، لينتهي بنا الأمر مع آلام الظهر وغيرها من الأعراض التي يعيق فيها الجسم نفسه.

تكون عملية شدّ العضلات ومدّها مثمرة حين نتمكن من تحمل الألم بكياسة، ونعطي العضلات الوقت للتوسّع تدريجيًا. فلا تكون نتيجة شدّ العضلات ألمًا فحسب، بل سيشعر الجسد بأنه أخف وزنًا وأكثر رشاقة. وإذا واصلنا تمارين الشدّ والمدّ باستمرار، تزداد الصحّة مع الوقت. ونصبح قادرين على التحرك بطرق لم تكن ممكنة قبلاً. لا يعدّ تحمل الألم هدفًا في حدّ ذاته، الهدف أن نضمن الصحّة ونزيد من الصوابية البدنية.

لم تكن نظرة دانيال لنفسه عبارة عن معرفة حقيقية بالذات، كانت أقرب إلى محاولة لشدّ العضلات ومدّها بعنف، وذلك تمرين عقيم إلى حدّ ما. لذلك بدلاً من أن تزيد من مرونته زادت من شلّ حركته، وظلّ عالقًا في وضع من آلام الظهر الوجودية، إن جاز التعبير، إذ انغمس في تخيلات لتحوّل تامّ لم

(١) ويلفريد بيون، التعلّم من الخبرات (١٩٦١).

يكن يؤمن به حقًا. وكلما غزته ذكريات عن نزواته الجنسية والطريقة التي شكّل بها نفسه إرضاءً لوالديه، عاد إلى جادّة الكره الأعمى لذاته. كان يرى جانبًا واحدًا من شخصيته وأعمى عن رؤية أي شيء آخر. كان يرى النزوات ولا يرى القدرة على الحبّ. لذلك عدّ حبّه لزوجته ومهنته تعبيرًا عن ضعفه.

لم يكن يتحمل أن يقوم بالغوص النفسي الذي أخذه ياسبرز على عاتقه طوال حياته، فلم يرَ ياسبرز مقيّداته على أنها هبة قطعًا، بل إن ذلك ما كان بين يديه[1]. يبدو أن ياسبرز يمتاز بقدرة استثنائية على تحمّل الألم النفسي من دون أن يتشوه واقعه. فقد وجد في حياته وفلسفاته الحرية بالمعنى الذي سهّل عليه التعامل مع المواقف الحدّية.

تعلّم ياسبرز من ألمه الوجودي أن يتحمل مقيداته. هكذا تحوّلت معاناته من مجرد حقيقة قاسية إلى مصدر للاستبصار، في حين لم يستطع دانيال أن يحوّل هذا الألم إلى معنى. لم يستطع دانيال، بخلاف ياسبرز، أن يقول «لقد كنت منغمسًا بالملذات بالفعل، لكنني محظوظ للانحناء في اتجاه يسمح لي بمعرفة دواخلي ومواهبي الحقيقية. وعلى الرغم من أنني لا أحب كيف آلت إليه الأمور، لكن ما زلت أفتخر بنتائج هذه العملية. لقد أعماني الألم والكراهية، ولم أتجاوز هذه المرحلة إلا بعد سنوات من الرحلة العلاجية».

*****

من واقع خبرتي أرى أن العملية التي اختبرها دانيال ليست فريدة بكلّ الأحوال[2]. والخطوة الحاسمة تتمثل في التقبّل لتصبح مؤلف قصة حياتك عليك أن تتقبل أنك لم تختار المواد الأساسية لما أنت، ولا يمكنك اختيار ترتيبها إلا بعد رؤية واضحة لقوتك ونقاط ضعفك، ذلك بالضبط ما كان يقصده نيتشه. إن هذه العملية، مثل شدّ العضلات، يتخللها كثير من الألم وتحتاج منك الانضباط. سنحاول في الفصل القادم أن نذكر ما يتطلبه هذا النوع من التقبّل الفاعل للذات.

(١) هانز سانر، كارل ياسبرز: في الشهادات والوثائق المصورة (٢٠٠٥).
(٢) لقد طرحت سلفًا مثل هذه الأمثلة في كارلو سترينجر، الفردانية: المشروع المستحيل (١٩٩٨).

الفصل السادس

العودة بالحياة إلى الأساسيات
ماذا يقترح أبيقور؟

يعيش أعضاء الطبقة المعولمة في قلق جلل بسبب الشكل الذي يفترض أن تبدو عليه حياتهم. تولّد هذا القلق من أسطورة قديمة ومخيفة مفادها أن لابدّ للشخص في عمر الثلاثين أن يلمس بوضوح ما الشكل الذي يجدر أن تبدو عليه إنجازاته، ولابدّ في عمر الأربعين أن يدرك أن الذي لم يستطع تحقيقه، لن يحققه بعد الآن. فما أن تنطفئ شمعة الأربعين، تنحدر مؤشرات النجاح نزولاً إلى الأسفل.

ولكن مجددًا يفترض بك أن «تفعلها فحسب». وإلا ما المانع من أن «تفعلها فحسب» بعد الأربعين، أو حتى بعد الخمسين؟ لقد أظهرت بعض أبحاث الفسيولوجيا العصبية أن الأشخاص ذوي العقول النشطة في النصف الأول من حياتهم، يتمتعون بأدمغة مرنة وسهلة التكيّف ومطواعة بحيث تخزن معارف تجريبية واسعة.

ولكن هنا تأتي المفارقة: لقد ارتفع متوسط العمر المتوقع كثيرًا في القرن الماضي، بحيث يستطيع أبناء الأربعين اليوم أن يتوقعوا عمرًا أكثر مما عاشوه فعلاً. وقد يعادل ذلك كفّة الخوف من نفاد الوقت. لكن أبناء الأربعين واقعًا

يشــعرون أن الوقت يمرّ من بين أيديهم، وحين يصلون إلى عمر الخمسين، يشعرون أن بقية حياتهم ليست سوى عملية تقهقر تدريجية.

وظيفيًا، يشــعر هؤلاء أنهــم لن يحققوا شــيئًا لم يقوموا بــه حتى الآن. وشــخصيًا، لا يتطلعون إلى أي شيء جديد. ورياضيًا، لا يجدون أنفســهم بالكفاءة التي كانوا عليها، فقد باتت حركتهم أبطأ (وقد يحتاجون إلى تبديل الركبة)؛ ولم تعد لعبة التنس تخصهم كما كانت، ولا التزلج على الجليد، وغير ذلك كثير.

أما الشــبح الذي يطاردنا جميعًا: عندما نتخطى الثلاثــين، تبدأ قيمتنا في سوق الجاذبية الجنسية بالانخفاض، ولا ينتهي هذا الخوف إلا بالموت فقط. بينما يمكننا أن نحلم بإنجازات وظيفية أســمى، لا يتوقع أي شخص سوي العقل أن يتمتع بالصوابية البدنية والجاذبية الجنسية التي كانت في العشرينات مرة أخرى. ليســت هذه المشــكلة حديثة العهد طبعًا؛ كلّ الثقافات في كلّ العصور عرفوا أن منبع الشــباب لا يدوم والشــيخوخة بالمرصاد. لكنْ ثمة شيء قد تغيّر؛ كان للتقاليد دورٌ للذين في منتصف العمر وكبار السنّ، وكان للجيل الذي أنهى دورة الخصوبة دور اجتماعي لا بأس به. إذ يتســلّم هؤلاء دور حفظة التقاليد والأعــراف والثقافة، وكانوا يلتزمون الحكمة التي يجب نقلها إلى الشباب.

نجد أقوالاً مأثورة في ثقافتنا في هذا الصدد مثل «للعمر قدره»، أو «حكمة الســنين» أو ما شابه، ولكن كيف يستطيع كبار السنّ أن يسهموا بحكمتهم، مــع جهلهم بمهــارات الحوســبة الحديثــة، وعماهم عن عمل الأســواق المعاصرة، بل إنهم بالكاد يعرفــون أذواق جيلهم. نعم، لا ينطبق هذا الحال عــلى الكل؛ فــما زال وارن بافيــت Warren Buffett وجورج ســوروس George Soros الســبعينين يديــرون عجلة الأســواق المالية، لكن هؤلاء اســتثناء وليســوا بالقاعدة. لكن بغض النظر عن الخرافــات؛ إن النصف الثاني من العمر يحمل معه إنجــازات أضمن وطاقات أكثر. عندما نتحدث عن المناصب ذات المســؤوليات، مازلنا نبحث عن ذوي الخبرة. خذ أوباما

مثلاً، بكل مقوماته وجاذبيته، يبدو في أدنى الطيف حتى في نظر الذين أيّدوا توجهاته. إن متوسط عمر الرؤساء التنفيذيين للشركات الرائدة يدور حول الخمسينات، وأغلب المناصب العسكرية العليا لا تبدأ قبل الخمسين.

هل يمكن أن يحقق البشر إنجازات جديدة لإيجاد معنى جديد يستحق في مراحل متقدمة من العمر؟ أو إن الخيارات التي اتخذناها في العشرين كُتبت علينا بقية حياتنا؟

يهدف هذا الفصل أن نبيّن أن المعنى الجديد الذي يستحق يمكن خلقه في جميع مراحل الحياة. لكن ذلك لا يمنع من وجود شرط أن هذا المعنى لا يعكس أسطورة «افعلها فحسب» إطلاقًا. سأعرض مجموعة من الأمثلة التي تحاكي التغيّرات التطوّرية أكثر من حالات إعادة ابتكار الذات.

واحدة من أكثر الأمثلة تأثيرًا حياة المحلل النفسي إليوت جاك Elliot Jacques. ومن المفارقات أن هذا الرجل قدّم الورقة البحثية «الموت وأزمة منتصف العمر»[١] التي تناولت فكرة أزمة منتصف العمر والتي نعدها أمرًا مفروغاً منه الآن[٢].

كان جاك في ٤٨ من العمر حين نشر الورقة البحثية مفترضًا أن حلّ أزمة منتصف العمر يتمثل في تقبّل الفناء. تعتمد أطروحة جاك أساسًا على تحليل حياة العشرات من الفنانين، ويبدو أنه لاحظ تطورًا رهيبًا فيهم حين بلغوا منتصف العمر. فقد تبدلت نظرتهم البهيجة والمتفائلة للحياة إلى ما أطلق عليه بـ«الإبداع المنحوت» sculpted creativity. لقد فسّر هذا التحوّل على أنه انعكاس لدمج الوعي بالفناء في داخل أنفسهم وإبداعهم، ونتج عن ذلك أعمال خريفية، وقاتمة، وذات واقعية أعمق وأكثر معنى.

---

(١) إيليوت جاك (١٩٦٥). الموت وأزمة منتصف العمر Death and the midlife crisis. المجلة الدولية للتحليل النفسي، العدد ٤٦، صفحة ٥٠٢-٥١٤.

(٢) وضّح إيرفين يالوم مؤخرًا (٢٠٠٨) ثيمة تقبّل الموت بوصفه أحد الجوانب الأساسية للنضج النفسي في كتاب التحديق في الشمس: التغلب على رعب الموت Staring into the sun: Overcoming the terror of death. إذ قام سلفًا بالتحقيق أيضًا في الديناميكية النفسية لإنكار الموت وتقبله (١٩٨٠) في كتاب العلاج النفسي الوجودي Existential psychotherapy (الجزء الأول).

شرع جاك بعد هــذا البحث في مغامرة فكرية حولتــه إلى أحد المفكرين الرائدين في مجال التطوير المؤسساتي. ونشر اثني عشر كتابًا آخر، وأسس مع زوجته كاثرين كاسون Kathryn Cason مؤسسة متخصصة في نشر أفكاره والتعامل مع المنظمات الربحية وغــير الربحية الكبرى. توفي جاك في ٢٠٠٣ عن عمر يناهز ٨٧ عامًا، بعد مدة من نشر أحد أكثر مؤلفاته طموحًا[1].

مــن الجميل أن نعترف أن حياة جاك تدحــض نظريته عن أزمة منتصف العمر وفتورها. لقد مرّ جاك بطفرة إبداع جبارة في النصف الثاني من عمره، ولم تــأتِ أُكُلها إلا في مرحلة متقدمة حين ألّف كتاب «المؤسســة الضرورة» وكتاب «الســلطة الاجتماعية والإدارة التنفيذيــة»[2]؛ لأننا لا نرى في حياته اللاحقة دلالات على تقبّــل الفناء. مع أنني أعتقد أن مثل هذا الاســتنتاج ســطحي جدًا؛ لأن تحديــد جاك لأزمــة منتصف العمر في عمر الخمســة والثلاثين لا يتناســب مع المفهوم الحالي الذي يعدّ فيــه منتصف العمر مدة تمتد تقريبًا بين عقدي الأربعين والستين. السؤال الذي يطرح نفسه: هل ثمة محددات نفسية تزيد من احتمالية أن تكون التغيرات الوظيفية مثمرة وتدفع إلى الاكتفاء بالحياة عمومًا والعمل على وجه الخصوص؟

ما بين إنكار الموت والتقبّل

إذا أردنا أن نفهم الذعر الوجودي الذي يطال الطبقة المعولمة هذه الأيام. علينا معالجة الموضوع الرئيس في علم النفس الوجودي الحديث وتعاملنا مع الموت والفناء. من ناحية ما زلتُ أعتقد أن ثمة شيئًا صائبًا في فرضية جاك بأن مواجهة الفناء واحدة من أهم المهام التطوّرية في منتصف العمر. ومن ناحية

---

(١) انظر جاك إيليوت (٢٠٠٣) نظرة عامة في حياة الكائنات الحية وسلوكياتها The life and behavior of living organisms: A general theory.

(٢) إيليوت جاك (١٩٩٧) المؤسسة الضرورة: النظام الشامل للمؤسسة الإدارية الفاعلة والقيادة الإدارية في القرن الواحد والعشرين Requisite organization: Total system for effective managerial organization and managerial leadership for the ٢١st century.
وجاك إيليوت (٢٠٠٢). السلطة الاجتماعية والإدارة التنفيذية: القيادة والثقة في منظومة مؤسساتية حرة مستدامة Social power and the CEO: Leadership and trust in a sustainable free enterprise system.

أخرى، أجــد أن أي نقاش عن الوعي وتقبّل الفناء يجب أن يحال إلى فرضية إرنست بيكر بأن إنكار الموت من أعمق الدوافع لدى الجنس البشري، وأحد أشــكال هذا الإنكار تتمثل في ما أطلق عليه بيكر «الموقف البطولي» heroic attitude. أي إننا نحاول ابتكار أعمال من شأنها أن تخلدنا، أو تضمن لنا أن نكون جزءًا من مجموعة ناجية من الموت على أقل تقدير.

كيف نســتطيع ربط فرضية جاك عن تقبّــل الفناء في أزمة منتصف العمر بفرضية بيكر بأن الطبيعة البشريــة، بمعناها الأعمق، لا تتوافق مع الإدراك الواعي لموتنا؟ ربما على قدر استطاعتي أن أمدّ جسرًا بين هاتين الأطروحتين بطريقة ديالكتيكية.

وكما جادلت في المــاضي، تتمتع النفس البشرية بصميم تخيّلي يرفض تقبّل أن العالم لا يتناسب مع أعمق احتياجاتنا ورغباتنا.

على الرغم من الاســتحالة الميتافيزيقية أن يكون أي منا غير ما نحن عليه، لكننا نستطيع التضادّ مع ما نحن عليه، أو الانفصال عن أجسادنا وعائلاتنا وســيرنا الذاتية. يمكننا أن نتخيل أنفسنا مختلفين تمامًا عما نحن عليه. لنشعر بالنتيجــة أن ثمــة ذات داخلية، وأن «الأنــا» الأكثر أهمية لنــا واحدة من الخصائص العرضية للولادة والتاريخ التي تحدّد مصائرنا الحقيقية.

هــذا الخلق التخيّلي للذات والمخفي عن العالم الخارجي والذي لا يمسّــه مصير الجسد أحد الاستراتيجيات الأنموذجية لما أطلقُ عليه اسم «الاحتجاج الأنطولوجــي للذاتويــة» ontological protest of subjectivity... إننا نســتطيع رفض ما نحن عليه ظاهريًا حين نقول: «لدينا القوّة والحرية لفهم أنفسنا والواقع الخارجي على وفق رغباتنا». يمكن تجسيد استراتيجية الطرد المركــزي في المرويات والحكايات الفلكلورية للتحــوّل من الفقر إلى الثراء، ومن الوهن إلى نحت العضلات، ومن القميء إلى الفنان الشهير[1].

---

(١) انظر كارلو سترينجر. الفردانية: المشروع المستحيل Individuality. the impossible project (صفحة ٦).

يتوافق مفهوم الاحتجاج الأنطولوجي للذاتوية مع أطروحة إنكار الموت التي يتبناها بيكر. يفترض المحلـــل النفسي البريطاني دونالد وينيكوت[1] أن النفـــس البشرية لا تتقبّل أن العالم خارج ســـيطرتها، أو تحكمه قوانين خارج ســـيطرتها. لذلك تحتج النفس البشرية، وفقًا لبيكر، على المحدودية والزمنية المؤقتة، ولأننا نســـتطيع تخيّـــل أن العالم قد يكون مختلفًـــا؛ فإننا نخلق عوالم جديدة في العلوم والتكنولوجيا والسياسة والفنون.

نعود إلى أطروحة جاك؛ تظهر التجربة أن ثمة تخوّفًا عظيمًا من تقبّل الموت، بل ثمة إنـــكار تامّ للشـــيخوخة والموت نجده في الهوس المفـــرط بالصحّة، والبحث المستميت فيما يطلق عليه بالطبّ المضاد للشيخوخة، والسعار المربح في الجراحـــات التجميلية. يمكننا أن نتفق مع جـــاك أيضًا في أن التحولات الناجحة في منتصف العمر تغيّر الشـــخص من سمة إبداع متفائل في مرحلة بداية البلوغ إلى إبداع انعكاسي ورصين أكثر في منتصف العمر وبعد ذلك.

على أي حـــال، فإن تقبّل الفناء ليس مجرد شـــأن (أمـــا-أو)، ولا يقتصر التساؤل على أننا قد انشـــغلنا تمامًا في الموقف الاكتئابي، ومن ثم نتقبل الفناء برمته. فقد نرتضي اتباع مدرســـة دونالد وينيكـــوت Donald Winnicott حين أفترض أن في دواخلنا شـــيئًا يمنعنا من تقبّل حقيقة أننا لم نخلق العالم. وفي قوله ذلك لا يقصد الخلط بين مريض الذهان الذي يدّعي خلق الأكوان، والمجاز النفسي الســـليم. نحن نتقبل إراديًا أن العالم خارج حدود سيطرتنا، في حين إننا نحافظ لا إراديًا على ما يطلق عليه وينيكوت «المملكة الوسيطة» التي تحتفظ بالتميز بين الموضوعية والذاتوية في إطار التشويق الديالكتيكي.

لذا أود اقـــتراح تعديل على أطروحة جاك، إذ ثمـــة تغييرات معينة يجب ملاحظتهـــا في منتصف العمر حين تظهر أمارات الفناء في الأفق. لكننا نتفق مع بيكر في التحفّظ على القول بأن الموت صار حقيقة لا بدّ منها. فلا يرتضي الاحتجاج الأنطولوجي للذاتوية أن نرضخ للفناء على الإطلاق:

---

(١) دونالد وينيكوت (١٩٦٥) عمليات النضج والبيئات الميسرة Maturational processes and the facilitating environment.

الاقتراح الأول أن نكسفّ عن التحدث عن حلّ ناجح لمعالجة أزمة منتصف العمر، ونتحدث بدلاً من ذلك عن أزمات منتصف العمر التي يمكن التفاوض معها. هذا الاختلاف ليس مجرد تلاعب رمزي بالألفاظ، بل يعني ضمنًا أنّ تقبلَ الفناء ليس من شأن (إما-أو)، لكنه حركة حثيثة في سلسلة غير منقطعة بين إنكار الموت والقدرة على التأمل الرزين.

قبل الإسهاب في الحديث لا بدّ من تعديل الأطروحة القادمة. فلا يُعقل أن نفترض وجود أنموذج واحد يغطي مجموعة متنوعة من المواقف الوجودية التي يمكن مواجهتها في منتصف العمر. لقد أسّس جاك أطروحته في الأصل على عددٍ معيّن من الفنانين المبدعين الذين يجسّدون التوجّه البطولي الذي يتبناه بيكر في أكمل صوره. سأحاول التركيز في ما يأتي على أشخاص في منتصف العمر كان الإنجاز الإبداعي في حيواتهم هو المحور والصميم.

أما الاقتراح الثاني، فأجد من الضرورة إعادة النظر في فرضية جاك في ما يخصّ «الإبداع المنحوت» مع الأخذ بالنظر فرضية بيكر عن الموقف البطولي[1]. إذ إن الإبداع الذي يميّز حياة البالغين من منتصف الثلاثينيات فصاعدًا، لا يعني بالضرورة أنه إبداع غير طموح ومتلكئ. لقد كانت حياة سيغموند فرويد وكارل يونغ- مؤسسا علم النفس الحديث- على عكس ذلك[2]. فقد بدأ كلاهما مسيرته المعطاءة من منتصف العمر فصاعدًا. وفي كلتا الحالتين، يمكن القول إن طريقة التعامل مع أزمة منتصف العمر، كما يطرحها بيكر[3]، قد تطبق على مجالات أخرى من سياسة، وتجارة، وفنون، وفي اختصاصات أكاديمية (في العلوم الاجتماعية والإنسانية على وجه الخصوص)، ثمة أمثلة لا حصر لها لأشخاص بدأوا مشوار حياتهم من منتصف العمر فصاعدًا. قد يكون معقولاً أن نفترض أن الإنسان في منتصف العمر، تستجد عنده الحاجة إلى خلق شيء من شأنه أن يترك إرثًا

---

(١) إرنست بيكر (١٩٧٣). إنكار الموت (الفصل الأول).

(٢) انظر هنري إلينبيرغر (١٩٧٠) اكتشاف اللاوعي The discovery of the unconscious.

(٣) إرنست بيكر (١٩٧٣). إنكار الموت (الفصل الرابع).

دائمًا ملحًّا؛ لأن حقيقة الموت تصبح ملموسة أكثر. لذلك فإن الحياة عمومًا، في أغلب الحالات، تكون مركّــزة أكثر. وأي شيء يحرفنا من الهدف الأصل الذي يتمثل في ترك إرث دائمي يتركنا في موضع تشــكّك. قد تكون مرحلة منتصف العمر كافية ليسأل المرء نفسه؛ ما الذي أجيده حقًا؟ وما الذي يعطي لحياتي معنى؟ وعلام يجب أن أركز لأترك شيئًا ذا قيمة مستدامة؟

لا يجــب أن يكون هــذا الخلق عمــلاً مختلفًا عن الحياة نفســها. افترض الفيلسوف ميشــيل فوكو[1]، الذي عاش حياة فلسفية بحتة، أن ثمة تشابهًا أنطولوجيًــا بين عيش الحيــاة وخلق العمل الفني. كان يلــحّ أن تكون كلّ جوانب حياته؛ كتاباته، وطرائق تدريسه، وانخراطه السياسي، وحتى حياته الجنسية، بمثابة تعريف للفلسفة بوصفها عملية حفر (أركيولوجيا) تدلّ على أن لدينا دائمًا حرية أكبر مما نظن ونعتقد[2].

اســتكمل فوكو هذه الفكرة حين حاول تعريف الجنون بأنه مجرد قصور وظيفــي oeuvre ا manque، أو حالة يفقد فيها الإنســان تمييز الحدود بين الواقع والرغبات؛ فلا يحتمل أن يســتطيع المرء خلق حياة يعيشها بأي شكل ما خلا الحياة المخلوقة ســلفًا. إن الجنون أقصى تعبير عن الشــعور بحتمية الأقدار. ولا خيار أمامنــا إلا أن نخلق واقعًا داخليًا بديلاً خالصًا ومنفصلاً عن الحياة الواقعية.

قد يكون مفيدًا أن ينظر الفــرد إلى حياته على أنها أفضل صنيعة يقوم بها. يمكن أن يطلــق على التجربة الوجودية المتمثلة في صنــع حياة تعبر بالفعل عن شعور الإنسان بفردانيته «الحسّ بالقدرة على التأليف». التشبيه بين صنع الحياة وخلق الفــنّ ذكي جدًا؛ لأن الفنان يحاول أن يبرز أن العمل من خلقه الخاصّ حين يذيله بتوقيع. وذلك يدلّ على أن الخلق يعبّر عن إشــباع النزعة

---

(١) ميشيل فوكو (١٩٨٤). أخلاقيات الاكتراث بالنفس بوصفها ممارسة للحرية The ethics of the concern of the self as a practice of freedom. وكتاب أساسيات فوكو، مختارات من أعمال فوكو الأساسية. المجلد الأول: الأخلاق (صفحة ٢٨١ - ٣٠١).

(٢) انظر جيمس ميلر (١٩٩٣). شغف ميشيل فوكو The passion of Michel Foucault.

الإبداعية عند الفنان والشعور بالفردانية. وبالمثل، فإن الحسّ بالقدرة على التأليف في حياة المرء تعكس الشعور بأننا تركنا بصمة في حياتنا؛ وإننا نتقبلها بأنها صنيعتنا. ولا توجد ضمانات في الحسّ بالقدرة على التأليف أو الشعور بأن الحياة المعاشة خليقة عمل فنّي؛ لأن كثيرين يعانون من أن المادة الخام في حياتهم لا تسمح لهم أن يصنعوا حياة مرضية، ويعانون بدلاً من ذلك من الشعور بحتمية الأقدار، وكأن الأوراق قد وزّعت سلفًا ولا يمكن استبدالها.

إن الحاجة إلى صنيعة وظيفة في منتصف العمر (لا يشترط أن تكون الحياة تستحق العيش) تتطلب عملية ذات صلة بمفهوم جاك عن الإبداع المنحوت. ويتطلب الخلق المستدام الاستمرارية والإصرار؛ فإذا ارتضينا في مراحل حياتية مبكرة أن نكون ضحية جملة «نستطيع أن نكون أي شيء، ونفعل أيّ شيء، ونختبر كلّ شيء»، فإن منتصف العمر يزيد فينا الشعور أنه لا يوجد وقت نضيعه. تتطلب الحياة أن نبرمجها حول ثيمة محورية، أن تكون هذه الصنيعة المحور، الشمس الذي تدور حولها جميع الكواكب. تتطلب الحياة أن نختزلها إلى هذه الأساسيات.

يتقاطع هذا الأنموذج تقاطعًا بديعًا مع الفلسفة الأبيقورية، التي كانت مؤثرة في الثقافتين الهيلينية والرومانية. على عكس الصورة النمطية التي تربط هذه المدرسة بالسعي الشره نحو الملذّات، فقد كانت أسس هذه المدرسة تاريخيًا مختلفة جدًا.

يجادل أبيقور[1] أن الحرية لا تتحقق إلا حين نستقل عن العالم الخارجي وتقلباته. وأن الكفاح من أجل الحرية لا يتحقق إلا حين نرتب احتياجاتنا ورغباتنا الضرورية وغير الضرورية. وما أن نتوصل إلى نتيجة أن الأشياء التي نعيش من أجلها، مثل الثراء والشهرة والسلطة، ليست ضرورية

(١) انظر جون جاكسين (١٩٩٥). الفلاسفة الأبيقوريون The epicurean philosophers؛ انظر أيضًا في كارلو سترينجر (٢٠٠٣). التصوف والأبيقورية في التحليل النفسي Mysticism and epicureanism in psychoanalysis. يمكن العثور على وجهات النظر الأبيقورية الحديثة في كتاب آدم ف فيليبس (١٩٩٩). ديدان داروين: قصص عن الحياة والموت Darwin's worms: On life stories and death stories. وكتاب إيرفين يالوم (١٩٨٠). العلاج النفسي الوجودي.

إطلاقًا، نستطيع وقتذاك إعادة هيكلة حياتنا حول الاحتياجات الأساسية. ويولي أبيقور جانبًا عظيمًا من فلسفته على الصداقة، ليضعها بجانب الطعام، والمأوى، والجنس، فقد كانت الثقافة الأبيقورية تعظم من شأن كلّ أنواع العلاقات الاجتماعية المتينة.

واحدة من أهم ركائز الفلسفة الأبيقورية أن الخشية من الموت غير منطقية؛ لأن الموت في حدّ ذاته لا يمثل حدثًا في حياتنا، ومن ثم لا يجدر بنا خشيته - وهذه أطروحة تقف في تضاد واضح مع أطروحة بيكر عن إنكار الموت. يتمثل صميم الحرية عند أبيقور في القدرة على اختزال الحياة إلى الأساسيات. سأحاول أن أوضح في مزيج من الديالكتيك بين أطروحة جاك عن الإبداع المنحوت في منتصف العمر وأطروحة بيكر عن إنكار الموت.

تشارلز هاندي، من أستاذ إلى فيلسوف في إدارة الأعمال

تشبه حياة تشارلز هاندي إلى حدّ ما حياة إليوت جاك في نواحٍ كثيرة. إذ اختير تشارلز هاندي في ٢٠٠١ في المرتبة الثانية في قائمة أشهر خمسين مفكرًا في ريادة الأعمال في العالم. وصار اسمًا يشار له بالبنان بعد أن نشر كتابه «عصر اللاعقلانية» في ١٩٨٩. وقد اخترته مثالاً عما نتحدث عنه؛ لأنه وثّق رحلته الانتقالية في منتصف العمر في سيرته الخاصة «الفيل والبراغيث». لقد قام بكثير من الإنجازات في تلك المرحلة، بحكم أسلوبه الرائع والمتواضع والخالي من التنمق، لذلك لا نجد لما يتطرق له شبيهًا إلا في حكايات التحوّل المبالغ بها في كتب ريادة الأعمال.

يصف هاندي النصف الأول من حياته بأنه سلسلة من الخبرات التي علمته كثيرًا من الأمور، ويصف هاندي أغلب الانعطافات المهمة في حياته بأنها مصادفات، وليست قرارات مخطّطة. فقد عمد إلى دراسة اللغة اليونانية في المدرسة الثانوية، لا شيء إلا ليبقى بصحبة صديق له، لكن هذه الدراسة اليسيرة منحته التذكرة لدراسة الكلاسيكيات في جامعة أكسفورد، وكانت خطوة لا تقدّر بثمن؛ نظرًا لصعوبات أسرته المالية. ولم يدرِ بعد تخرجه ما فائدة الشهادة وكيف يكسب رزقه منها، ولكن في الثالثة والعشرين من عمره

تسلم منصب في شركة النفط رويال داتش شل Royal Dutch Shell، مع أنه لا يعرف شيئًا عن النفط، وإدارة الأعمال، والشرق الأدنى حيث تعيّن أول مرّة. وإن كلّ الخبرة التي اكتسبها من إدارة المنظمات كانت مصادفة، ولا تخلو من جوانب ساخرة بكلّ الأحوال.

سرعان ما تم الاعتراف بقدرته أستاذًا وموجهًا في الشركة، لذلك بدأ مهنة التدريس التي قادته إلى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا ثم إلى لندن في ١٩٦٧، حيث شارك في تأسيس كليّة الإدارة في لندن في الخامسة والثلاثين من العمر.

انقلبت حياة هاندي رأسًا على عقب بعد وفاة أبيه، فقد كان في الأربعين من عمره، ومطلوبًا في كثيرٍ من المحافل؛ ويتمتع بكثير من العلاقات الأكاديمية والاجتماعية، وكان يجلس على موائد غداء فاخرة، ويتلقى كثيرًا من الاستشارات. كان مثالاً للشخص الناجح باختصار[1].

كان هاندي الابن الوحيد لأبٍ كاهن في أبرشية أيرلندية، وعلى الرغم من أن وصفه لجنازة أبيه مفرغة من المشاعر، فلا تزال كلماته في وصف علاقته به مؤثرة. لطالما شعر هاندي بخيبة أمل من أبيه الذي تقاعس ورفض عشرات الأبرشيات الحضرية ليبقى في مدينته الصغيرة. تفاجأ حين شاهد مئات الأشخاص في الجنازة مع أن التعزية لم يُعلن عنها. تساءل عن عدد الأشخاص الذين حاضرهم وسيحضرون جنازته مقارنة بأبيه، وأدرك أن أبيه، من نواحٍ كثيرة، ترك بصمة أكبر من بصمة الابن المثابر.

فكّر لوهلة في الالتحاق بمدرسة دينية. وما أن عاد إلى لندن، حتى ذهب لاستشارة عشرات الأساقفة الذين نصحوه أن يكمل مسيرته ويخدم الرب بوظيفته محاضرًا في إدارة الاعمال أكثر من التفرغ لطاعة ربه[2]. لكن هاندي أحسّ أن الوقت ملائم للتغيير. لذلك انتقل من كلية إدارة الأعمال ليصبح

(١) تشارلز هاندي (٢٠٠١)، الفيل والبراغيث (صفحة ٢٩).
(٢) تشارلز هاندي (٢٠٠١)، الفيل والبراغيث (صفحة ٣١).

مديــر قلعة وِنــزُر Windsor Castle الملكية، التي كانــت قاعاتها مخصصة لإلقاء المحاضرات ذات القضايا الأخلاقية والدينية، هكذا بدأ هاندي يشعر أنه عاد إلى أصوله، وأعاد إلى حياته المعنى والقيمة من جديد.

لكنه سرعان ما بدأ يقلق من جديد؛ لأنه المسؤول عن مجلس إدارة القلعة؛ ولأنه يعجز عن تقبّل العمل تحت إشراف الآخرين، كما ذكر في مذكراته:

«أمســيتُ بعد وفاة والــدي مجهدًا ومكتئبًا... وقــد دفعني هذا الحال إلى مراجعة المعالج النفسي بدايةً. فقد كنت أحتاج وقتذاك أن ســاعدني شخص ما ويطبطب عليّ، ولكن المعالج أفترض أن مشاكلي قد ازدادت؛ لأنني لم أفهم أي نوع من الأشــخاص أكون. كانت جملة «اعرف نفسك» خلاصة ما جاد به الفلاســفة اليونانيون القدماء، والتي نقشــت فوق معبد أبولو في ديلفوي اليونانية. أدركت الآن أنك لا تســتطيع معرفــة من أنت إلا حين تعرف من لست أنت، وذلك يستغرق بعض الوقت، لقد تطلّب مني الأمر أربعين عامًا لأصل هناك، بعد أن أسقطت كثير من الأدوار والمهن من قائمتي»[1].

لم يتقبــل هاندي العمل لصالح المنظمات مع أنــه أصبح مرجعًا في عمله. نعــم، لا بأس بالعمل مديرًا في إحدى المؤسســات، لكنــه يدرك أن معدنه الحقيقي يتوق للشــغف والفكر لا للعمل الميــداني. وقد يقع الفضل الأكبر إلى زوجته التي شــجعته على ترك المنصب مع أنهم لا يفقهون طريقة أخرى لكسب لقمة العيش.

تخيّل أن هاندي قرّر أن يكون عاطلاً عن العمل في عمر التاسعة والأربعين، وانطلــق في مغامرة غير مضمونة من الكتابة الحرّة وإلقاء المحاضرات. يذكر أن شهوره الأولى كانت سيئة بالفعل، فقد اعتاد جدولاً يوميًا مليئًا بالمواعيد لينتهي بجدول فــارغ، بل بالكاد هاتفه يرنّ، ولم تكــن لديه بطاقة تعريفية، ولا بطاقة انتماء إلى نقابة ما. وعلى الرغم من أنه يمقت المناسبات الاجتماعية التي كانت مفروضة عليه من أصحاب العمل الســابقين ليحضرها، إلا أن

---

(١) تشارلز هاندي (٢٠٠١)، الفيل والبراغيث (صفحة ١٥٧ – ١٦٠).

الدعــوات الإجبارية عليه أهون من أن لا توجد دعوات على الإطلاق. لقد بات بلا مردود ماديّ، ولا إرث، ولا رأس مال متراكم، ولا معاش تقاعدي يرضي الفؤاد.

يحقّ لنا الآن أن نســأل: لماذا قرّر هاندي أن يمســح الطبــق ويبدأ حياة جديدة؟ لم يكن يعتقد أن مهنته السابقة كانت خيارًا خاطئًا، أو أنها وقفت في طريقه كي يتعرف على العالم أو على نفســه. ولكنه قرّر في منتصف العمر أن يختزل حياته ويعيدها إلى الأساسيات. كان يريد أن يخبر الناس أن سرّ الحياة الرغيدة يتمثل في عيش الشــغف العميق المستدام، وكان يشعر أنه تأخر عن الاستجابة إلى نداء حياته.

لم يكن قــرار هاندي اندفاعيًــا ولا خاليًا من أيّ منطق، لقد نشر ســلفًا بعض المؤلفات، عن كيفية تأســيس المنظمات وما شــابه. كان يدرك اتقانه لمهنة التدريس، وإلقاء المحاضرات، لكن حركته شــجاعة وجريئة نوعًا ما، مع أنه يصف نفســه بالخجل، وكأن الخطوة التي قام بها لا تتوافق مع طباعه وشخصيته.

لم يكــن هاندي يعلم الغيب، أو يؤمن أنه ســيصبح أحــد أكثر المفكرين تقديــرًا في عصره فيما يخصّ مجــال إدارة الأعمال. ولم يكن يتخيل مســيرته مغامرة محتومة بالنجــاح، ولم يناقش وكيل أعماله على عنوان الكتاب «عصر اللاعقلانيــة» (لأن وكيل أعماله قام بتغيير العنوان الأصلي)؛ لأنه لم يتوقع ما الشكل الذي ستتخذه وظيفته المستقبلية التي ترضيه.

لقد أدرك تشارلز هاندي أنه لا يعيش الحياة التي ينبغي عيشها. لقد توصل إلى هاندي الحقيقي حين حذف كلّ جدول أعماله وانتقل إلى أســلوب عمل خاصّ به تمامًا. كان يعرف أن مهنته الحقيقية تنتمي إلى العالم الفلسفي، وكان على استعداد ليخسر كلّ شيء في سبيلها. هكذا تفرّغ وألّف سبعة عشر كتابًا بين الخمسين والسبعين ومازال.

ابتكر هاندي صنيعة خاصة حــين حاول الجمع بين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع الرأسماليين، إضافة إلى الاهتمام المتأصل بالروحانية. ولأنه كان يفهم

كيف يعمل الاقتصاد جيدًا؛ لم يشغل باله بالشؤون المطاطية مثل «تواصل مع طاقاتك الروحية» أو «تحتاج الإنسانية إلى الاهتمام بالأرض الأم». لكنه كرّس وقته، بمساعدة زوجته، في الانشغال بالقضايا الملحّة، والاحتمالات الدقيقة التي بوسعها النهوض بالرأسمالية الكبرى ذات الصيت.

يحتفي دائمًا هاندي بصنيعته والحياة التي عاشها، وكتاب «الفيل والبراغيث» بالأساس عبارة عن كاتالوغ عن كيفية العيش الصحيحة عبر تصنيفها إلى حياة تبحث عن الأجر، وأخرى تركّز على المنزل والأسرة، وثالثة تسعى إلى تطوير العقل والذات. نعم، كانت حياته عبارة عن حيوات غطّت كل الأصعدة.

الديناميكية النفسية لتغيّرات منتصف العمر

قد تتخذ الشرارة الأولى لتغيّرات منتصف العمر أشكالاً عدّة؛ فقد يكون الحدث خارجيًا؛ مثل التعرض إلى خسارة أو تهديد وظيفي، أو أن يقترح أحد الزوجين خيار الطلاق، أو أن يختبر موت أحد الوالدين أو صديقًا أو قريبًا عزيزًا. أو قد لا يكون ثمة حدث خارجي ملموس.

لكن الفرد يختبر تغييرًا في صيرورته؛ كأن يعاني من الإحراق النفسي والوظيفي، أو الانهماك من العلاقات الاجتماعية، أو استنتاج متأخر بأن زواجه لا يُحتمل[1]. وقد يشعر الفرد في أحيان أخرى أن العيد الميلاد التقريبي (الأربعين أو الخمسين) جعل الموت أقرب من حبل الوريد.

تكون شرارة البداية صعبة دائمًا؛ لأن الشخص حين يدرك بحتمية أن الحياة لم تعد تجدي، لا تقترن بإدراك أن ثمة حلولاً ممكنة. لذلك قد يشعر الشخص بأن الشرارة الأولى مجرد أعراض لا إدراك واعٍ بأن التغيير وشيك؛ وغالبًا ما يكون الاكتئاب والقلق بالمرصاد، أو عارضُ الهوس بالأمراض، أو الانشغال المفاجئ بالرياضة، أو الاهتمام المبالغ به بالجراحات التجميلية،

---

(١) آليا بينيس وإيليوت آرونسون (١٩٨٨) الإحراق الوظيفي: الأسباب والمعالجة Career burnout: Causes and cures.

أو أيّ وسيلة أخرى يمكن للمرء أن يغتنمها للتملص من الشيخوخة ومقارعتها.

عودًا إلى حالة هاندي، بدأت شرارة التغيير بعد وفاة والده؛ لأن وجود الآباء في الحياة يسهم في ديمومة تغييبنا من إدراك الموت، وجملة «لم يحن دوري بعد» يبقى مفعولها ساريًا ما داموا على قيد الحياة. قد تقلقنا صحتهم قليلاً، أو نشغل بالنا بفكرة أنهم يموتون في مرحلة ما، لكن تبقى هذه الأفكار حاجزًا بيننا والموت، مجازًا وواقعًا في الوقت نفسه.

ينفعنا كثيرًا ما اعتمل في قلب هاندي بعد وفاة أبيه: فقد كانت ردّة فعله الأولى هي الشعور بالذنب، وكأنه لم يقدّر أبيه كفايةً حين حكم عليه بأنه لم يحقق في حياته كثيرًا من الأمور.

لذلك كانت فكرته الأولى لاتباع خطى والده أن يصبح كاهنًا، وذلك خير تجسيد للآلية التي تطرق إليها فرويد في كتابه «الفجيعة والميلانوخوليا»[1]. وبما أننا مازلنا نحمل مشاعر مختلطة من غضب وذنب لم نتعامل معها، نحاول إبقاء الوالد على قيد الحياة رمزيًا عبر التشبه به أو بها.

استمر هاندي يراوده شعور، بعد ردة فعله الأولى، بأنه لم يكن يفعل ما يجدر به فعله. وتطلّب منه وقتًا ليدرك أن الكتابة والتدريس عن إدارة الأعمال لا تناسبه تمامًا، مع أنه كان مرجعًا في ريادة الأعمال وتأسيس المنظمات، لكن ذلك لم يكفيه ويرضي غروره.

على الرغم من أن صنيعة هاندي كانت استثنائية نجاحًا وريادة، لكنها ليس فريدة بأي حال من الأحوال. لقد شهدت كثيرًا من هذه التجارب لأشخاص اختبروا تغييرات جوهرية في عمر الستين. ولم يكن التحوّل إعجازيًا. ثمة دليل واضح، مثل حالة هاندي، على ملَكَة الموهبة والميول والمشاعر. إن هؤلاء الأشخاص شعروا بالحاجة الماسّة أن يتحولوا إلى ما

---

(١) سيغموند فرويد (١٩١٧). الفجيعة والميلانخوليا (المجلد ١٤): تاريخ حركة التحليل النفسي، بحوث في الميتاسيكولوجي وأوراق أخرى (١٩١٤-١٩١٦) (صفحة ٢٣٧-٢٥٧).

يمكن أن يكونوا عليه. ولم يعودوا يرغبون في استنزاف طاقاتهم في أنشطة لا تتوافق مع ما يمثل جوهر حياتهم.

لكن لا بدّ من تقديم التضحيات المالية، إذ يتخذ الشخص بعض القرارات المنطقية عما هو ضروري في حياته وما يمكنه الاستغناء عنه. تساعدنا الحرية التي نكتشفها في منتصف العمر على إدراك أن كثيرًا من الأشياء التي كنّا نراها ضرورية ليست في الواقع كذلك (تستحضرني الآن عضويتي في نادي الجولف ذات العشرين ألف دولار).

عملية اختزال الحياة إلى الأساسيات تستلزم أن نسأل ما نريد أن تكون عليه حياتنا فعلاً. وقد تكون أسئلة منتصف العمر راديكالية جدًا: ما أعمق مخاوفي؟ ما الذي يهمني؟ ما مكاني في العالم؟

تتطرق هذه الأسئلة إلى جوهر هويتنا. وذلك ليس بالسهل ولا يخلو من المخاطرة. لكن يجدر بنا أن نتذكر أن خطر عدم عيش الحياة كاملة له ثمن باهظ لا يعوّض ولا يمكن التغاضي عنه.

هكذا نصل إلى النقطة التي ترتبط فيها أطروحة الديناميكية النفسية بأطروحة إليوت جاك عن حلحلة أزمة منتصف العمر وما يتعلق بها من ثيمة الإبداع المنحوت. فقد حاول هاندي أن ينحت حياته في طريقة تشابه ما كان مايكل أنجلو ينحت؛ أي عملية تفتيت القطع الزائدة عن الحاجة، واختزالها إلى الأساسيات فقط.

كان هدف هاندي الرئيس أن يجد معنى في عالم رأسمالي بامتياز. لقد أدرك أن المنافسة المحمومة في عالم الاقتصاد الرأسمالي تجبر المنظمات على التخلّص من أيّ حمل زائد، وتقلّص العمّال إلى الحدّ الأدنى. واتضح صواب توقعاته[1]، وأن هيكل التوظيف يتغير مع تغيّر الاقتصادات المتقدمة. وسيتعين على نسبة أكبر من العمّال أن يعيدوا التفكير في وظائفهم ليعملوا في حسابهم الخاصّ، ويسوقوا أنفسهم من جديد.

---

(١) انظر تشارلز هاندي (١٩٨٩) عصر اللاعقلانية.

لم يكتفِ هاندي بهذا التوقع، بل قدّم أفكارًا مشوّقة فيما يخصّ كيفية عيش ما أسماه بـ «الحياة المشحونة بالتجارة». كانت فرضيته أنه من الخطأ حصر العمل بالمكافئات المالية، ولا بدّ من التطوير الذاتي عبر القراءة والدراسة والوسائل الأخرى، بل ينطبق الشيء نفسه على الاستثمار في الأسرة، والمنزل، والعلاقات، والزواج، وغيرها.

الإنتاجية والإبداع والتدفق

ثمة تشابهات بديعة بين حياتي هاندي وجاك. كل واحد منهما وجد صوته الداخلي الناضج والفريد في أواخر الأربعين من العمر حين أدرك أن موهبته الحقّة يمكن أن يحولها إلى مهنة بالمعنى الأعمق.

غادر جاك من إنجلترا إلى كندا، ونأى بنفسه عن معالجة المرضى، وركّز على التنظير والاستشارات. وكان يعتقد أن اختزال الحياة إلى الأساسيات يعني أن يؤلف وينشر أفكاره في مؤسسة خاصة به، في حين نجد هاندي ارتأى أن يترك المنظمات ويركّز على الفلسفة الاجتماعية.

الغريب أن الاهتمام المبالغ به في منتصف العمر قد لا يكون بسبب إنكار الموت بقدر ثيمة تقبّل الموت (وفق أطروحة جاك). وتبقى الأسئلة: ما ثيمة الحياة المحورية؟ ما الفعل أو الدور الذي يحدّد حياة الفرد؟ ما مجال الحياة الذي يدع الفرد يعبّر عن فردانيته، والذي يمكن عبره العيش على نحوٍ فاعل ذي مغزى.

كذلك الحال مع سيغموند فرويد وكارل يونغ؛ فقد تعرض فرويد في الأربعين لأزمة نفسية بعد وفاة أبيه في ١٨٩٦، وعانى من أعراض هستيرية جعلت حياته منهكة ومستنزفة. حاول أن يعالج نفسه عبر الغوص في خبايا اللاوعي المظلمة، ومرّ في مراحل متقطعة من الكفاية النفسية حتى وفاته في ١٩٣٩. بينما اتخذ التحوّل عند كارل يونغ طريقًا آخر. فقد استنتج، أنه اكتفى من دور التلميذ النجيب، وقرّر أن يشقّ طريقه الخاصّ. سرعان ما عانى يونغ من أزمة انفصال عسيرة وشبيهة بما كان يطلق عليها هنري بـ «السقم الإبداعي».

لو تتبعنا النمط لوجدنا أن منتصف العمر أثار إدراك القرب من الفناء، ومن ثم أسهم في تحرّك الفكر تجاه الفردانية. قد تكون الحياة مكثّفة عند الصنيعة المستقلة مع أن هذا التكثيف يستلزم ضريبة ما: العزلة المطوّلة لفرويد أو يونغ؛ أو العوز المادّي لدى هاندي؛ أو الانفصال عن التحليل النفسي لدى جاك.

السياق العام في افتراض بيكر يوصلنا إلى الاستنتاج الآتي: الحدث الذي يزيد من الوعي بالفناء يقود إلى زيادة الحاجة إلى نوع من الدفاعات التي تقوي الإنكار الإنساني للموت. أركز في حديثي هنا على المفكرين الذين احترفوا الكتابة، ولكن ثمة أمثلة أخرى: فقد يكون الإبداع زيادة أعمال أو حركة سياسية أو بناء معماريًا. التركيز في افتراض بيكر على الحياة الخلاقة نتيجة مباشرة للحاجة المتزايدة للشعور بأننا لا نختفي بسهولة مع الموت.

يمكن أيضًا استعمال فرضية بيكر عن إنكار الموت لإلقاء الضوء على مفهوم إريك إريكسون Erik Erikson عن «توالد الأجيال» generativity بوصفها السمة المميزة في منتصف العمر[1]، إذ يقود الاستماع إلى الذات في منتصف العمر إلى زيادة الاهتمام بالمجتمع والعالم الذي نعيش فيه. لقد دفعت تأملات هاندي الناضجة في ما يخصّ الاحتياجات الروحية في هذه المرحلة العمرية إلى ولادة بعض من أهم مؤلفاته التي استحق عن أثرها أن يكون فيلسوفًا في إدارة الأعمال.

لو قارنا مفهوم توالد الأجيال من وجهة نظر بيكر لاكتشفنا زاوية مثيرة للاهتمام. إن إعادة توجيه احتياجات الذات الفورية إلى مكانها واسهاماتها في العالم ككل تخدم حاجتنا في نكران الموت. تكثيف النظر على العالم الذي نتركه وراءنا، يجعلنا ندرك أن أفعالنا الآن ستترك بصمة تتجاوز موتنا الشخصي. ويمكن القيام بذلك بطرق عدّة، مثل تعبئة الأسباب البيئية، وتحسين النظام التعليمي، وخلق إرث إبداعي يسهم في الثقافة والمعرفة.

---

(١) انظر أريك إريكسون (١٩٦٣) الطفولة والمجتمع (الطبعة الثانية) وكتاب أريكسون (١٩٦٤) البصيرة والمسؤولية.

إذن كيف نستطيع ربط أطروحة جاك عن حلّ أزمة منتصف العمر بأطروحة تقبّل الفناء والموت؟ الإجابة معقدة. فمن ناحية، يبدو أن هاتين الأطروحتين تتناقضان مع بعضهما (وتتعارضان إلى حدّ ما). يرى بيكر أن عملية الخلق لفتة بطولية يتحدى بها المرء مصير الفناء، وكأنما يقول: «أنا أدرك مصيري: الزوال، لكنني سأحارب حتى الأنفاس الأخيرة ضدّ هذا المصير. سأبتكر أعمالاً تدوم طويلاً وتهزم الموت!».

ومن ناحية أخرى، يبدو أن عملية اختزال الحياة إلى الأساسيات تستند إلى تقبّل الموت: «أدرك أنني سأموت، وأدرك أن زمني في الأرض محدود، ولا يمكنني تضييعه على شيء غير أساس. لابدّ أن أركز على المهمة التي تخصني وحدي، فليس لدي الوقت الكافي لأقوم بما يفترض بي القيام به».

ومثلما اقترحت في بداية هذا الفصل، أعتقد أن هذه التفسيرات تقف في حالة قلق جدلي إزاء بعضها، والجدل النفسي، كما يقول وينيكوت، يعتاش على هذه المقلقات.

أودّ أن أضيف شيئًا آخر إلى هذا الأنموذج: تبرز عملية الخلق المكثف والمستدام في الحالة الذهنية التي أطلق عليها ميهالي تشيكسينتميهالي Mihaly Csikszentmihalyi بـ «التدفق»[1]، ويقصد بذلك حالة الانغماس التامّ في الأنشطة التي تجعل المرء يختبر فيها القيمة والمعنى. لقد توصل ميهالي إلى استنتاج، بعد بحث دام أكثر من ثلاثين عامًا، أن التدفق حالة ترتبط أكثر بالشعور العامّ بالسعادة.

يمتاز التدفق الفينومينولوجي أساسًا بنقص الوعي بالذات؛ فقد نقول في حالة التدفق شيئًا مثل «لم أكن على دراية بنفسي لساعات!» وبذلك يتعارض التدفق مع جانبين من جوانب الحالة الإنسانية اللتين يربطهما بيكر بالرعب الوجودي: الوعي بالذات وإدراك الفناء. العودة بالحياة إلى الأساسيات والتركيز على الخلق يسهم في جانبين؛ يحررنا من إدراك الذات والوقت

(١) انظر ميهالي تشيكسيتميهالي (١٩٩٠). التدفق: سيكولوجية التجربة المثلى.

ويسمح لنا بالانغماس في نشاط يكون ذا مغزى جوهري. أي إننا نستطيع، بحسب فلسفة جاك، التصالح رمزيًا مع فنائنا، مع تحصين دفاعاتنا ضدّ الوعي بالفناء في الوقت نفسه.

على أي حال، الوصول إلى مرحلة الوعي بالذات عملية مؤلمة وتتطلب الالتزام بثيمة محورية يمكن أن تزودنا بالمعنى. تختلف هذه العملية، كما في حالة تشارلز هاندي، عن أسطورة الذات الحقيقية التي تتفجر داخل المشهد العالمي. وتتضمن هذه العملية غالبًا مراحل التجربة والخطأ والتعلّم عن الذات وغيرها.

نحتاج أن نتخلى عن المفهوم الخاطئ القائل بأن الحرية تعني انعدام القيود. يتطلب اختزال الحياة إلى الأساسيات الالتزام ببعض الثيمات المحورية التي تعدّ منبعًا للمعنى في حياتنا. وذلك الالتزام يعني أن نتقبل أن ثمة أشياء كثيرة لن نقوم بها في حياتنا؛ سيحرم بعضنا من الثراء، ويحرم آخرون من الشهرة، في حين يتعيّن على بعضهم أن يتحمل مسؤوليات كبيرة، كما فعل جاك في إدارة شركته والتوافق مع المنظمات، والتي تعني الاستغناء عن قدرٍ غير قليل من راحة البال.

لا يرجح أن يكون أنموذج اختزال الحياة إلى الأساسيات مناسبًا للجميع، فلا يشعر جميعنا بالحاجة إلى ثيمة محورية تدور حياتنا حولها. قد يجد بعضنا الرضا بحياة يسيرة مشتتة بين هوايات، وعواطف، ونشاطات مختلفة. مع أن ذلك يتعارض مع أنموذج الثقافة الاستهلاكية العالمية الصاعدة.

تحتاج الحياة إلى نظام مستقر ذي معنى يضع ترتيبًا للقيم الخاصّة بنا. فلا يمكن أن تتمحور حياتنا حول ثيمة من دون أن تتبلور لدينا رؤيا تخبرنا ما المهم؟ وما القيّم فعلاً؟ وما الذي يعدّ مجرد إلهاء يستنزف طاقاتنا؟ لذلك يجب أن نجيب عن السؤال «كيف يستطيع الإنسان المعولم أن يطور رؤيا عالمية تصمد أمام العصف النقدي، ومن ثم توفر قاعدة وجودية لعيش حياة حافلة ذات معنى؟».

الجزء الثالث

المطالبة بعقولنا

الفصل السابع

الهروب من كهف أفلاطون

لقد حاولت في الجزء الأول والثاني بلورة مفهوم وجودي عن الفردانية الإنسانية، وأن أظهر إشكالية الشدّ، والجذب، والتوتر بين الواقعية والوعي بالذات، وبين الرغبة ومعرفة الذات بوصفها عنصرًا يحدد وجودنا. لكن صنيعة الحياة ومعرفة الذات لا تأتي من فراغ. وغالبًا ما يفقد التفسير الوجودي للحياة الإنسانية مسار الحقيقة السهلة المتمثلة في أن أعمق مصدر للمعنى متأصل في العلاقات الإنسانية[1].

تنعكس هذه العلاقات الإنسانية في معاني الثقافة المجتمعية وحكاياته وممارساته؛ من طقوس الحبّ مرورًا بالصراعات الوظيفية، والنتاجات الفنية، وغير ذلك من أنظمة المعاني الثقافية التي من دونها لن يكون أيّ شيء في حياتنا منطقيًا.

---

(١) نجد عن هذا الموضوع أكثر في مؤلفات مؤسس الطبّ النفسي الوجودي السويسري لودفيغ بينسوانجر Ludwig Binswanger، الذي جادل بأن الدازاين Dasein لا يمكن عزله إطلاقًا، وأن الارتباط (أو متسين Mitsein) أكثر أساسية لبنية الوجود البشري من هايدجر، وحتى أكثر من سارتر. لودفيغ بينسوانجر. أعمال محددة عن الأشكال الأساسية ومعرفة الوجود الإنساني (الجزء الثاني) Ausgewahlte Werke. Vol. ٢: Grundformen und erkenntnis menschlichen daseins (١٩٥١)، والتي لا تختلف في رأيي، من وجهة نظر تطوّرية، عن نظرية التعلّق attachment theory المعاصرة.

لقد دمجت أنظمة المعاني الثقافية هــذه، أيضًا في رؤى تبلور فهمنا للكون وتفســيرنا للعلاقات الإنســانية والقيم. لابدّ أن تكون الحياة ذات قيمة في مجتمعاتنا لنعدّها مهمة لا مهملة، إذ يعتمد تعريف ما نقوم به واقعًا على شبكة أعراف وثقافة تشكل الأدوار، والوظائف، والفعاليات التي تحدّد هوايتنا.

كما رأينــا في الفصل الثالث، لقد فقدت ثقافتنا في «عصر العجل الذهبي» ارتباطاتها بالرؤى ذات المنحى العقلاني والجذاب إلى حدّ ما، واختزلت هذه الرؤى إلى مبدأ ســياسي يعتمد على ضرورة احترام جميــع المعتقدات لمجرد أن بعض الجماعات العرقية أو الدينية أو القومية تتبناها. ســنحاول في الجزء الثالث تقديم مخطط لهذا المبدأ الســياسي الذي يسمح بإجراء حوار واضح المعالم بين الرؤى والجدالات.

الضرورة الوجودية للرؤى العامّة

تعتمد القيم التي تشــكّل أفعالنا ووجودنا على الرؤى الثقافية التي تحدّد معنــى هذه الأفعال. فقد تكون هذه الأفعال محمودة في حدود إطار مرجعي لثقافــة ما، وذنب مميت في إطار مرجعي آخــر. فقد يكون قتل الفرد لأخته؛ لأنها عاشرت شــخصًا خــارج إطــار زواج فعلَ شرفٍ وغســل للعار في المجتمعات الإســلامية التقليدية في حوض الصحراء الكبرى، في حين تعدّه الثقافة الغربية جريمة قتل بكلّ سهولة[١].

الثقافة التي تزودنا بالمعنى لها أهمية وجودية عميقة؛ لأنها تحمينا من خشية الوعــي بالفناء، لذلك تجدنا ندافع عن هذه الرؤى بوصفها واحدة من أثمن الممتلكات التي نعضّ عليها بأســناننا بكلّ شراسة، ولا سيما حين نشعر أنها تهدّد حيواتنا واحترامنا لذواتنا. ســنعالج هذا الموضوع بإســهاب لاحقًا، ولكن نكتفي الآن بردود أفعالنا لما حدث في ١١ سبتمبر:

---

(١) شيلدون سولومون وآخرون. الحيوان الثقافي: عشرون عامًا من الأبحاث والنظريات في إدارة الإرهاب The cultural animal twenty years of terror management theory and research (٢٠٠٤). توم بيزينسكي. كتيب في علم النفس الوجودي التجريبي Handbook of Experimental Existential Psychology (صفحة ١٣-٣٤).

شهدت الولايات المتحدة بعد حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فورة استثنائية وغير مسبوقة في الروح الوطنية، واعتلت أصوات المؤيدين على سياسات جورج دبليو بوش السيئة بين عشية وضحاها، وأيّد غالبية العالم الغربي في الواقع سياسات نيويورك وأمريكا، إذ شعر العالم المتحرر بالانتهاك من الإرهاب بطريقة غير مسبوقة. وكان الرأي العام تحت المطرقة والسندان، لذلك أحسّ الجميع بالحاجة للدفاع عنه وحمايته.

بينما يدرك جميعنا بدهيًا ضرورة وجود هذه الرؤى، فقد أكّد علم النفس الوجودي من وجود هذا الحدس بأدلة تجريبية قوية. وأوضح أن أحد المصادر الرئيسة للأمان الوجودي أن تكون ثمة رؤى متكاملة إلى حدّ ما، وأن الحاجة إلى الرؤى التي تزودنا بالمعنى ضرورة ملحّة لدرجة أننا نفعل أيّ شيء تقريبًا للدفاع عنها.

اسمحوا لي أن أشرح بعض التجارب التي قام بها علم النفس الوجودي التجريبي ليثبت وجود ضرورة الرؤى، إذ إننا نستعملها لنتجنب إدراك حقيقة الموت[١]: كأن يُعرض للمشاركين مقطع فيديو لحوادث سيارات مميتة أو مقابلات لأسر ثكلى بعد ١١ سبتمبر، في حين يُعرض لآخرين محفز محايد مثل مقطع فيديو عن أسلوب جديد في عمل المطاعم. ثم تُعرض على المجموعتين فيديوهات تمثل أعضاء مجموعة عرقية أو دينية أو إثنية أو سياسية أخرى.

وجدت التجربة أن المجموعة التي شاهدت ذكرى الموت لديها نزعة قوية للتخلّص من القلق الناجم عن الموت، لذلك كانت لديها حاجة ماسّة للدفاع عن رؤاها. ولأن الرؤى تشعر بالتهديد حين تكون ثمة رؤى منافسة أخرى؛ لذلك لا نجد مجالاً للتهاون مع الرؤى المتباينة والآخرين عمومًا. لقد وجد أيضًا أن مجموعة المشاركين الذين تعرضوا لذكرى الموت تنعدم لديهم سمة التسامح مع المجموعات الأخرى، كأن يصبح المسيحيون أقل تسامحًا تجاه اليهود، أو البوذيين، أو المسلمين، والعكس صحيح.

---

(١) توم بيزينسكي. في صحوة الحادي عشر من سبتمبر: سيكولوجية الإرهاب (٢٠٠٣).

يمكن تفسير هذه الظاهرة على النحو الآتي: يتعامل الناس مع فكرة الموت الإقحامية بتوظيف دفاعــات آنية الكبت لقمعها. ولأن هذه الآلية الدفاعية لا تعمل على المدى البعيد؛ لذلك تُســتدعى آلية دفاعية تشــد من عزم رؤانا وتحمينا من إدراك الموت.

قد تتخذ هذه الأطر الثقافية أشــكالاً مختلفة؛ مــن الديانات الكبرى إلى الطوائف الصغيرة، ومن الأيديولوجيات السياســية الشمولية مثل أنموذج الفاشــية الشــيوعية إلى أنموذج الديمقراطيــة الليبرالية، ومن الأوســاط الأكاديمية الحريصة على مُثُل الحقائق والعقلانية إلى عالم الفنون والإنسانيات، ومن قضايا مثل إنقاذ الغابات المطرية إلى حملة السايِنتولوجي غريبة الأطوار التي حاربت العقاقير النفسية.

يدّعــي كلّ نظام ثقافي وكلّ رؤيا مجتمعية بأنهــا فريدة من نوعها؛ كذلك ادّعت الشــيوعية أنها الســبيل الوحيد إلى تطبيق العدالة الشاملة، وتزمت النظام الأكاديمي الحديث بأن العلــوم هي طريق العقلانية الوحيد والمثبت تجريبيًا للوصول إلى الحقيقة. كذلك حلّ عالم الفنّ، منذ القرن التاسع عشر، محلّ الدين حين التزم بتوفير أدوات التبجيل والجمال.

لكن الدفاع عن الرؤى أو الذود عنها أمسى مهمّة محرجة للإنسان المعولم. ألا يفترض بأن تكون كلّ الرؤى متساوية؟ لقد زرعت أيديولوجية «الصوابية السياســية» وصمة تفترض أن المعتقدات لابدّ أن تُحترم لمجرد أن شخصًا ما يحملها. لذلك لا نستهجن التشكيك في معتقدات الآخر أو انتقادها لخلوها من الصوابية فحسب، ولكنها خطيئة فعلاً[1].

كان النقــاش الفكري في العقود الثلاثة الماضيــة عن كلّ شيء، إلا اللهم القضايــا الوظيفية أو إدارة الأعــمال، ممنوعًا تقريبًا، مما تــرك ذوي التوجّه

(١) يمكن قراءة شروحات وتحليل نسبية الثقافات المعاصرة من أوجه نظر مختلفة في مؤلف: آلان بلوم. إغلاق العقل الأمريكي The Closing of the American Mind (١٩٨٧). أما وجهة النظر الأوروبية، فيمكن الاطلاع عليها في آلان فينكلكروت. هزيمة العقل The defeat of mind (١٩٩٥). أو في سوزان جاكوبي. عصر اللاعقلانية الأمريكية The age of American unreason (٢٠٠٨).

العالمي في مأزق عن كيفية مناقشة الرؤى. لذلك نجد في الطرف المتزمت من الطيف، آراء متطرفة تصرّ على تمسّك الفرد بالقيم والإيمان. ونجد في الطرف الليبرالي يشترط أن تؤخذ الأمور بروية وأن لا يسيء الفرد إلى الآخرين أو يثير أي حساسيات.

الدين على وجه الخصوص قضية شائكة جدًا؛ ينظر المحافظون إلى قضية الدين بحساسية كبيرة، وأي انتقاد يقابل بهيجان عنيف تقريبًا، في حين اعتاد الليبراليون تقبّل الطقوس الدينية لغالبية أصدقائهم ومعارفهم، وحاول أصدقاء كثر تجريب طقوس روحانية عصرية في صورة ما، وغالبًا ما يتحدثون بمثالية شبه مهضومة عن الأفكار الدينية.

لقد بات عسيرًا على الإنسان المعولم في العقود الأخيرة أن يفكّر بانتقاد إزاء الرؤى. يشعر الإنسان المعولم بالتشكيك المستمر فيما إذا كانت حياته وما يفعله يستحق فعلاً. إن الحاجة إلى الشعور بالأهمية والقيمة ضمن الرأي الثقافي العامّ ضرورة إنسانية عالمية. يحتاج الفرد أن يشعر بالتقدير من أقرانه ومجتمعه حين يلتزم بمتطلبات الثقافة. ويتوقع المجتمع من أفراده أن يكونوا منتجين، وأن يسهموا في إنقاذ المجتمع، وتحسين نوعية الحياة والرفاهة. كذلك يتوقع المجتمع من أعضائه الالتزام بمعايير الأخلاق والشرف. نعم، يحتاج الانتماء إلى قدر كبير من الالتزام بهذه المطالب الأساسية على أقل تقدير.

أرنولد: التراجع عن المنطق

شعر أرنولد في عمر الأربعين بأن حياته أمست بلا جدوى. لقد فشل في مشروعه التجاري الأخير، ومرّ بتجربة طلاق مريرة، ولا يوجد شخص في حياته يعتني به. فما أن تنظر إليه، تدرك أن ثمة شيئًا خاطئًا غير منطوق. كان لاعب كرة سلة محترفًا، لكن عوده ذبل، وجسمه ترهّل، وفقد مرونته، ولم يعد يكترث بمظهره وملابسه.

قدم أرنولد إلى العيادة للتخلّص من قلقه وأوجاعه. وصار يدرك في هذه العملية أنه يرزح تحت وطأة شعور قوي بالذنب؛ لأنه أقل تدينًا من والديه، وقد تخلّف عن إرث العائلة في التحصيل الأكاديمي، ولا سيّما في

مجال الرياضيات. شعر آرنولد بالتغيير من زاوية غير متوقعة: عندما بدأ يعيد التفكير في علاقته بالدين. وسرعان ما اكتشف أن لديه قناعة لاواعية منذ طفولته بأن افتقاره إلى الحماس الديني يعكس نزعة متأصلة تتمثل في الافتقار إلى العمق الروحي.

سألته ذات مرة: «ألا يمكن أن يكون السبب خلف التخلف عن الوالدين دينيًا؛ لأنه في الأعماق لا يؤمن بفكرة وجود سلطة عليا تمثل الحكمة اللازمة للحياة الرغيدة؟»، وبدأنا بالعمل التحليلي عقب هذا السؤال، ثم بدأ أرنولد يقرأ الفلسفة بجدّية؛ وتبحّر في نظرية داروين التطوّرية، وعلم النفس التطوّري، وفلسفة العلم، وأدرك في العمق ما كان يهرب منه؛ ثم صار ملحدًا منذ ذلك الحين. هكذا تبدّل شعوره المزمن بالذنب بشعور التحرّر والتجدّد الذي قاده إلى بداية مرحلة حياتية جديدة. وتزوج امرأة تشابهه في أفكاره وقيمه، وبدأ لأول مرّة مشروعًا تجاريًا يعكس مواهبه الحقيقية.

تعكس حالة أرنولد أنموذجًا مثاليًا لأشخاص من الطبقة المعولمة في كلّ مكان في العالم. أغلبهم ترعرع مع أفكار الثمانينيات والتسعينيات؛ في ذروة الأيديولوجية الرأسمالية غير المقيّدة. كانوا يسمعون في الثمانينيات عن أفراد يتقاضون رواتب من سبعة أرقام ويزيد، وكانوا يأملون التزاحم في هذا السباق. وتضاعفت في التسعينيات قصص النجاح المبكّر، مما زاد من الإلحاح الداخلي كي يلحقوا الركب ويكتنزون الأموال في أسرع وقت ممكن.

لقد استثمروا طاقاتهم في التزوّد بالأدوات التي من شأنها أن تعزّز من حصيلتهم المهنية والمادية. دفع هذا الضغط الثقافي المستمر ليوفروا «حياة مذهلة» إلى تقويض فكرة التزوّد بالمعرفة لغرض التزوّد فحسب.

تواجه المؤسسات الأكاديمية صعوبة في مقاومة هذا الضغط والحفاظ على أنموذج التعليم المتحرر بوصفه أساسًا لخلق الشخصية المثالية. كان لزامًا عليهم أن يجتهدوا للحصول على مهن مربحة في أسرع وقت ممكن.

إن هشاشة الإنسان المعولم إزاء التقلبات في قيمة سوق الأنا لها علاقة وثيقة بإضفاء الطابع الديمقراطي على الذوق (دمقرطة الذوق) الذي قمنا بتحليله في الجزء الأول من الكتاب. وعندما تكون الحياة من دون موارد داخلية مستقلة لتقييم الأفكار، والقيم، والسياسات، والنتاج الثقافي، وطرق الحياة، لن يبقى للعقل إلا شعبوية السلع الثقافية وتصنيفات ranking الذات.

ولن تعود هذه السلع للعمل إلا بصورة الميمات [1] memes. المفهوم الذي قام بطرحه الرائد في البيولوجيا التطوّرية ريتشارد دوكينز حين قارب المصطلح بمفهوم الجين[2]. الميمات عبارة عن وحدات ثقافية مثل الألحان، والأفكار، وأجزاء الموضة، وحركات الرقص التي تستنسخ نفسها من فرد إلى آخر، وتشبه الفيروسات في أن الفيروس يظهر مرونة ملحوظة مع أنه قد يقتل المضيف الذي يسكن فيه.

أفكار مثل نظرية الخلق، والحقيقة الحرفية لكتاب الوحي، ومؤامرة الصهاينة واليهود للسيطرة على العالم، والتفوّق العنصري للقوقازيين، وشعارات مثل شعار نايكي «افعلها فحسب» أو شعار ماكدونالدز «ما تراه هو ما تحصل عليه» تظهر مرونة جبارة. لذلك تنتشر هذه الأفكار مثل الفيروسات في كل أنحاء المعمورة وتسيطر على عقول ناقل محتواها.

إذا أردنا قياس قيمة الأفكار والمفاهيم والنظريات والمعتقدات بعدد الأشخاص الذين يعتنقونها، فإن النصّ الحرفي لسفر الرؤيا أكثر قيمة من فيزياء الكمّ، وافتراضات الخلق في سفر التكوين أكثر قيمة من علم الكونيات الحديث والبيولوجيا التطورية، بل إن مقاطع الفيديو لبريتني سبيرز أكثر قيمة من مقطوعات بيتهوفن وباخ مجتمعين.

---

(١) الميم meme فكرة أو سلوك أو أسلوب ينتشر عن طريق التقليد من شخص لآخر داخل الثقافة الواحدة، وغالبًا ما يحمل معنى رمزيًا يمثل ظاهرة أو موضوعًا معينًا. تعمل الميم كأنها وحدة لنقل الأفكار أو الرموز أو الممارسات الثقافية، والتي يمكن أن تنتقل من عقل إلى آخر عبر الكتابة أو الكلام أو الإيماءات أو الطقوس أو غيرها من الظواهر التي يمكن تقليدها مع موضوع محاكى. وقد أعاد ريتشارد داوكينز صياغة الميمات وعدّها نظائر ثقافية للجينات من حيث إنها تتكاثر ذاتيًا، وتتحول وتستجيب للضغوط الانتقائية، وكأنها شيء أقرب لما يرادفها من انتخاب طبيعي.

(٢) ريتشارد دوكينز. الجين الأناني (١٩٧٦).

إن الآلية في تصنيف البشر بحسب سوق الميمات في سوق الأنا أمرٌ لا مفر منه تقريبًا، ويحتفي النظام المعلوماتي والترفيهي بتصنيفات البشر هذه. يستمع الملايين بنهمٍ إلى أقوال المغني بونو (مع أنها ليست سيئة نظرًا لنواياه)، أو توم كروز (المتعصب بمذهب الساينتولوجي)، أو مادونا (التي لا تسمن ولا تغني من جوع).

تزخر الميمات التي يتداولها مستعملو النظام المعلوماتي والترفيهي العالمي بأفكار معقّدة تحتاج بعض الجهد لفهمها واستيعابها. يستطيع أي من المشاهير الوصول عبر الأثير والإنترنت إلى العقول أكثر من علماء أمثال جاريد دايموند أو ستيفن وينبيرغ.

لا تقدر العقول التي تتغذى على الخردة الفكرية أن تحكم على الأفكار على أساس الجدارة بدلاً من الشهرة، كما لا تستطيع مقاومة عدوى الميمات الضارّة حين يتغذى الجسم ليلاً ونهارًا على وجبات بائسة ومن دون تمارين رياضية. الشخص الذي يفتقر لقياس القيم ألا عبر تصنيفات سوق الأنا محكوم عليه -بلا شكّ- بالتقلبات في تقدير الذات والافتقار إلى المرونة في التعامل مع الصعوبات أو النجاحات والملذات في الحياة.

أعرب عالم الاجتماع ديفيد ريسمان في الخمسينيات في كتابه الكلاسيكي «الحشد الوحيد» The Lonely Crowd[1] عن أسفه لاختفاء الشخصية ذات الميزان الداخلي التي تسترشد بمعايير القيمة والمعنى، وظهور عقل ذي ميزان خارجي يسعى في المقام الأول إلى إرضاء الأغلبية، أو أن يسعى إلى الحظوة بشعبية المحيطين. يصف إريك فروم هذه الشخصية باسم «الشخصية التسويقية»[2]، التي تفشّت في ظلّ سوق الأنا العالمية بسبب السرعة التي تنتشر بها هذه الخردوات الثقافية في قنوات لا مداد لها في النظام المعلوماتي والترفيهي وتصنيفاته.

---

(١) ديفيد ريسمان. الحشد الوحيد: دراسة في تبدّل الشخصية الأمريكية The lonely crowd: A study of the changing American character (١٩٥٠).

(٢) إريك فروم. الهروب من الحرية (١٩٤٢).

لكـــن ثمن هذا الجهل باهظ على المســتوى الفردي أيضًـــا. يعتقد القليل من مؤيــدي النزعة الفردانيــة الغربيين أن الانغماس في التفكير الفلســفي والاجتماعــي والنفسي قد يكون طريقة مناســبة لمعالجة مخاوفهم الوجودية. إضافة إلى ذلك، كما تبيّن ســوزان جاكــوبي Susan Jacoby في كتابها «عصر اللاعقلانيــة الأمريكيــة» The Age of American Unreason، يبدو أن الســعي نحو الفكر خيار غير جذّاب مطلقًا. ينجــذب كثيرون إلى الأديان التي تبلورت في ســياق ثقافي مختلف عنهم، مثل الامريكيين الذين ينجذبون للديانة البوذية والهندوسية، مع أنهم لا يفقهون مصطلحات مثل الكارما أو السامســـارا أو اليقظة مع أنها بعيدة كلّ البعد عن الفهم الحقيقي للدين (مع احترامي للاستثناء، وهم الذين يدرسون هذه الديانات بجدّية).

يُساء فهم الفلســفات الشرقية بأنها ترتكز على الروحانية بدلاً من النزعة الغربية التي ترتكز على التفكير العقلاني. ذلك خاطئ بكلّ المقاييس، إذ تستند الفلسفة الهندية على شــبكة معقّدة من المنطق والميتافيزيقا لا تقلّ تطوّرًا عن شــبكة الفلسفة الغربية[1]. والأدهى أن كثيرين لا يدركون أن هذه الديانات الروحانية الشــعبوية المصنّعة (التي ناقشــناها في الفصل الثالث) عبارة عن خليط هجين من مصادر غير متناسقة مثل اللاهوت الهندي والكابالا.

عندما يشــعر أعضاء الطبقة المعولمة بعدم الارتياح بأن حياتهم غير مهمة، مع ما لديهم من حياة ذات اســتحقاق ملموس، يبدأون بطرح الأسئلة ذات المنحى الوجودي مثل: لماذا نشــعر بالتداعي والفراغ مع أن حياتنا الوظيفية مزدهرة؟ كانوا، مثل آرنولد، بحاجة إلى تفســيرات فلســفية كي يصوغون رؤاهــم الجديدة عن العــالم. إن تمكين القدرة على الحكــم على الإبداعات والأفكار الثقافية أمرُ ضروري بإلحاح للحفريات العقلية التي لوثتها الميمات الهجينــة. إن امتلاك هذه القدرة تزودنا بالقــوة والقدرة على التعالي بالذات وتجاوز سوق الأنا.

---

(١) انظر: توماس ميكافيللي. شكل الفكر العريق. دراسات مقارنة في الفلسفات اليونانية (٢٠٠١).

رهاب الجدل

أحد الأسباب التي جعلت أعضاء الطبقة المعولمة ينأون بأنفسهم عن السعي للإجابة عن أسئلة الرؤى عن الإيمان والمعتقدات الأساسية هو الارتباك الفلسفي الدائم. المشكلة أنهم يحاولون قدر الإمكان أن يتجنبوا النزاعات بدافع التسامح وحسن النوايا. لقد استنتجوا أن الجدل بخصوص القضايا الدينية لا يؤدي -إلا نادرًا- إلى نتيجة مثمرة. ولا يحتمل أن يغيّر أيّ من المحاورين شيئًا من منظومة معتقداتهم. وفي أحسن الأحوال يكون الجدل جافًا، ويسبب قلقًا وجروحًا عميقة، أو ينتهي في أسوأ الأحوال إلى عنفٍ مميت. نعم، إن نقاشات الأديان بين المسيحية والإسلام واليهودية تدور غالبًا في ساحات الوغى، وليست في القاعات الأكاديمية، يكفي أن تلقي نظرة خاطفة على تاريخ العالم في آخر ١٣٠٠ سنة لتفهم المقصود.

لا تصل نتائج علم النفس الوجودي إلى أن هذه النقاشات ستكون أكثر إنتاجية في المستقبل مما كانت عليه في الماضي. بل على العكس تمامًا، فإن التجارب التي تدعم أساسيات علم النفس الوجودي تفترض أن البشر مستمرون في التشبّث برؤاهم بذات الشراسة التي كانوا عليها في الماضي. لذلك يُعتقد أن الأسلم تجنب هذا الافتراض من أجل علاقات متناغمة. ولكن كيف يمكننا أن نتعايش مع فكرة أن بلايين البشر يؤمنون بعقائد تتعارض مع عقائد بلايين آخرين؟

على نطاق أضيق، كيف لنا أن نتعايش مع حقيقة أن الأصدقاء يؤمنون بمعتقدات غير عقلانية أو مغلوطة بكلّ سهولة؟ وكيف نتحاور مع المعارف المفتونين بأحدث خزعبلات سوق الروحانيات الشعبوية؟

حاول كثيرون إجابة هذه الأسئلة (أو تجنبوا إجابتها) باتخاذ شكل غامض من مذهب النسبية: «ثمة أكثر من حقيقة واحدة»؛ أو «الحجة العقلانية محدودة، أو قد تكون ثمة وجهات نظر أخرى للموضوع الواحد»؛ أو «لابدّ من وجود حقائق متناقضة» من أجل التملّص من النقاشات الحادّة[1].

(١) لقراءة هذا الموضوع أكثر انظر: تشارلز تايلر. العصر العلماني (٢٠٠٥).

التأثير السلبي لمذهب النسبية أنه شرك منطقي لا مفر منه تقريبًا. إن كان الحوار العميق والجدال الواضح بخصوص الرؤى، ولا سيّما الأديان، بلا طائل أو جدوى، فلماذا العناء بالتفكير العميق فيها؟ قد يكون الأسلم أن لا نبذل الجهد والوقت في مثل هذه الأسئلة.

لقد رأينا في الفصل الثالث أن التقليل من قيمة الفكر أصبح سمة من سمات الخطاب المعاصر بخصوص المعنى، ورأينا أيضًا أن التأثير الذي يسببه الفكر الروحاني، والميتافيزيقي يمكن تحقيقه عبر الحدس المباشر، وأن هذا الفكر العقلاني ليس له مكان تقريبًا في البحث عن المعنى.

أدى هذا التقليل من قيمة الفكر إلى استعلاء مذهب النسبية. وأصبحت الأديان والعبادات والروحانيات الشعبوية مجرد منافسين في سوق الميمات. والتدقيق بالتفاصيل لم يعد مهمًا في سوق الميمات، فقد صار الإقناع بالتلقين أكثر كفاءة.

ولا يعتمد نجاح الميمات في تكرار نفسها غالبًا على الجودة الجوهرية والقيمة الحقيقية للأفكار، ولكن على قدرتها على معالجة الطبقات البدائية من العقل، التي يعرفها كل ناشط سياسي وخبير في الإعلانات.

الصحوة الفجّة

بقي أنصار التسامح ذوو النوايا الحسنة في حالة صحوة فجّة، إذ حدث تطوران في العقدين الماضيين أسهما في إرساء مبدأ التسامح الذي من شأنه أن يقلّل النزاعات الدينية، لكن يبدو أن هذا المبدأ لم يعد فاعلاً في الوقت الحاضر.

حدث التطوّر الأول بعد أن تتابعت سلسلة من الأحداث وأجبرت الدول الغربية على إعادة التفكير في مبدأ التسامح الديني. فقد أدرك كثيرون، بعد فوات الأوان، أن ثمة مؤشرات واضحة أن الاستقامة والتهدئة القلقة لمسايرة كلّ ضروب المعتقدات، بغض النظر عن مدى تطرفها، لن تبقى إلى الأبد. فقد نشر الروائي سلمان رشدي في ١٩٨٨ عمله المثير للجدل «آيات شيطانية» في واقعية سحرية معقدة، مما أثار حفيظة العالم الإسلامي؛ لأنه قدّم

نبي الإسلام بطريقة غير لائقة[1]. وأصدر آية الله الخميني في ١٤ فبراير ١٩٨٩ فتوى تطالب بالقصاص من رشـــدي وإعدامه، وكان لزامًا على رشدي أن يقضي سنواته اللاحقة مختفيًا عن الأنظار.

لا يفاجئنا رؤية كثير من السياسيين ينتقدون سلمان رشدي بدلاً من إدانة الفتوى التحريضية التي لا لبس بفحواها. وبدلاً من الدفاع عن حرية التعبير والســماح بنقد أي شيء بدعوى الخيال أو السخرية، لكنهم رضخوا بسياسة الاســترضاء. قد يكون المفاجئ أكثر أن عددًا من الكتّاب انقلبوا على سلمان رشدي واتهموه بعدم مراعاة مشاعر المسلمين، بل قد ربط بعضهم ما قام به رشدي بالسعي عن المال والشهرة لا غير[2].

كنتُ في لندن في ١٩٩٥ حين قمتُ بزيارة متجر الكتب المفضل على قلبي: ديلونـــز (أو ووترســـتونز الآن). وكنت أتصفح العناويـــن حين أدركت أن شـــيئًا غريبًا يحدث. فقد تجمهر الناس عند المدخل، وكان بعضهم يبدو أشبه بالمخبر السري منه للقارئ. وعندما سألت موظف المتجر عما يجري، اتضح أن رشدي جاء ليوقع أحدث رواياته ذلك الوقت «تنهيدة المغربي الأخيرة». ولم يعلن عن توقيع الكتاب في أمكنة كثيرة بسبب المخاوف الأمنية، ووضعوا رشدي في غرفة خالية من النوافذ مخافة الهجمات غير المتوقعة.

وبينما أثارت قضية رشـــدي غضبًا عارمًا، أقصي مبدأ التسامح جانبًا. ولم يعـــاد التفكير إلا بعد كارثة ١١ ســـبتمبر، وتفاقمت الأزمـــة أكثر بعد مقتل المخرج الهولندي ثيـــو فان كوخ في وضح النهار في أمســـتردام في ٢ نوفمبر ٢٠٠٤، وما تبع ذلك من تهديدات حاقت بالناشطة أيان علي هيرسي، والتي دفعتها في النهاية إلى الفرار من هولندا إلى الولايات المتحدة.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل تســـتطيع الدول الغربية أن تتسامح مع التعاليم الدينية المتطرفة؟ وهـــل مازالت ملتزمة باحترام كلّ التوجهات

---

(١) سلمان رشدي. آيات شيطانية (١٩٨٩).

(٢) تشريعات غير معترف بها: مؤلفون في الفضاء العام: Unacknowledged Legislation: Writers in the Public Sphere (٢٠٠١).

الدينية على هذا النحو؟ يبدو أن مبدأ التسامح الديني متناقض مع ذاته؛ لأنه حارب نفسه بنفسه في مجتمع يحاول أن يجعل الحرية ممكنة.

هكذا عادت السياسة بعد انقطاع طويل وبكلّ قوتها، وتقهقرت عقيدة التعددية الثقافية بين ليلة وضحاها من كونها الحلّ السحري لكلّ المشكلات إلى غير ذلك، وصار موضوع دمج المجتمعات الغربية مع المهاجرين من بقية الجنسيات والديانات موضع شكّ. وصار التناغم بين الديانات والمجموعات العرقية تحت مظلة سياسية واحدة من رفات الماضي. وصار لزامًا الآن الإجابة عن «ما القيم الخاصة بنا؟» و «كيف ندافع عنها؟»[1].

لدى الإنسان المعولم نزعة عالمية على نحو غريزي، فلا يتعاطف مع القومية عادةً، ويرتدّ عن النزعة الشوفينية. أعتقد أن هذا التوجه أكثر من مجرد صوابية سياسية. نسبة كبيرة من هؤلاء لديهم هويات متداخلة: أمريكيون أفارقة، أو أمريكيون آسيويون، أو مسلمون فرنسيون، أو ألمانيون من أصول روسية، أو أشخاص من خلفيات دينية معقّدة كأن يكون الوالد يهوديًا والوالدة كاثوليكية، أو مسلم وبروتستانتية، وما إلى ذلك. بنو الإنسان المعولم اختبروا نعمة الانفتاح على الهجرة والتعددية الثقافية في حياتهم عبر الاختلاط في الدول الأوروبية أو الأمريكية أو الأسترالية التي منحتهم فرصة تطوير هوياتهم المعقدة، وآخرون عبارة عن أبناء مهاجرين نشأوا في بيئة يدركون فيها أن الانفتاح الثقافي وضعف المواطنة ميزة ثمينة لابدّ من الاعتزاز بها.

كان من الصعب ضبط النفس في الولايات المتحدة (١١/ ٩) أو لندن (٧/ ٧) أو مدريد أو ما حدث من أعمال الفوضى في ضواحي فرنسا. ولأن كثيرين شكّكوا في جدوى قيام الحكومات بالدفاع عن حيواتهم، والذود عن رؤاهم، فقد كان التقهقر إلى المواطنة اليمينية المتطرفة غير مريح. إضافة إلى ذلك، بات جليًا أن القيود المفروضة على الهجرة إلى الولايات المتحدة أدّت إلى حرم التدفق الطلابي من خارج البلاد، ولا غنى عن هذه الأدمغة الألمعية

(١) انظر: باول بيرمان. الإرهاب والليبرالية Terror and liberalism (٢٠٠٣).

التي تجلب الأموال إلى نظام التعليم العالي الأمريكي، كما خلقت شحة في الأكاديميين المؤهلين، ولا سيّما في مجالات العلوم الطبيعية.

الحدث الثاني كان استفحال اليمين المسيحي في الولايات المتحدة، والتطرّف السياسي المتزايد للدين فيها. فقد أصرّت الجماعات الدينية المحافظة على إدخال التعاليم الدينية في المناهج الدراسية بدعوى أن نظرية الخلق تعادل كفّة نظرية التطور. وملأ جورج بوش الابن المحكمة العليا بقضاة متزمتين دينيًا، وصار شبح قضية حرية الإجهاض (رو ضد وايد) واقع حال. أما العلاقات المبنية على التسامح المتبادل، فقد باتت بين ليلة وضحاها على المحك بعد أن وقف من يطلقون على أنفسهم «الأغلبية الأخلاقية» ضد ما تبنته «الطبقة المعولمة» من قضايا مثل حقوق المثليين وأبحاث الخلايا الجذعية.

ترافق مع ذلك تطورات مرعبة، فقد اتضح أن نسبة كبيرة من الناخبين الأمريكيين يفضلون سياسة متحيزة في الشرق الأوسط لصالح إسرائيل، وما كان ذلك التحيّز قائمًا إلا على أساس إيماني مخيف؛ ذلك لأنهم اعتقدوا بالتفسير الحرفي لسفر الرؤيا بأنه من الضروري أن يعيش أغلب اليهود في إسرائيل استباقًا للحرب الكبرى بين يأجوج ومأجوج؛ لأن ثلثي يهود إسرائيل سيقتلون في هذه الحرب، ويتحول الثلث الباقي إلى الديانة المسيحية، لتتحقق علامات ظهور المسيح الثاني الموعود.

عدد لا يحصى من البشر في العالم الحرّ لا يعرفون إلا القليل عن الثقافة التي شكّلت العالم الذي يعيشون فيه، والثقافة التي خلقت اللغة التي يتحدثون، والدستور السياسي الذي يمنحهم الحرية والأمان، والعلم الذي يسهم في إسراع وتيرة كسبهم للمال. أمسى مصطلح «مثقف» قديم الطراز نوعًا ما؛ لأن التفكير لا يغني عن جوع إلا في ريادة الأعمال، أو تطوير مشروع، أو شيء يخصّ التسويق أو التصميم، أما الفكر الذي يتعلق بالقضايا الوجودية الأساسية فقد بات أمرًا منتهي الصلاحية.

لقد دفع هذا الجهل المقبول عرفيًا بالثقافة الغربية وتاريخها وتعقيدها وإنجازها إلى كثير من المخلفات والعيوب. فقد ذكرت سوزان جاكوبي في كتاب «عصر اللاعقلانية الأمريكية» أن هذا الجهل مستفحل على المستوى الاجتماعي. وإن كثيرًا من خريجي الجامعات ليس لديهم معرفة تسمح لهم بالمواطنة المسؤولة، والأسوأ أنهم لا يعتقدون أن هذه المعرفة ضرورية. تستنتج جاكوبي من ذلك أن ٧٠٪ من الأمريكيين يعتقدون أن من غير الضروري معرفة أي شيء عن بلد مثل العراق (وحتى موقعه في خارطة العالم) لاتخاذ قرار بشأن سياسته. كان ثمن هذا الجهل جليًا جدًا حين قرر الناخبون في الولايات المتحدة إعادة انتخاب جورج دبليو بوش في ٢٠٠٤ على حساب الولايات المتحدة والعالم كلّه.

أتضح أن التسامح النسبي سيف ذو حدين، وأنتج عنه أقلية منبوذة جديدة في الولايات المتحدة. فقد أظهر استطلاع في مجلة نيوزويك في مارس ٢٠٠٧ أن ٦٢ ٪ من الأمريكيين قد رفضوا التصويت لمرشح ملحد لمنصب الرئيس أكثر من رفضهم للتصويت للمرشح المسلم أو اليهودي؛ لأن الدين يلعب دورًا كبيرًا في السياسة الأمريكية، ويرون الإلحاد سمة تسهم في تسريع الانحلال الأخلاقي.

والأهم من ذلك كلّه، بعد التعافي من صدمة ١١ سبتمبر، كان التأثير البائس لمنهج العداوة الذي تبنته إدارة بوش الثانية ملحوظًا جدًا، وكان التأثير الكارثي أن تتخذ القرارات السياسية على نحوٍ انفعالي بعد الخطب الدينية بدلاً من تقارير الاستخبارات، بل وصل الحال إلى احتلال البلدان من دون أي فهم لائق لهياكلها الثقافية والدينية. لقد أظهرت التقارير المتعمقة من بوب وودوارد Bob Woodward ورون سوسكيند Ron Suskind إلى أي مدى كانت إدارة بوش غير قادرة وغير راغبة في التعامل مع تعقيدات الواقع بدلاً من العيش في واقع أشبه بالوهمي لا يحتاج إلى دراسته[1].

---

(١) بوب ودوورد. حالة الإنكار: بوش في حالة الحرب (٢٠٠٧). رون سوسكيند. طريق العالم: قصة أمل في عصر التطرف (٢٠٠٨).

ومع ذلك، فإن الإنسان المعولم لم يشعر أن لديه خزينًا فكريًا كافيًا للتعامل مع الأسئلة الكبرى التي انبثقت مثل: ما العلاقة بين الدين والعلم؟ وما المكانة التي يجب أن نوليها للدين، إن وجدت، في التعليم الابتدائي والثانوي والعالي؟ وهل الدين من أطلال الأنماط القديمة والمتوارثة من ماضينا التطوّري، أو أنه ظاهرة قيّمة تمنح معنى للغالبية العظمى من البشر؟ وأتفوّقت الحضارة الغربية على الأخريات تكنولوجيًا فقط أم تعدّت ذلك إلى المعنى الأعمق؟

السؤال الأكثر إلحاحًا الآن؛ هل بالإمكان فعلاً أن تجتمع الرؤى كلّها في نظام سياسي واحد؟ وهل بالإمكان فعلاً أن يحترم البشر رؤى بعضهم بعضًا بغض النظر عن عمق الاختلافات؟ وإن كانت ثمة رؤى مختلفة عن الواقع، فكيف يمكن التفوّق على مذهب النسبية الذي يلعب دورًا قلقًا في الإجابة عن الانشغالات الوجودية الكبرى؟

التعددية غير النسبية

في البدء يجدر بنا مناقشة الفرق بين النسبية والتعددية، إذ ليس للتعددية معانٍ اجتماعية وسياسية فحسب؛ بل تحتل أيضًا مكانة مهمة في نظرية المعرفة وفلسفة العلم. سنعمد في الصفحات اللاحقة إلى تلخيص بعض الأفكار المهمة عن هذه المصطلحات على نحوٍ عجول لنفهم الاختلاف بينها[١].

على سبيل المثال، ترى الفيزياء العالم ماديًا؛ لأنها تشتغل على مستوياتها الأساسية. الهدف من الفيزياء هو العثور على المكوّنات الأساسية للواقع المادي، ووصف القوانين التي تعمل وفقًا لها. ولا نغالي لو قلنا إن حكاية الفيزياء في آخر ثلاثة قرون كانت الحكاية الأكثر نجاحًا في التقدم العلمي؛ لأن البشرية باتت تعرف عن المادة هيكلاً ووظيفة أكثر من أي وقت مضى، بل إن معرفتنا ومدى تنبؤنا للظواهر من الذرة إلى ما وراء المجرات والأنظمة الشمسية مذهلة جدًا.

---

(١) تعمقت في هذا الصدد أكثر في كارلو سترينجر. بين الهرمنيوطيقية والعلوم: بحث في أبستمولوجيا التحليل النفسي (١٩٩١).

كذلك نجد علم الاقتصاد تخصصًا ذا أهمية لا غنى عنها في عالمنا الحال. ولكن قدرة علم الاقتصاد على التفسير والتنبؤ بالأسواق المالية، وسلوك المستهلك محدودة نسبيًا. وعلى أي حال، ثمة معرفة أصيلة عن مدى تعقيد النظام الاقتصادي العالمي وإشكالاته.

عندما نفتح أي كتاب اقتصادي، لا نجد كثيرًا من الاصطلاحات والمعادلات والنظريات المشتقة من الفيزياء. تختلف مفاهيم الاقتصاد ونظرياته تمامًا عن مفاهيم الفيزياء ونظرياتها. خذ العملة بوصفها أحد المفاهيم الأساسية للاقتصاد. جميعنا يدرك أن النقود لا يمكن تعريفها بأنها شيء مادي. إنها كمية مجردة تتخذ اشكالاً وتخضع لقواعد وقوانين تختلف تمامًا عن تلك التي تحكم الأشياء المادية.

هل ذلك يعني أننا نحتاج إلى تحديد واقع ميتافيزيقي يختلف اختلافًا جذريًا عن ذلك الواقع الموصوف في الفيزياء؟ وهل نحتاج أن نضيف إلى البروتون والنيوترون والإلكترون اصطلاح الدولار واليورو والين والجنية الاسترليني والفرنك السويسري؟ أو أن مفهوم «النقود» كيان مجرد ذو شكل وهيكل مختلفين؟ على حدّ علمي لا أعرف خبيرًا اقتصاديًا يفكر بهذه الطريقة. نعم، أحاول أن أقول إننا لو أردنا وصف العالم وفق الاصطلاحات الاقتصادية، فلابدّ أن نطبق مجموعة مختلفة من المفاهيم لإيجاد قوانين مثيرة للاهتمام.

يرى الفيلسوف نيلسون غودمان Nelson Goodman أن ثمة طرقًا مختلفة يمكن معها تقسيم العالم؛ فلو نظرنا إلى الواقع نفسه من وجهة نظر فيزيائية، لحصلنا على الجزيئات الأولية وأشكال الطاقة التي تحكمها مجموعة قوانين. ولو نظرنا إلى الواقع نفسه من وجهة نظر اقتصادية، لحصلنا على العملات وأشكال مختلفة من الأسهم والموارد المالية ومعدلات التضخم. تخضع هذه الكيانات أو الهياكل لمجموعة مختلفة من القوانين، لكن لا يعني ذلك أننا نحتاج إلى اشتراط وجود واقع ميتافيزيقي مختلف في الاقتصاد مثلاً. يطلق غودمان على هذه الطرق المختلفة لتصوّر العالم «طرائق خلق العالم».

كذلك لو نظرنا إلى العلم من وجهات نظر أخرى؛ البيولوجيا إزاء تاريخ الفن، أو الكيمياء إزاء السيسيولوجيا، أو الجيولوجيا إزاء علم النفس. تعمل كلّ هذه التخصّصات على صياغة قوانين مميزة عن العالم، بذلك تقوم بتقسيم العالم بطرائق مختلفة. لا شيء مبهم في ذلك. فكر معي؛ عندما نقوم بتصميم سيارة جديدة، يعمل المهندسون والمصممون وخبراء التسويق معًا. وكلّ واحد منهم يتخيّل السيارة من وجهة نظره الخاصّة، ويستعمل مصطلحات مختلفة عن الآخر؛ يتحدث المهندس عن الهيكل والوزن والمتانة وميكانيك المواد المستخدمة، ويتحدث خبير التسويق عن هيأة السيارة وتكلفتها وسعر السوق، في حين يتحدث المصمّم عن عناصر الأناقة والجمال والطراز العام. ولا حاجة أن يفكر كلّ شخص أن السيارة مصنوعة من أجزاء ميكانيكية، وأجزاء تسويقية، وأجزاء جمالية، السيارة تصف نفسها من وجهات نظر مختلفة. لاشكّ أننا نحتاج إلى مفاهيم مختلفة لوصف هذه الجوانب المختلفة للسيارة؛ لكنها لا تمثل أجزاء مختلفة من السيارة؛ بل جوانب مختلفة، أو وجهات نظر مختلفة عنها.

إن فلسفة التعددية أطروحة مفادها أن وجهات النظر المختلفة التي نستعملها لوصف الواقع (سواء البشر أو السيارات أو العملات أو الأسواق المالية) لا يمكن اختزالها، ولا توجد طريقة لتحديد الخصائص سواء أكانت ميكانيكيًا أو تسويقيًا أو طرازًا، ولا يمكن بالمثل تعريف الاصطلاحات الاقتصادية في لغة الفيزياء، أو الاصطلاحات الجمالية في لغة الكيمياء، أو الاصطلاحات النفسية في لغة الاقتصاد.

لذلك لدينا مجموعة متنوعة من اللغات لوصف العالم، التي على الرغم من فوائدها، لا يمكن اختزالها، وذلك ما نقصد به مذهب التعددية فلسفيًا.

لكن فلسفة التعددية لا تستلزم النزعة النسبية؛ إذ تؤكد الفلسفة النسبية أن المواقف المتناقضة يمكن أن تكون صحيحة بالقدر نفسه، في حين تؤكد نسخة أضعف من الفلسفة النسبية أنه لا توجد طريقة للدفاع عن (أو معارضة) فرضية أو أطروحة أو وجهة نظر، ومن ثم فإن جميع الرؤى

متســـاوية في قيمتها. قد يكون الفرد تعدديًا ثم ينتقد بكلّ فجاجة الرؤى أو النظريات أو التقاليد الدينية أو المذاهـــب الفنية. بينما تنص التعددية أنه من غير المنطقي انتقاد الفيزياء عبر الاقتصاد أو العكس، ثمة أسباب معينة تدفع إلى عدّ النســـبية وفيزياء الكمّ أفضل من الميكانيكا الكلاسيكية. وبالمثل، ثمة أسباب تدفع إلى عدّ نظرية التطور أقوى بكثير من نظرية الخلق.

نجد مثل هذا التقاطع أيضًا في مفاهيم القيّم، يجادل عالم الاجتماع أشـــعيا برلـــين Isaiah Berlin أن القيم، وعلى الرغم من صلاحيتها الموضوعية، قد تتعارض مع بعضها بعضًا[1]. على سبيل المثال، نحن نقدّر الحرية والمساواة، ولكن عندما تزداد الأولى، تتقيّـــد الأخرى. ونحن نقدّر الولاء والمصداقية، ولكن قد تتضارب مطالب بعضها ببعض، ولا توجد خوارزمية قرار تعطينا الإجابة المثلى. تحدّد الرؤى، من بين أمور أخرى، القيم التي نراها مهيمنة. إن الليبرالية الأوروبية مستعدة للتضحية ببعض المساواة من أجل حماية الحرية؛ لأن ازدهار الفرد واستقلاليته قيمة عليا بالنسبة إليها. بينما تجد الديمقراطيين الاشتراكيين مســـتعدين للتضحية ببعض الحرية من أجل المساواة. يفترض برلين أن فلســـفة القيم التعددية لا تبحث عن حلّ مثالي لكيفية العيش؛ لأن البحث يفرض علينا دائمًا الاختيار بين القيم المتنافسة. لكن ذلك لا يعني أن الرؤى الأخلاقية والسياســـية للعالم لا يمكن مناقشـــتها عقلانيًا، ولا توجد ترتيبات اجتماعية وسياســـية أفضل من غيرها أو أسوأ، أي إن فلسفة القيم التعددية لا تشترط النسبية على الإطلاق.

الهروب من كهف أفلاطون

لســـنا ملزمين بالعيـــش في رؤى نقبلها على عمى وبلا نقد على أســـاس شـــعبيتها؛ أو لأنها جاءت على هذه الشـــاكلة، ثمة طرق للعيش وفق رؤى مســـؤولة أكثر. على الرغم من أن لا خيار أمامنا إلا أن نكتسب رؤى في ظلّ إطار مرجعي يوفر لنا معنى، ودفاعات تقينا من تهديد الأفول، من تهديد أن نكون نكرة، إلا أنه لدينا خيار استثمار تفكير متأني في هذه الرؤى.

---

(١) جون غراي. أشعيا برلين (١٩٩٥).

أحاول في هذا الفصل إثبات أن ثمة نهجًا يمكن اتباعه من أجل البحث عن التنوير والعمق الوجودي[1]، نداء للعودة إلى النظرة الكلاسيكية لأهمية الاستثمار الفكري في رؤانا، ذلك النداء الذي اختفى في العقود الأخيرة. لقد جادلت التقاليد الفلسفية من جميع الحضارات الصينية والهندية والأوروبية بأن البشر يستطيعون الفكاك من القيود المفروضة عليهم من الولادة إلى حدّ ما. إننا لسنا ملزمين بالعيش ضمن حدود رؤى لم نخترها، لكنها جاءت بسبب البيئة والنشأة المبكرتين.

ثمة صورة موجعة في جمهورية أفلاطون يرويها سقراط، الرمز الذي يستعمله أفلاطون للتعبير عن آرائه، مفترضًا نوعًا من الأسطورة التي تمثل المأزق الإنساني:

«تصوَّر طائفة من الناس تعيش في كهف سفلي مستطيل، يدخله النور من باب في طوله، وقد سجن فيه أولئك الأقوام منذ نعومة أظفارهم، والسلاسل في أعناقهم وأرجلهم، فاضطرتهم إلى الجمود والنظر إلى الأمام فقط لحيلولة الأغلال دون التفاتهم. ثم تصوَّر أن وراءهم نارًا مُلتهبة في مواضع أعلى من موقفهم، وأن بينهم وبينها دكَّة عليها جدار منخفض كسياج المشعوذين الذي يُنصِّبونه تجاه مشاهديهم، وعليه: يُجرون ألعابهم المدهشة... ولكنهم يمثِّلوننا. وأولاً أسألك: أتظن أن أولئك السجناء يقدرون أن يروا بعضهم بعضًا، أم يرون شيئًا سوى الظلال التي أحدثها اللهيب وراءهم؟

لنفرض أن أحدهم حُلَّتْ أغلاله ونهض واقفًا على قدميه، فتمكَّن من الالتفات إلى الوراء، والسير بعينين مفتوحتين في جهة النور. ولنفرض أن عينيه تتألَّمان لأن النور بهرهما، فعجزتا عن رؤية الأشياء التي كان يرى ظلالها فيما سلف، فما ظنك في ما لو أخبره أحدٌ أن ما كان يراه سابقًا ليس إلا

(١) أشعر نفسي ملزمًا إلى القول إنني تعمدت مناقشة الموضوع في ظلّ الرؤى الغربية فقط؛ لأنها الثقافة الوحيدة التي لدي أساس معتمد فيها. وأرجو من القرّاء الذين ينتمون إلى خلفيات مختلفة أن يترجموا هذه الأفكار على وفق سياقهم الخاصّ.

٢٣. للحصول على صورة مقارنة كاملة، انظر: راندال كولينز. سوسيولوجية الفلسفات: نظرية عالمية عن التغيير الفكري (١٩٩٨).

أشباحًا، وأنه الآن يرى حقائقها وأصولها، فهو الآن أدنى إلى الحقيقة منه قبلاً؛ لأنــه اتجه نحو ما هو أكثر يقينيَّة ووضوحًــا، إضافة إلى ذلك أنه يرى ما يمرّ أمامه من الأمور المنوّعة، فيسأله عنها، ويحمله على الإجابة عمّا رآه؟ أفلا تظنّ أنه يتحيَّر في أمره، ويحسب الأشباح التي كان يراها فيما مضى حقائق أكثر من الحقائق التي يراها الآن؟»[1]. يعدّ رمز الكهف واحدًا من أشــهر الصور في تاريخ الفلســفة الغربية، يوازي كثيراً من الأساطير والقصص في الثقافات الأخرى. وتشبه حكاية رحلة بوذا تجاه النور حكاية سيدهارتا غوتاما الذي كان يســعى نحو الحقيقة، إذ مرّ بتحولات روحانية جعلته يدرك أن الطريقة التي يرى بها العالم وهمية حتى الآن.

تؤكد هذه الرموز الفلســفية أن البشر عرضة للعيش في المكان الخطأ؛ لأن ظروف الــولادة قد لا تمنحنا نوعية تعليم تتيح لنا الوصول إلى أفضل تفكير أنتجته البشرية. وهكذا نجد أغلب التقاليد الفلسفية تنصحنا بعدم الإذعان للقيود المفروضة علينا للفكاك من رؤى قد تجعلنا أقرب ما يكون إلى الحقيقة.

من المشــوّق أن نفكر في اســتعارة كهف أفلاطون وتطبيقها على الوقت الحاضر. قد يكون غريبًا مدى التشابه بين حكاية الكهف وحكايات الأفلام، يكفي استبدال محركي الدمى بآلة العرض، لنحصل على النتيجة نفسها.

واحدة من أعمق التمثلات الفنّيــة المعاصرة احتمالية العيش في كذبة هي الأجزاء الثلاثة من فيلم المصفوفة The Matrix. لقد اســتعيض باســتعارة الكهف بواقع محوســب يشــبه حياتنا الاعتيادية تمامًا، يمتاز هذا الواقع بأنه يغــذي أدمغة عدد لا يحصى من البشر ممن يســتخدم بطاريات تشــغّل عالم استولت عليه الآلات.

كان بطل الثلاثية، نيو، الذي يلعب دوره كيانو ريفز، منزعجًا من الظواهر الغريبــة إلى أن تواصل معه من خارج الماتريكــس مجموعة من البشر الذين يحاولون محاربة حكم الآلات الذكية.

---

(١) أفلاطون. الجمهورية (الكتاب السابع النص ٥١٤ أ - ٥١٥ ب).

لم يكن مفترضًا أن يكون فيلم المصفوفة عملاً فلسفيًا، بل يعترف مخرجا الفيلم «الأخوان واتشوسكي» بصراحة أن مصدر إلهامهم كان أفلام الكونغ فو وقصص الكوميكس اليابانية. لكن يتقاطع السيناريو كثيرًا على أي حال مع كهف أفلاطون الرمزي وبعض الأساطير الدينية عبر فكرة مفادها أننا قد نعيش أحيانًا في حالة أقرب إلى الوهم الذهاني.

السبب في أن هذه الفرضية تلقى صدىً واسعًا أن كثيرين منّا قد أدرك أن المعتقدات التي اكتسبها مبكرًا كانت مغلوطة. وقد يكون التشكّك بهذه المعتقدات غير ضار نسبيًا؛ فليس من الصادم أن نعرف بخرافية وجود سانتا كلوز أو الجنيّات. لكن قد تكون الصحوة الفجّة مؤلمة أحيانًا، ولا سيما حين تحدث بعد البلوغ، كما حدث حين أدرك مفكرو الغرب في الثلاثينيات أن الشيوعية السوفيتية لم تكن الأنموذج السياسي المثالي الذي يستطيع خلق مجتمع قائم على المساواة، وكانت الصدمة موجعة أكثر حين عرفوا الحقيقة بشأن ما قام به ستالين. وأفضل مثال على هؤلاء المثقفين المصدومين آرثر كويستلر، وجورج أورويل اللذين تبدّلت رؤاهم كثيرًا، في حين نجد آخرين مثل جان بول سارتر لم يستسيغوا التخلّي التامّ عن الإيمان بالشيوعية بوصفها بديلاً للرأسمالية[1]. لكن الظروف السياسية من نظام ستالين وإرهاب الاتحاد السوفياتي أجبرتهم على التخلّي عن قناعاتهم الأيديولوجية فقط.

أعتقد أن كثيرًا من الليبراليين الجدد، الذين آمنوا بفكرة أن الأسواق غير المنظمة طريق زاهر لتحقيق الازدهار للجميع في ظل الديمقراطية الليبرالية، قد اختبروا صحوة فجّة مماثلة في إعادة تقييم رؤاهم. لم يكن هيّنًا على آلان جرينسبان Alan Greenspan، الرئيس السابق لمجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي بين ١٩٨٧-٢٠٠٦ والذي كان يصف نفسه بأنه «جمهوري تحرري إلى النخاع»، أن يعترف مؤخرًا بأن إيمانه المطلق بالأسواق غير المنظمة

(١) لقراءة نقد لاذع عن اليسار العقائدي، انظر: ميرلو- بونتي. مغامرات الديالكتيك Les aventures de la dialectique (١٩٥٧).

كان خطأً فادحًا ومساهمًا مخجلاً في تهويل الأزمة الاقتصادية الحالية[1]. أنا شخصيًا مررت باثنين من هذه الصحوات: الأولى حدثت في مراهقتي، عندما أدركت تدريجيًا أن العقيدة اليهودية التي نشأت عليها تهاوت أمام تدقيقي الناقد العقلاني. وكانت عملية تداعي الرؤى الخاصّة بي. لن أنسى أبدًا اليوم الذي أدركت فيه، وكان ذلك في عمر الثامنة عشر، أن الخالق موضوع قابل للنقاش[2].

وعلى الرغم من أن الفكرة تحررية في ظاهرها؛ لأنها استغرقت منّي سنوات، لكنها كانت مرعبة أيضًا. قضيت أشهرًا أعاني من نوبات قلق خفتُ في أثنائها أن أفقد عقلي؛ لأن من العسير أن تنهار الرؤى لشخص ما، حتى لو أدت هذه الانهيارات إلى أسلوب حياة أكثر واقعية وشفافية على المدى الطويل.

كذلك مررت بعملية مماثلة في العقد الماضي، فقد كنت مؤمنًا إيمانًا أعمى، حالي حال كثيرين، بالسرد الفلسفي التاريخي للتنوير الأوروبي. كنت مقتنعًا أن التاريخ محتوم إلى انتصار الديمقراطية الليبرالية، وأن العقلانية ستقود البشرية على المدى الطويل، وأن العقل لا الإيمان الذي سيدير الشؤون الإنسانية في نهاية المطاف.

بعد سقوط جدار برلين وتفكّك الاتحاد السوفيتي، اعتقدتُ أنا وفرانسيس فوكوياما وآخرين، أن التاريخ أساسًا قد انتهى، ومسألة وقت تفصلنا عن تحوّل العالم إلى آليات مؤسساتية تضمن الاستقرار والسلام للجميع. وكانت مخاضًا موجعًا في عقد كامل كي أتحرر من هذا السرد التنويري المتفائل. لذلك حاولت في هذا الكتاب أن أنقذ ما استطعت من القيمة الجوهرية للتنوير الأوروبي من حطام فلسفته المتفائلة للتاريخ.

---

(١) روجر لوينشتين، نهاية وول ستريت (٢٠٠٨).

(٢) تحدث عن الموضوع بإسهاب في كارلو سترينجر. من مذهب «يشيفا» إلى مذهب التعددية النقدية From Yeshiva to critical pluralism (٢٠٠٣) ٢٢، ٥٣٤-٥٥٨.

لكن هل هذه مأساة حقًا؟ ثمة مفهوم خاطئ مفاده أن الرؤى شيء تكتسبها مبكرًا وتتمسك بها مدى الحياة. وغالبًا ما يؤخذ على تغيير المعتقدات في أواخر الحياة على أنه علامة ضعف أو عدم استقرار أو عدم نضوج، وذلك ما لا يمت للحقيقة بصلة، لذلك لدي إعجاب عميق لأشخاص مثل كويستلر وأورويل ممن غيّروا معتقداتهم ونظموا قيمهم على أساس الأدلة التجريبية فقط.

أعتقد من تجربتي الشخصية أن الهروب من كهف أفلاطون عملية دائمة لا علاقة لها بالعمر، وتتطلب إعادة التفكير الدائم للتخلي عن المعتقدات بغض النظر عن مدى الاعتزاز بها. وقد تبدو العملية موجعة أحيانًا، والصحوة فجّة، لكنها من أهم الأنشطة دوامًا وغنى، وذلك ما جادله الفلاسفة من أفلاطون إلى ميشيل فوكو على مدى قرون وقرون.

التفكير في الأسئلة الكبرى

في كتاب «الراهب والفيلسوف» الذي نُشر أول مرة في ١٩٩٧[1]. كان الفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ريفيل يؤمن إيمانًا أعمى بمُثُل التنوير، وكان، فولتيرنا المعاصر، ينتقد بلسانٍ لاذع وقلم جريء أولئك الذين تاهوا في ضلالة الجهل أو الأيديولوجيات الشمولية أو سلبيات وسائل الإعلام، وكان يتهم رفاقه الفرنسيين بما يراه معاداة غير عقلانية لأمريكا والأمريكيين.

بينما كان ابنه ماثيو ريكارد الذي حاز على درجة الدكتوراه في البيولوجيا الجزيئية في معهد لويس باستور قبل أن يتخلى عن دراسته الأكاديمية ويكرّس حياته لدراسة البوذية. هكذا بات راهبًا بوذيًا، ومترجمًا للنصوص البوذية الكلاسيكية، إضافة إلى كتابات الدالاي لاما، الذي كان يرافقه مترجمًا شخصيًا له.

الكتاب عبارة عن حوار بين الأب والابن يجمع بين الاحترام والحدّة، فقد كان ريكارد يشرح معتقدات البوذية موضحًا الأسباب التي دفعته إلى التخلّي عن الطريقة الغربية للعيش والانتماء إلى البوذية. وبينما كان والده

(١) الراهب والفيلسوف (١٩٩٧).

مستمعًا جيدًا وناقدًا لاذعًا، وكان يحاول قدر المستطاع فهم ابنه، ولم يخجل من الإشارة هنا وهناك إلى المثالية المؤدلجة في البوذية التيبتية، ومقدار الإيمان بالسحر والخرافات الصريحة فيها.

كان ريفيل وريكارد يتجاذبان الحديث مدحًا وقدحًا في كلّ الكتاب. وقد يجد القارئ نفسه في رحلة شخصية وفكرية مكثفة. لكن بعضهم قد يتبنى فكرة أو فكرتين من الأحكام المسبقة، وآخرون قد يفلتون من التحيّز حين يكتشفون أن الغرض من الحوار لم يكن «الفوز» أو «الاستنارة»، بقدر ما يستهدف أن يجعل القارئ مُتخمًا بالعمق، والدقّة، والشفافية في آن واحد.

في كتاب «كاديش» للمؤلف ليون فيزلتير[1]، المحرر الأدبي في The New Republic، فيزلتير تخلى عن الديانة اليهودية في ريعان شبابه، وحين توفي والده في ١٩٩٦، قرّر اتباع طقوس الحداد بحسب العقيدة اليهودية مع أنه لا يؤمن بها. فقد كان المفجوع يذهب ثلاث مرات في اليوم إلى الكنيس، ويصلي على الفقيد بطقوس الكاديش التي تنصّ على تمجيد الخالق، تبجيلاً وتكريمًا لربوبيته في العالم الذي خلقه. وتلك تجربة معقدة عاطفيًا ليخوضها أي شخص كان.

حوّل فيزلتير عام الحداد إلى انغماس متواصل في التقاليد اليهودية، بحيث قرأ كثيرًا من نصوص العلماء والحاخامات عن الحداد والإيمان والموت. وكانت رحلة تخبط بين مشاعر الارتداد، والغضب، والتوق إلى الإيمان. وليس الكتاب مجرد توثيق تقليدي لعملية الرجوع إلى أحضان التقاليد التي تربّى عليها، لكنها محاولة للتواصل مع هذه التقاليد التي شكلته، وليست اعترافَ مذنبٍ بخطاياه أو مسعى للصلاح.

لقد شهدتُ عمليات شخصية خاضها أناس أعرفهم للتواصل مع ثقافاتهم ونشأتهم، وقد أحدثت هذه التبدلات الفكرية حياة أكثر اتزانًا، ولا سيّما حين بدأوا دراسات في التخصصات الإنسانية مثل الفلسفة أو تاريخ

---

(١) كاديش (١٩٩٧).

العلم أو تاريخ الأديان. للأسف، الأمثلة أقل مما أود طرحه، ولاشكّ يفوقها عددًا أمثلة لأناس أضاعوا دهرًا طويلاً في روحانيات شعبوية نصف مطبوخة ويصعب فهم كنهها. لقد قابلت عملاء وأصدقاء ومعارف كثر استنتجوا في مرحلة ما من حياتهم أن قدراتهم الفكريـة للتعامل مع المخاوف الوجودية غير كافية، وكانوا بحاجة إلى استثمار المزيد من الوقت والطاقة في التفكير في القضايا الأساسية.

شكّك بعضهم في «المسلمات» الدينية ودخلوا في حوارات فاعلة في فلسفة الدين. وبدأوا في التعرف على أديانهم بعمق، ووصلوا إلى فهم أعمق لتاريخهم وأسـس تفكيرهم. بينما أصبح الآخرون مفتونين بالفكـر الكوزمولوجي الحالي أو علم البيولوجيـا التطورية، واقتنعوا أن العلم لا يعادي الروح، بل يساعد في رؤية العالم بطرق أكثر ثراءً ووفرة، لذلك صاروا محصنين أكثر أمام أزمات المعنى مما كانوا عليه قبل أن يعالجوا أسئلة الوجود الكبرى.

إعادة قيمة السعي الفكري

أعتقد أن لدى أغلب أعضاء الطبقة المعولمة مصادر لمعالجة هذه الأسـئلة. قد يرتعبون من أسئلة مثل «إلى أين يتجه التاريخ؟» أو «هل التنوير الأوروبي متفوّق أساسًا على الثقافات الأخرى؟»، ذلك أن لديهم كلّ الأدوات الفكرية اللازمة للإجابة عن هذه التساؤلات.

بعـد تجربة طويلة من المحاضرات التي القيتهـا في تخصّصات مختلفة عن مواضيع مثـل «وجهات النظـر التطوّرية عن الديـن»، و «هل ثمة حرب فكرية؟» و «هـل الغرب يخسر هذه الحروب؟»، و «وجهات نظر فلسـفية ونفسـية عن الصراعات في الشرق الأوسـط»، و «ما الهويـة اليهودية غير المتدينة؟» لطلبة ليس لديهم استعداد لمثل هذه التساؤلات.

وكنتُ أتقصد تزويد الطلبة ببعض المصادر بشـأن هذه القضايا، وأطلب منهم الاشتغال على أوراق بحثية منها. وكنت أكتشف في كلّ مرّة طلبة في علم النفس أو الأدب أو علم الاقتصاد أو علم البيولوجيا أو علم الأعصاب، ممن لم يحضروا مسبقًا محاضرات في التاريخ أو الفلسفة السياسية أو تاريخ الأديان،

لكنهم يقدمــون عروضًا تقديمية من الدرجة الأولى في هذه المواضيع. كنت أترك دائمًا مساحة للطلبة الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والخمسين ممن قرّر العودة إلى الجامعة لتوسيع آفاقه. وكانت النتيجة إيجابية دائمًا: على الرغم من أنهم يســتغرقون وقتًا أطول في فهم الأوراق البحثية لتخصّصات بعيدة عنهم، لكن سرعان ما ينضمون إلى المناقشــات، ويضيفون إليها من خبرتهم في إدارة الأعمال، والقانون، والطــبّ، والتخصّصات الأخرى أفكار ألمعية وأسئلة أخّاذة.

لكم تأثرت بنظارة الأوراق البحثية التي يســلّمها الطلبة، على الرغم من افتقارهم لأي خلفية مســبقة عن موضوع البحث. وذلك يبيّن إلى أي مدى يمكن للاستثمار الفكري في الاســتقصاء والقراءة والمناقشة أن ينير العقول ويشــحنها بالدقّة والحيوية للإجابة عن الأســئلة الكبرى. لاشــكّ أن هذه النقاشات لن تحوّلهم إلى متخصّصين في علم النفس التطوّري وأنثروبولوجيا الدين أو فلسفة التاريخ أو صراعات الشرق الأوسط. لكن مثل هذا الغوص يوفّر الأدوات اللازمة لفهم هذه القضايــا المعقدة في منأى عن الانفعالات السريعــة لدى المتدينين أو الليبراليين أو المحافظين المتزمتين أو العلمانيين من دون استثناء.

قام كبار المفكرين، حتــى في زمن الزندقة، بابتكار فكرة لامعة عن طبيعة التعليــم الليبرالي. واحدة مــن أفضل المؤلفات التي كُتبــت في هذا الصدد كتاب «الإنســانية المهذبة» للعالمة مارثا نوسباوم[1] Martha Nussbaum. نوســباوم باحثة وفيلسوفة كلاســيكية ذات عمق معرفي يشــار له بالبنان. لقد وضعها عملها في حقل الفلســفة اليونانية والرواقية اليونانية-الرومانية موضع الرائدة في هذه الحقول، كما أسهمت في دراسات استثنائية في الفلسفة السياسية والقانونية.

يعدّ كتاب «الإنســانية المهذبــة» إنجازًا مذهلاً فعلاً، تُبين نوســباوم فيه كيف يمكن تطبيق المثالية الســقراطية في الحياة أو كيف يمكن تطبيق الفكرة

(١) مارثا ناسباوم. الإنسانية المتحضرة Cultivating humanity (١٩٩٥).

الرواقية للمواطنة العالمية في الوقت الحاضر. وعلى الرغم من أن نوسباوم تركّز في مباحثها على الثقافة الغربية، لكنها تشترط على الاستنارة أن يكتسب المرء معرفة ثقافية إضافية تختلف تمامًا عن ثقافته الأصلية.

تقدم نوسباوم حجة متينة لمدى تلاؤم، وإمكانية تطبيق أنموذج التعليم الليبرالي، أي التعليم من أجل الحصول على عقول حرّة متعلّمة مستنيرة. نشأت هذه الفكرة في اليونان الكلاسيكية، وكانت متجذّرة بعمق في روما القديمة، وتم إحياؤها في عصر النهضة الأوروبية. وتبلوّر شكلها الحديث عبر فيلهلم فون همبولت Humboldt von Wilhelm، الفيلسوف وعالم اللسانيات الذي شغل منصب وزير التعليم في بلاروسيا في أوائل القرن التاسع عشر، والذي يعدّ أول من ابتكر أنموذج البحوث الجامعية الحديثة، حيث يكون التدريسيون باحثين في الوقت نفسه، ذلك الأنموذج الذي تقف عليه كل الجامعات الكبرى اليوم. كان يدافع عن الليبرالية بشدّة، وكان يعتقد أن الجامعات الحديثة يجب أن تلد شخصيات مستنيرة ومواطنين أحرارًا يجمعون كلًّا من العلم والمعرفة. بينما كانت أشكال التعليم الكلاسيكية تقتصر على نخبة من المواطنين ذوي الموارد الفكرية والمادّية، تقترح نوسباوم أن هذه الأشكال قابلة للتطبيق في الديمقراطيات الحديثة.

فكرة التعليم الليبرالي

جادلت نوسباوم واحدة من أكثر قضايا التعليم العالي جدلاً في العقود الماضية؛ الجدل المحتدم بين الليبراليين والمحافظين عما يجب وما لا يجب أن تدرّسه الجامعات. هل يجدر بنا أن نساعد الطلبة على الهروب من كهف أفلاطون؟ أو يجدر بنا أن نقوّض أوهام الغرب بالشعور بالتعالي، وتبيان أن القوانين الغربية محض نصوص كتبها «ذكور موتى بيض البشرة»؟ تحاول نوسباوم قدر الإمكان أن تتجنب الوقوع في شرك تصوير التقاليد الغربية بأنها متفوقة على باقي التقاليد، أو أن نبالغ ونقول إنها تستبد بلياقتها السياسية.

أعتقد أنه لا توجد علاقة متينة بين مثالية الهروب من كهف أفلاطون وفلسفة السياسة المحافظة. ويبدو أن أسهل طريقة لطرح المسألة، أن ألقي

نظرة عجولة على البعبع الذي أقلق أغلب الليبراليين ليو شتراوس Leo Strauss ، رسام الكاريكاتور الشهير.

كان ليو شتراوس أستاذًا للفلسفة السياسية بجامعة شيكاغو (ومهاجرًا من يهود ألمانيا). كان يعتقد أن الديمقراطية هشة ولا يمكن حمايتها، وأن النخب يحتاجون إلى خداع العوام ليحكموا البلاد والعالم وفقًا لرؤاهم العليا، شيء أقرب للفيلسوف-الحاكم الذي ذكره أفلاطون في جمهوريته؛ وأقصد بما يطلق عليهم (المحافظون الجدد)، الذين أسسوا في التسعينيات ما سيصبح مخططًا للسياسة الخارجية للرئيس جورج دبليو بوش. لقد ارتقى بعضهم، ولا سيّما بول وولفويتز Paul Wolfowitz وريتشارد بيرل Richard Perle وإليوت أبرامز Elliot Abrams، إلى مناصب مؤثرة في إدارة بوش، وأسهموا في تضليل الشعب الأمريكي بشأن العراق، أو بشأن السياسة التي تدعم مصالح إسرائيل أكثر من مصالح الشعب الأمريكي.

تهدف أغلب الكتب التي جادلت شتراوس أن تصحّح الصورة[1]، وتصوّره الميكافيلي الساخر الذي يؤمن بالتلاعب بالجماهير التي لا يمكن الوثوق بها لتوجيه الحقيقة. كان لعدد من النقاد والمستشارين المرتبطين بإدارة بوش فعلاً علاقات عابرة بشتراوس. لكن سياسات جورج دبليو بوش لا علاقة لها بفكر شتراوس كما جادل فرانسيس فوكوياما[2]. لم يؤمن شتراوس أطلاقًا بالاستثنائية الأمريكية أو بالرأي القائل بأن أمريكا ملزمة بحكم العالم من جانب واحد، بل نادرًا ما اتخذ موقفًا بشأن الشؤون الجارية.

لم يكن شتراوس عدوًا للديمقراطية الليبرالية ولا مؤمنًا بمبدأ التلاعب بالجماهير ليدسّ الأكاذيب في العقول، لكنه رأى مخاطر جمّة في مكائد الديمقراطية الجماهيرية وآلياتها: «لا يُسمح لنا بأن نمتدح الديمقراطية تحديدًا لأننا أصدقاء للديمقراطية وحلفاء لها... لا يُسمح لنا أن نبقى صامتين بشأن

---

(١) ستيفين سميث. قراءة في ليو شتراوس: الساسة والفلسفات واليهودية Reading Leo Strauss: Politics. philosophy. Judaism (٢٠٠٦).

(٢) فرانسيس فوكوياما. أمريكا في مفترق طرق America at a crossroads (٢٠٠٦).

الأخطار التي تعرضها الديمقراطية لنفسها فضلاً عن التميّز البشري»[1]. هنا يحقُّ لنا أن نسأل: لماذا أصبح أستاذ الفلسفة ذو النظارات الانعزالي، والذي يؤلف غالبًا عن فئة معينة عن الفلسفات القديمة والوسطى رمزًا لكلّ ما كان مغلوطًا في السياسات الأمريكية الأخيرة؟ أعتقد أن السبب الأعمق هو ارتباط شتراوس بأحد أكثر اللعنات شعبية في الخطاب السياسي الحالي: ألا وهو النخبوية.

حكم جورج دبليو بوش في ثمانية أعوام أقوى دولة في العالم عبر مهاجمة النخب وتقديم نفسه بأنه صديق الشعب (بغض النظر عن أن جورج دبليو بوش ينتمي إلى عائلة ثرية وشهاداته جاءت من جامعتي ييل وهارفارد)، هكذا تغلّب على منافسيه الذين بدا أسلوبهم نخبويًا ومتعاليًا مع أن برنامجهما الانتخابي يتقاطع مع احتياجات الجميع ما خلا الأغنياء.

إن عملية شيطنة النخب وتقديم المرشحين لأنفسهم بأنهم شعبويون فكرة سياسية مبتذلة ومنتشرة في كلّ الدول الديمقراطية، فقد تبدّل الفكر المتعمق عن طبيعة الديناميكية السياسية والصالح العام باستراتيجيات وتكتيكات ابتكرها مستشارون مدفوعون للتلاعب بمشاعر الناخبين لا غير.

كان شتراوس بعيدًا عن السياسة تمامًا، في حين كان المستشارون يطلبون من السياسيين التنميط الحالي من الشعارات، وكانوا يدربونهم على الظهور مؤثرين أمام شاشات التلفاز للتلاعب بمشاعر الناخبين. السياسة التي نشهدها في حياتنا اليومية تعدّ الخطر «الذي تعرض له الديمقراطية نفسها والمثالية البشرية أيضًا». لذلك كان شتراوس يجد أن «التعليم الليبرالي خير سلّم نحاول عبره الصعود من الديمقراطية الجماهيرية إلى الديمقراطية الأصل. التعليم الليبرالي محاولة ضرورية لتأسيس أرستقراطية داخل المجتمع الديمقراطي الجماهيري، محاولة أن يذكّر أعضاء الديمقراطية الجماهيرية الذين لديهم آذان تسمع بعظمة الإنسان».

(١) أُخذت جميع الاقتباسات من ليو شتراوس من الورقتين البحثيتين الشهيرتين: «ما التعليم الليبرالي؟» والأخرى «التعليم الليبرالي والمسؤولية». والتي أعيد طبعها في ليو شتراوس. مقدمة في الفلسفة السياسية (١٩٨٩).

قد تكون كلمة واحدة من هذا القبيل في عصر الصوابية السياسية الحالية كافية لإثارة الغضب والهيجان. قد يساء بسهولة فهم استعمال مصطلح «الأرستقراطية» على أنه دعوة للإبقاء على السلطة السياسية في أيدي قلّة من الأشخاص النفعيين ذوي الصلات والأموال الكافية لدفع رسوم التعليم العالي.

أصدقكم القول إن شتراوس نفسه جاء من الطبقة الدنيا والمتوسطة؛ فقد درس في برلين، ثم عُيّن أستاذًا في جامعة شيكاغو في أواخر الأربعينيات، لم يكن قادرًا على تغطية نفقاته. كان يطمح طوال حياته أن يدرّس تاريخ الفلسفة، إذ كان يظنّ أنه لا يوجد ما ينفع العقل أكثر من هذه التجربة.

يكتب شتراوس: « التعليم الليبرالي الذي يمنح اتصالاً مستدامًا مع العقول العظيمة يعدّ تدريبًا على أرفع ضروب التواضع والعفّة؛ لأنه يتطلب التصميم على عدّ وجهات النظر محض آراء، أو عدّ الرؤى الاعتيادية محض رؤى يحتمل أن تكون خاطئة مثل الرؤى الغريبة أو الأقل شعبية. التعليم الليبرالي تحرّر من الابتذال في حدّ ذاته».

هنا يذكر شتراوس مجددًا شيئًا قد يثير الحنق في عصرنا من الصوابية السياسية الحالية: من يكون هو ليطلق على أي شخص أو أي شيء مبتذلاً؟ لتوضيح ذلك يمكننا استحضار تجربة أكثر طلبة شتراوس شهرة، آلان بلوم Allan Bloom، الذي يعشق مشاهدة كرة السلة. كان بلوم يقول إن أجمل ما في مشاهدة الرياضات الجماهيرية إمكانية إطلاق العنان لميل متأصل في جيناتنا: أن نتودد إلى أقربائنا ونقصي الآخرين. إننا نستمتع بأننا لا نحتاج إلى صقل مشاعرنا وأفكارنا، ونستطيع لعن من نشاء وننحاز كما تدفعنا طبيعتنا الحيوانية لأن نكون. كذلك تحدث آلان بلوم الذي كان يسب ويلعن خصوم فريق سلة شيكاغو بولز Chicago Bulls، التحق بركب شتراوس بأن نسعى جاهدين من أجل أرستقراطية العقل، في مسألة لم تؤخذ بالولادة ولا بالعلاقات، يذكر في كتابه انغلاق العقل الأمريكي The Closing of the American Mind، وكأن الأمر يحتاج العمل عليه كلّ يوم، في منظومة فكرية وشعورية من دون أن ننجرف بعيدًا عن جادة العواطف في

مناسبات غير ضارة مثل مشاهدة الألعاب الرياضية. قد تسهم عملية تحقيق أرستقراطية العقل في التعليم الليبرالي، الأنموذج الذي أفترضه شتراوس، في تزويد الفرد بالتحمّل والقوة الداخلية كي لا ينجرف مستقبلاً حين يكون من أصحاب القرار في موجة آراء لمجرد أنها ذات شعبية وشهرة.

لا يختلف أنموذج شتراوس بالطبع عن اليوتوبيا الأفلاطونية لفلسفة سقراط، إذ لم يتقبل سقراط أي رأي، مهما كان شعبويًا أو متعارفًا عليه في ظاهره. قضى سقراط حياته مشكّكًا، على الرغم من فقره، وكان يحاول إقناع مواطني أثينا بالترفّع عن الجهل الشعبوي والتحرّر من أجل تفكير واضح خالٍ من المقلقات. لكن أثينا قرّرت في النهاية أن تنهي حياة سقراط بسبب مسعاه، المصير الذي يظهر مدى الكراهية التي يمكن أن ينتجها الفكر المستقل.

كان شتراوس مدركًا تمامًا أن من المرجح سيادة الفكر المتباين والعميق في الديمقراطيات الجماهيرية. ولد شتراوس في ألمانيا في ١٨٩٩ في أسرة يهودية متدينة، وشاهد بأمّ عينيه كيف أدّت حكومة فايمار الديموقراطية إلى تربّع النازيين على عرش السلطة، وكيف سمّمت معاداة السامية عقول الناخبين الألمانيين إلى درجة أنهم انتخبوا شخصًا أخرقَ لا يستطيع تأليف كتاب أكثر من «كفاحي». لكن شتراوس لم يظنّ مطلقًا أن الانغماس في النصوص الفلسفية قد يحصّن العقل من الانجراف في المعتقدات المغلوطة والمبالغ بها؛ الحكمة لا يمكن فصلها عن الاعتدال، لذلك تحتاج الحكمة إلى ولاء غير متردد لدستور لائق. وهكذا قد يكون صوابًا القول إن كلّ مثقف ليبرالي قد يكون معتدلاً سياسيًا.

لماذا تبدو الدعوة إلى التواضع، والتفكير المعتدل والحذر أمرًا منفصلاً عن الصورة النمطية للشخص المتلاعب والساخر بالجماهير؟ ولماذا تبدو دعوة شتراوس «لتأسيس أرستقراطية في الديمقراطية الجماهيرية» نذير شؤم بالنسبة إلى كثيرين؟ أعتقد أن المسألة مجرد كراهية للفكر، كراهية لفكرة أن نكون أكثر حكمة، أن تكون عقولنا حكيمة تحتاج إلى تدريب، وأرواحنا بحاجة إلى قوة لاحتواء الصراعات والتخلص من التعقيدات. أنا شخصيًا لا أتفق مع شتراوس في مواضع كثيرة؛ إذ أعتقدُ أنه أستخف كثيرًا بأهمية العلم التجريبي

في تكوين العقل النقدي. فإذا كان قد اتبع سبيل أفلاطون، لكان قد توصل إلى استنتاج أنه من دون المعرفة بالعلوم الطبيعية، لأصبحنا عالقين في كهف الوهم. لذلك لابدّ لنا أن نكتسب معرفة تاريخية واقتصادية واجتماعية للهروب من الكهف الأفلاطوني. أعتقد أن حجة شتراوس تتركز على فكرة مفادها؛ بما أن حياتنا قصيرة، يجب أن نركز عليها حصرًا. بينما تشترط مارثا نوسباوم في أنموذج التعليم الليبرالي نحو المواطنة المعولمة أن ندرس ثقافة أخرى، ثقافة واحدة غير ثقافتنا على الأقل، وقد وافق حجتها كثير من الباحثين.

لذا لا أتفق مع شتراوس في أن قراءة النصوص الكلاسيكية الطريقة الوحيدة لتفعيل أرستقراطية العقل. وعلى الرغم من تحفظاتي على جوانب من آرائه، فإن دعوته للحفاظ على فكرة التعليم الليبرالي والسعي نحو استقلال (ما يطلق عليه أرستقراطية) العقل تبدو لي حاجة ملحّة وفي وقتها المناسب. لقد وجدتُ، بعد خمسة وعشرين عامًا من التدريس في الجامعات، أن أرستقراطية العقل الشتراوسية يمكن تحقيقها عبر الطلبة ذوي الاختلافات والخلفيات الاجتماعية والاقتصادية. ولا علاقة لأرستقراطية العقل بالولادة، لكن لها علاقة كبيرة بالروح التي يتعلم بها الطلاب.

ثمة سؤالان مهمّان يبرزان للسطح حين نتحدث في نقاشات التعليم العالي: كم عدد الطلبة المقبولين في الجامعة؟ وما المبلغ الذي يجب عليهم دفعه؟ إن كان يُنظر إلى المؤسسات الأكاديمية نظرة الجهات التي تقدّم شهادات للحصول على وظائف، فلا يمكن أن نحصل على أرستقراطية العقل، بغض النظر عن مبلغ الرسوم الدراسية. وهكذا أمست المؤسسات الأكاديمية مجبورة تحت ضغوط سياسية وشعبية أن تصدّر شهادات علمية لا لشيء إلا للشهادات[1].

---

(١) يمكن الاطلاع على دفاع متحمس عن نظرية التعليم الليبرالي في. أنطوني كرونمان. نهاية التعليم: لماذا تخلت كليّاتنا وجامعاتنا عن معنى الحياة؟ Education's end: Why our colleges and universities have given up on the meaning of life (٢٠٠٨). هاري لويس. شهادة بلا روح: هل للتعليم الليبرالي مستقبل؟ Excellence without a soul: Does liberal education have a future? (٢٠٠٧).

الجامعة الحديثة واحدة من أعظم إبداعات البشرية؛ صُمم هيكلها في أوائل القرن التاسع عشر في ألمانيا. وكانت تفترض أن التعليم من أجل حرية العقل يجب أن لا يقف عند حدود نقل المعرفة، على الرغم من أن المعرفة شرط لا غنى عنه. يجب على الطلبة أن يدركوا كيف تتولد المعرفة، لذلك كان نظام الجامعة الحديثة جامعة للبحث والتدريس؛ فلا يفترض أن يشارك الأساتذة في نقل المعرفة فقط، ولكن في البحث عن الحقيقة، ولابد أن يشاركهم الطلبة هذه التجربة. أعاد كارل ياسبرز صياغة هذا الأنموذج بطريقة مؤثرة في كتابه «فكرة الجامعة» الذي نشره في ١٩٤٦. وقد طلبت منه دول التحالف أن يسهم في إعادة خلق نظام الجامعات الألمانية التي تعرّضت لأضرار جسيمة في الحقبة النازية. كان تركيز ياسبرز ينصب على دمج الطلبة في مجتمع الباحثين عن الحقيقة. وكان يعتقد أن هذا المجتمع الذي يشكل شخصية الطلبة، وقد جسد هذا السعي من أجل الوضوح في حياته الشخصية ووظيفته.

تبدو صياغة ياسبرز لفكرة الجامعة بعيدة كلّ البعد عن الواقع المعاصر. إذ تتعرض الجامعات، حالها حال العلامات التجارية، إلى ضغوط جبّارة للتنافس في أنظمة التصنيف لتكون جذابة للمانحين والشركات التي ترغب في التعاون معها. ومن ثمّ يكون الاهتمام بالمعرفة وإعداد الطلبة للالتحاق بوظائف مربحة. تحتاج مجتمعاتنا للوقوف بوجه هذا الضغط العالمي. إننا ندفع هذا الثمن يوميًا حين نرى المواطنين غير المتعلمين في السياسة في مشهد محزن على شاشات التلفاز، الشاشات التي تحوّلت إلى نسق ترفيهي بدلاً من أن تكون قضية رأي عام[1]. لقد باتت ساحة المواجهات التليفزيونية تعاني من ثمن باهظ في شكل سياسات تعتمد الخوف والكراهية بدلاً من التفكير الواضح الشفاف[2]. هذا الثمن آخذ في الارتفاع في عالم يتعامل مع تعقيد متصاعد في صراع بين الرؤى وبين الدين والعلمانية.

---

(١) بيتر سلوتردايك. السخط والزمن Zorn und zeit (٢٠٠٦). هذا الكتاب يقدّم حجة قوية مفادها أن وسائل الإعلام قد حولت السياسة إلى وريثة للساحة الرومانية.

(٢) بيتر سلوتردايك. لابدّ أن تغيّر حياتك Du mußt dein Leben ändern (٢٠٠٩). ويقدم هذا الكتاب حجّة لا بأس بها لضرورة تدريب الذات على التحضر، إن أردنا أن يبقى العالم المعولم على قيد الحياة.

الفصل الثامن

العلم والدين
الازدراء المتحضر والمذهب الأبيقوري

المشكلة الوحيدة التي دفعت الإنسان المعولم إلى النأي بنفسه عن الرؤى تلك المشكلة العويصة المتمثلة في الصراع بين العلم والدين والعلمانية. الصحوة الفجّة التي وصفناها في الفصل السابق، وإدراك أن الأديان قد تدفع إلى نوع من الرعونة، والفجاجة، ونوع من أنواع العنف، هي التي دفعت كثيرين يؤمنون بأن الحوار بين الدين والعلم أمرٌ مستحيل.

من وجهة نظر عالمية، لا تزال الأديان الكبرى أهم النظم التي توفر للعالم معنى. وجدت الدراسات الحديثة أن حوالي ٨٥٪ من سكان العالم متدينون. ويضمّ الدين المسيحي أكبر نسبة في حوالي ملياري نسمة، يليه دين الإسلام (حوالي ١,٥ مليار نسمة)، والهندوسية (حوالي ٩٠٠ مليون نسمة)، والبوذية (حوالي ٣٧٥ مليون نسمة). تمثّل هذه الأديان الأربعة وحدها أكثر من ٧٠٪ من مجموع سكان العالم[١]. ولا يمثّل الملحدون واللاأدريون إلا ١٢ إلى ١٥٪ من المجموع، مع أن هذا التقدير إشكالي لصعوبة الحصول على بيانات عن التوجّه الديني في الصين. ولا توجد نسب موثوقة بحق ما خلا -في ما أعتقد- في الدول الأوروبية[٢].

---

(١) مسح المشهد الديني في الولايات المتحدة (٢٠٠٨). منتدى بيو للدين والحياة العامة.

(٢) يتضمن مسح القيم العالمية على بيانات مهولة عن هذا الموضوع. للمزيد من المعلومات يمكنكم الرجوع إلى الموقع http://www.worldvaluessurvey.org.

لا يُستغرب أن يبقى الدين هو الصوت الأعلى من وجهة نظر علم النفس الوجودي؛ لأن الخلاص من قلق الموت أهم وظيفة توفّرها الرؤى، ولا يوجد ما هو أفضل من الدين منظومة توفّر للعالمين معنى. تفترض الأديان، ولا سيّما الديانات التوحيدية الكبرى، أن موتنا الجسدي ليس غايتنا حقًا، وأننا سنظلّ أحياءً بطريقة أو بأخرى. بينما تعتمد أديان أخرى، مثل الهندوسية والبوذية، على الإيمان بمذهب التناسخ. نعم، إن الأديان أكثر منظومة تلتزم بأطروحة «إنكار الموت».

يثبت علم النفس الوجودي بالدليل المنطقي المتين أن التنبؤ بتبدّل حكم الدين التنويري الأوروبي إلى حكم العلم يومًا ما من الأيديولوجيات العلمانية غير مرجح تحقيقها. إن حاجة الإنسان لإنكار الموت قوية جدًا، وإن احتمال أن يبقى البشر يتناحرون ويتقاتلون من أجل حماية معتقداتهم مرتفعة جدًا، ولا سيما حين يشعرون بالتهديد.

كان ذلك أحد الأسباب العميقة للتقهقر بالفكر إلى نسبية الصوابية السياسية، إذ تنصّ عقيدة الصوابية السياسية على أن الطريقة المتحضرة الوحيدة للتعايش تتمثل في احترام معتقدات الشعوب مادام هناك من يعتنقها. كان المغزى من هذه العقيدة أن اللطافة والاحترام مع بعضنا بعضًا، يضمن لنا التعايش تحت سقف السياسة نفسها. لكن هذه العقيدة فشلت؛ لأنها وصفة زائفة إلى حدّ ما، ومن المستحيل أن يحترم الفرد المعتقدات بصدقٍ بغض النظر عن كونها (أو عدم كونها) عقلانية أو أخلاقية أو سخيفة. كان الحوار الناجم عن هذه العقيدة جامدًا عاطفيًا من دون أن يقود إلى مناقشة مثمرة بين الرؤى عمومًا، وبين العلمانية والدين على وجه الخصوص.

أجادل في هذا الفصل عقيدة «الازدراء المتحضر» Civilized Disdain، ذلك البديل عن الصوابية السياسية الأكثر انسجامًا وأصالة مع ما نشعر به فعلاً تجاه الرؤى التي لا نوافق عليها أخلاقيًا أو فكريًا. الفرق بين الازدراء المتحضر والصوابية السياسية أن الأول يسمح للشخص أن يشعر بالازدراء لرؤى الشخص أو المجموعة ومعتقداتهم مع احترام البشر الذين يعتنقونها. عبر تجربتي في الجدال السياسي والجهود المبذولة لخلق أرضية عملية مشتركة

بين اليهود المتطرفين وأتباع الإسلام السياسي، وجدت أن الازدراء المتحضر كان مثمرًا جدًا في خلق روابط إنسانية ذات قيمة. قد يكون الانضباط العقلي المطلوب للازدراء المتحضر حاسمًا لنوع المواطنة العالمية التي تسمح بالتعاون المثمر عبر الانقسامات الأيديولوجية.

الفرسان الأربعة المبشرون بالهلاك

الإلحاد يضرب من جديد

تحتاج عقيدة الصوابية السياسية إلى الصمت والتظاهر باحترام المعتقدات الدينية على أقل تقدير. لكنْ ثمة عاملان غيّرا هذا الشعور في العقد الماضي: الأول يتمثل في مهاجمة العلم، ولا سيّما نظرية التطور، من الأصوليين المسيحيين في الولايات المتحدة. وبات جليًا أن تأثير الدين على العلم واقع حال، لاسيّما بعد إدخال نظريات التكنولوجيا في مناهج المدارس الثانوية. والعامل الثاني يتمثل في الجهاد الذي أطلقه الإسلام الأصولي على الغرب. وقد تكون آثار ذلك مبكرة بعد فتوى سلمان رشدي في ١٩٨٩، المهم أن المحاولات السابقة كانت تهدف إلى التهدئة لا المحاربة. لكن التخبطات ضدّ الحداثة من الطرفين[1] دفعت بعض المفكرين إلى تبني الدفاع عن الثقافة الغربية والعلمانية.

ثمّ ترادفت سلسلة من الكتب المتفاوتة الجودة ممن تدافع عن العقلانية والعلم وتهاجم الأديان، كان أشهرها الرباعية، التي أطلق عليها عالم الأنثروبولوجيا سكوت أتران Scott Atran اسمًا فكاهيًا «الفرسان الأربعة المبشرون بالهلاك» The Four Apocalyptic Riders[2]. نشر سام هاريس Sam Harris كتابه الشجاع «نهاية الإيمان»، الذي جادل

---

(١) كان جلّ تركيز المذهب اليهودي الأصولي المتزمت بخصوص الدفاع عن الحق الأبدي لليهود في العيش في إسرائيل أو ضرورة تطبيق القيود الشرعية على الحياة اليومية في إسرائيل. ومن ثمّ كان أقل اهتمامًا بالعلم والعقلانية في هذه السنوات. انظر: أفيزير رافتسكي. المسيحية والصهيونية والراديكالية الدينية اليهودية Messianism. Zionism. and Jewish religious radicalism (١٩٩٧).

(٢) يُنسب اللقب إلى سكوت أتران Scott Atran؛ لأنه استعمل المصطلح في مؤتمر «ما بعد الاعتقاد» Beyond Belief، والذي شارك فيه هاريس ودوكينز، لكنه أعترف لي أن المصطلح ليس من بنات أفكاره، لذلك سأستعمل المصطلح من دون أن أشير إلى أصله.

فيه دور الدين في الشـؤون العالمية[1]. تبعه كتاب الفيلسـوف دانيال دينيت Daniel Dennett «كسر اللعنة»[2]، والذي يعدّ نقدًا لاذعًا للدين وفق علم النفس التطوري. ونشر دوكينز Dawkins كتابه «وهم الإله» في ٢٠٠٦، الذي يمتاز بسهولته ووضوحه. وآخر السلسلة كتاب الصحفي كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens «الخالـق ليس بذاك العظيـم»[3]؛ الذي يصف فيه بنبرية حماسـية غـير منهجية كيـف تسـمّم الأديـان كلّ شيء. انظم هـؤلاء «الفرسـان» انضمـوا إلى الفيلسـوف الفرنسي ميشـيل أونفراي Michel Onfray في بيانه الإلحادي The Atheist Manifesto[4].

تختلف هذه الكتب الأربعة كثيرًا في نبرتها وأسلوبها؛ يحاول هاريس تبيان كيف أن الدين مؤذٍ وكيف يضرّ من ناحية الشـؤون الإنسـانية. بينما يحاول دينيت، بأسلوب عدواني غاضب، أن يشرح الأسس التطورية للدين ويفسر كيف يفشل الدين في زيادة أخلاقية البشر. أما كتاب دوكينز، الذي يعدّ أقل عدوانية من نظيره دينيت، فإنه يشـكو من القسوة والظلم التي يسبّبها الدين في شـلّ عقول الأطفال، ويحـاول تبيان أن التفكير العلمـي يعدّ حتى الآن أعظم منجز حقّقه الجنس البشري.

بينما هيتشنز لم يتهاون في اللكمات، والطعن، ولم يقبل المساومة أو التماهي في الصوابية السياسية. كان الكتاب عبارة عن وابل من الإدانات اللبقة وغير المنهجية حيال الدين من دون تتبع منهج منطقي. وكان كتاب أونفراي أكثر فلسـفية بطبيعته، مقدمًا حجّـة مقبولية أن تكون الإنسـانية خالية من آثار الأديان. حقّق كتاب ريتشـارد دوكينز «وهم الإله» انشـغالاً لافتًا، بسبب

---

(١) سام هاريس. نهاية الإيمان: الدين، والرعب، ومستقبل العقلانية. The end of faith: Religion. terror. and the future of reason (٢٠٠٤).

(٢) دانيال دينيت. كسر اللعنة: الدين بوصفه ظاهرة طبيعية Breaking the spell: Religion as a natural phenomenon (٢٠٠٥).

(٣) كريستوفر هيتشينس. الخالق ليس بذلك العظيم: كيف يسمّم الدين كلّ شيء God is not great: How religion poisons absolutely everything (٢٠٠٧).

(٤) ميشال أونفراي. البيان الإلحادي Atheist manifesto (٢٠٠٧).

شهرة مؤلفه وإعادة الصياغة فيه لمبادئ البيولوجيا التطوّرية الداروينية[1]، وإتاحتها للجمهور المتعلم على نطاق أوسع. بيعت من هذا الكتاب ٥ , ١ مليون نسخة وتُرجم إلى ٣٥ لغة.

لم يكن دوكينز يرتضي أي مساومة بين الدين والعلم، وكان متزمتًا في هدم الجسور بينهما عبر تسقيط المحاولات التي تهدف إلى تفسير النصوص الدينية بحسب الأخلاق الحديثة أو تجاوز الشؤون الدينية التي تسيء إلى الحساسيات الحديثة (مثل نصوص العهد القديم التي تأمر بإهلاك القبائل التي لا تؤمن بإله التوراة والإنجيل)[2].

كان كلّ همّه أن يمضي قدمًا في جدلية أن الدين في النهاية شأن سيئ. كان يشكو من التعليم الديني، ويشكك في لا منطقية ما نغرسه في عقول الأطفال. وكان يستند على علم النفس التطوّري ليثبت أن الدين يشوّه واحدة من السمات التطوّرية في العقل الطفولي؛ سذاجة الأطفال. تساعد سذاجة الأطفال من تسهيل اتباعهم لخطى البالغين لينقذوا حياتهم (كأن ننصح «لا تقترب من الأسد؛ لأنه سيأكلك!» أو «لا تضع أصابعك في القابس الكهربائي؛ لأن ذلك يعرض حياتك للخطر!»)، بافتراض أن التعليم الديني يغرس الخشية من الجحيم أو اللعنة أو العذاب الأبدي بسبب «الخطايا» مثل: التشكيك في وجود الخالق، أو في الكتاب المقدس، أو ممارسة العادة السرية. هكذا يجد دوكينز نفسه حازمًا في اتباع أحد الخيارين؛ إما أن نسلك طريق التنوير والعلم الحديث، وإما أن نكون غارقين في وحل الوحشية واللاعقلانية أمام المنطق والسعي الحرّ نحو ازدهار الطبيعة البشرية.

---

(١) انظر أيضًا: ريتشارد دوكينز. الجين الأناني (١٩٧٦). حقّق هذا الكتاب قفزة نادرة في التاريخ الفكري. إذ كتبه دوكينز في الثلاثينيات من عمره في محاولة لتقديم المبادئ الأساسية للبيولوجيا التطوّرية بعبارات هضمها. أمست أطروحته «الجين بوصفه وحدة الانتقاء التطوّري» انطلاقة لما يعرف بالداروينية الجديدة. انظر: مقالات غرافين ورايدلي. ريتشارد دوكينز: كيف غيّر أحد العلماء طريقة تفكيرنا Richard Dawkins: How a scientist changed the way we think (٢٠٠٦).

(٢) أعتقد أن بعض مواقف دوكينز بحاجة إلى مزيد من الصقل، ولا سيّما نقاط التقاطع بين العلم والدين، فلا يوجد إجماع بين العلماء على أن هذين القطبين يتنافسان في ما بينهما. لقراءة نقد مدروس أكثر، انظر: تيري إيغلتون. العقلانية والإيمان والثورة: تأملات في جدلية الإله Reason. faith. and revolution: Reflections on the God debate (٢٠٠٩).

الاستخفاف بالدين

استراتيجية خسران الذات

منذ أن قرأت كتاب الجين الأناني منذ ٢٥ عامًا، أعجبت على الفور بأعمال ريتشارد دوكينز؛ لأن إعادة صياغته للفكر الدارويني، ووضوح أفكاره، وقدرته على تقديم حجج شديدة التعقيد على نحوٍ قريب مثالٌ حي لروح العلم الحديث وقيم التنوير. لكنني انزعجت كثيرًا من عدم الاتساق في مقاربته، ولا سيّما في السنوات التي أعقبت كتابه «وهم الإله»؛ لأنه يحاول في هذا الكتاب إثبات (أ) أن حجة وجود الخالق والنصوص المقدسة في مختلف الأديان التوحيدية غير صحيحة، (ب) وحجة أن الدين يجعل الناس يتمتعون بأخلاقية فيها مغالطة كبيرة، (ج) وإن التعليم الديني هدّام إلى حدّ كبير ويمنع معتنقيه من التحرّر بأفكارهم حقًا.

يصدف أنني أتفق معه في النقاط الثلاث، لكني أتساءل ما الذي يحاول تحقيقه؟ لقد صرّح مؤخرًا أنه يأمل في إقناع المتدينين الذين لم يفكروا في هذه القضية عبر السخرية من معتقداتهم الدينية، معتقدًا أن هذه الطريقة لا بأس بها لكسبهم عبر تبنّي الرؤى العلمية.

أدهشني دوكينز في استراتيجية السخرية والتهجم المباشرين مع ما يتبناه من منهج علمي مع أنه يدرك طبيعة العقل البشري. يحاول علم النفس الوجودي أن يمدّ جسرًا للتعامل مع الصراع بين العلم والدين. لقد أوضحنا سلفًا أن البشر حين يستشعرون أن منظومة معتقداتهم تتعرض للهجوم، يحفرون أعمق من ذي قبل في خنادق رؤاهم. حتى لو اتفقتُ مع دوكينز، ودينيت، وهيتشنز في أن الليبرالية يجب أن لا تتسامح مع الهجمات الإرهابية؛ لكن لا يمكن أن تقنع شخصًا عاقلاً في أن المتدين قد يتخلى عن عقيدته، وذلك ما تؤكده نتائج دراسات علم النفس الوجودي. الإحصاءات عن انتشار المعتقدات الدينية في أنحاء العالم، ونتائج علم النفس الوجودي ترجّح استحالة اختفاء الدين من المشهد البشري. إرهاب الموت الغرائزي، الذي نحتاج جميعًا أن ندافع عنه، يتطلب دفاعًا عن الرؤى، وذلك ما طرحناه في هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا.

إذا نظرنا إلى الأديان من وجهة نظر داروينية، فإنها ميمات، وحدات ثقافية تتنافس على عقول الأفراد والجماعات. ميزتها التكيفية جبارة؛ لأن أغلب الأديان الرئيسة تنكر موت الفرد بالمعنى الحرفي للكلمة، وأنها تَعِد المؤمنين بحياة أبدية من نوع ما. لم تنتشر الميمات، كما رأينا، لقيمتها الجوهرية ولا لإسهاماتها في رفاهية البشرية، ولكن لجاذبيتها ومدى خدمتها للاحتياجات النفسية مثل العزاء.

وذلك بالضبط ما حدث في العقود الماضية: كلّما أثّرت الثقافة الغربية العلمانية على التقاليد في الديانات الإبراهيمية الثلاثة، ازدادت النسخ الأصولية هجومًا على العلم والليبرالية بوصفها مصدر مفسدة وانحطاط. فإن كانت نظرية دوكينز صحيحة، فإن التفوق التكنولوجي سوف يشعرهم بالتفاهة، ومن ثم يكون لزامًا عليهم أن يتخلّوا عن منظومة معتقداتهم. لكن العكس هو ما حدث؛ وجدنا كيف يشدد الوهابيون على تطهير الإسلام من النفوذ الغربي، وكيف يهاجم اليمين الأمريكي نظرية التطوّر، كانت ردّة الفعل الأصولية مرعبة إلى حدّ ما.

مما يثير الفزع والرعب أيضًا، تلك الطريقة الخجولة التي تعتمدها العلمانية، في كلّ من أوروبا والولايات المتحدة، لاسترضاء الهجمات الدينية من الفتاوى التكفيرية إلى وقف تمويل أبحاث الخلايا الجذعية في إدارة بوش. مثل هذا الاسترضاء لا ينفع إلا على تشجيع المزيد من الهجمات. وذلك ما يشاركني إياه بعض الفلاسفة مثل برنارد هنري ليفي[1] Bernard- Henri Lévi وآلان فينكيلكراوت[2] Alain Finkielkraut من إصرار على ضرورة الدفاع عن الأعراف لضمان حرية الفكر والتفكير.

لكن دعونا لا نوهم أنفسنا ونفترض أن هذه الكتب رفعت من معنويات الملحدين الليبراليين الذين شعروا بالغبن من النضال من أجل آرائهم. نجحت هذه الهجمات المضادّة في إعادة ائتلاف الملتزمين بقيم التنوير

(١) انظر: برنار هنري ليفي اليسارية في أحلك الظروف: الوقوف ضد البربرية الجديدة Left in dark times: A stand against the new barbarism (٢٠٠٨).

(٢) انظر: آلان فينكلكروت: هزيمة العقل The defeat of mind (١٩٩٥).

والرؤى. لكن تأثير مثل هذا الخطاب العدواني المتخندق غير مجدٍ. فلا شكّ أن هذه الهجمات على الدين تعجز عن تحويل شخص وشخصين، بل تظهر الدراسات أن العكس ما حدث. وكأن الهجوم المباشر على الدين له مردود إيجابي في رفع معنويات العلمانيين الذين شعروا بأنهم في موقف دفاعي لسنوات، لكنها ليست استراتيجية مثمرة لحل مشكلات العالم، ولن ينتفع منها إلا من تحوّل سلفًا، ولن يغضب منها إلا من كان ينتقدها في الأساس.

أنا لا أطالب بالعودة إلى التكتيك الخجول السياسي المتمثل في احترام وجهات النظر مع لا عقلانيتها أو لا أخلاقيتها أو كليهما. لكنني أعتقد أنه من الأهمية بمكان إقناع المجتمعات الدينية، ولا سيّما في دول العالم الثالث، بتقبّل المبادئ العلمية عن المشكلات العالمية مثل الانفجار السكاني وانتشار الإيدز. ومن غير المرجح أن لا تحقّق استراتيجية السخرية من المعتقدات الدينية إلا زيادة معاداة العلم والرعونة والتعصّب.

من الصوابية السياسية إلى الازدراء المتحضر

لا بدّ من معالجة الحقيقة العاطفية للانقسام قبل التفكّر في الأرضية المشتركة؛ برأيي لا أعتقد أن احترام الرؤى التي نجدها لا عقلانية أو لا أخلاقية أو تافهة احتمالٌ بشري. أعتقد أن المحاولة المهووسة لإفراغ الخطاب من أي شيء يؤذي مشاعر أي شخص استراتيجية محكومٌ عليها بالفشل. تحاول عقيدة الصوابية السياسية غالبًا إخفاء هذه النزعة العدوانية غير المنطوق بها.

لقد اتخذ المتدينون السلطويون حديثًا ردّة فعل تجاه أي نقصٍ في احترام معتقداتهم قد يصل إلى حدّ العنف المفرط، وذلك ما دفع الملحدون إلى التصريح بأن الدين «يسمم كلّ شيء» على حدّ قولهم:

لماذا يجدر بالملحدين احترام مشاعر أشخاصٍ لديهم معتقدات سخيفة، ولماذا يجب أن يعاني العالم؛ لأن المتعصبين مستعدون للموت من أجل بضعة كيلومترات في القدس؟ لو راقبت عن كثب، لوجدت أن الدين في هذه الرؤية مشكلة كبيرة تواجه الإنسانية.

أعتقد أن هؤلاء «الفرسان» على حقّ وباطل في الوقت نفسه؛ محقّون لأن قيمة النقد العالمي في أفضل حالاتها قد تكون ضمانة ضد التعصب؛ لكن

الخطأ أنهم يعتقدون المشكلة بالدين ويتجاهلون تاريخ القرن العشرين الذي ارتكبت فيه أقبح الجرائم ضدّ الإنسانية بدعوى الأيديولوجيات العلمانية من سياسات أدولف هتلر، وجوزيف ستالين، وبول بوت، وغيرهم.

المشكلة الحقيقية ليست في الدين، بل في طبيعتنا البشرية؛ لأننا نميل إلى الارتباط بالنظم العقائدية والرؤى التي تمنح حياتنا معنى، ونحن على استعداد لبذل ما بوسعنا للدفاع عنها. ولو سألت لماذا هذه النزعة الإنسانية قاتلة في بعض الأحيان؟ ذلك لأن وجود التنافس بين الرؤى يمثل تهديدًا لأي منظومة عقائدية يدّعي مصداقية فريدة.

يتعامل البشر مع هذا الصراع عبر عدّ منظومتنا العقائدية (الدين الإسلامي، أو الشيوعية، أو السوق الحرة، أو أي مذهب آخر) متفوقةً على كل المنظومات الأخرى. فإن لم تفلح هذه المساعي، نلجأ إلى العنف. لذلك عندما تجد نصًا في الكتاب المقدس يأمر بقتل الكنعانيين الذين لا يؤمنون بإله إسرائيل ، تأكد أنه الحلّ البدائي الأقدم الذي يقول: لا تحتاج إلا إلى أن تمحو أي شخص يسيء إلى معتقداتك، لكن لا يجدر بنا أن ننسى أن اليعقوبيين قد تعاملوا مع «أعداء الثورة» بالطريقة نفسها، ومحو كلّ من لم يؤمن بمعتقداتهم باستخدام المقصلة (طريقة إنسانية مستحدثة لإعدام الناس).

أقصد أنه لا توجد منظومة عقائدية محصّنة من النزعة الخطرة في الإنسان للدفاع عن رؤاه العدوانية، خذ ما تشاء من أمثلة من محاكم التفتيش إلى مخيمات الغولاغ.

لكن دوكينز يحاجج أن «القاعدة لا تنطبق على قيم التنوير!»، وقد أشاركه الرأي -تقريبًا- لأن قيم التنوير تعتمد على مُثُلٍ عليا تتمثل في جملة «لا يوجد اعتقاد إنساني فوق النقد، ولا توجد سلطة معصومة عن الخطأ، ولا رؤى تدّعي الصلاحية المطلقة». ومن ثم فإن التطرف الجامح رذيلة إنسانية مطلقة ومسؤولة عن المعاناة أكثر من أي صورة أخرى.

لا يحتاج الأمر إلى فلسفة عميقة لتدرك أنه مادامت هذه الحجة تنطبق على كل منظومات المعتقدات، فلا بدّ أن تنطبق على قيم التنوير أيضًا. وأن التاريخ

يُظهر أن قيم التنوير بالفعل قد حُرفت إلى منظومات عقائدية متعصبة باسم «الديمقراطية».

لدي اعتقاد أن حركات التنوير قد ظهرت مرات عدّة في التاريخ: في الهند في القرن السابع قبل الميلاد، واليونان في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وعصر الإسلام في القرن التاسع الميلادي، وفي أوروبا في القرن السابع عشر الميلادي. القاسم المشترك بين حركات التنوير هذه إدراكها أن الموروث الذي يدفع البشر إلى الاعتقاد بأن منظومة معتقداتهم فريدة أمرٌ غير عقلاني وخطير. وتسهم حركات التنوير في أفضل حالاتها إلى خلق القدرة على السخرية وروح الدعابة، وتمكّن من النظر إلى كل أشكال الحياة من وجهة نظر التضامن: بأننا جميعًا نحتاج إلى معنى، ونحتاج إلى التملّص من معرفة حقيقة أننا بشر فانون.

لذا يجدر بنا الفخر بمجموعة المرويات التي ابتكرتها العقول الجمعية لتضفي على الحياة الإنسانية معنى، ولا شكّ أن معتنقي الأديان والملحدين على حدّ سواء سيبقون يستهجنون رؤى بعضهم بعضًا، وذلك شأن محمود مادام لا يتحوّل إلى مسألة حياة أو موت. قد يكون الازدراء المتحضر أنموذجًا لكلّ الأيديولوجيات - الدينية والعلمانية على حدّ سواء - عبر تبديل المصداقية الذاتية الصارمة بأخرى مستهزئة، وقد يجعلنا نرى التاريخ الإنساني شيئًا أقرب إلى التنافس على أفضل مروية جمعية أكثر من أن يكون صراعًا مميتًا بين الحضارات.

التسامح والتحامل

اقترح الفيلسوف السياسي مايكل والزر[1] Michael Walzer نقطة افتراق مهمة بين التسامح والتحامل. التسامح تقبّل تامّ لوجهة نظر فرد أو جماعة أو أيديولوجية، في حين التحامل حالة نفترض فيها أننا على استعداد لتحمّل وجهة نظر أو دين أو موقف سياسي مع أننا ندينه. لا يتطلّب التحامل منا شيئًا أكثر من الشعور بإمكانية العيش في نوع معين من الحياة أو الرؤى داخل مجتمعنا، حتى لو وجدناها بدائية أو مهينة أو غير أخلاقية؛ كأن يقرر معتنق

(١) انظر: مايكل والزر: عن التسامح On toleration (١٩٩٧).

الإسلام أو المسـيحية أو اليهودية أن يتحامل على نفسه أمام الملحد الليبرالي مع أنـه يعتقد بأن فكره فاسـد، ومفرغ من القيم الأخلاقيـة والروحانية، ويتحامل في المقابـل الملحد الليبرالي على نفسـه إزاء اليهودي المتعصب أو المسلم الأصولي مع أنه لا يوافق معاملتهم للمرأة على سبيل المثال لا الحصر.

اسـمحوا لي أن أجعل المثال ملموسًـا أكثر؛ قامت مخرجـة الوثائقيات الإسرائيلية شوش شـلام Shosh Shlam بإنتاج فيلم شـجاع يتناول محنة النسـاء اليهوديات المتشـددات اللائي يلتزمن مسـعىً مقدسًـا في رعاية الأطفـال، إضافة إلى توفير لقمة العيش لإعالة أطفالهن وأزواجهن، في حين يلتزم الأزواج دراسة التوراة والتلمود ليلاً ونهارًا على حساب إعالة أسرهم ماديًا.

نعم، لاشـكّ أن دور المرأة في الثقافة اليهودية المتشـددة يعدّ مثاليًا، لكن لا جـدال أن هذا النمط من الحياة يسـتنزفهن جسـديًا وعاطفيًا ووجوديًا (نتحدث عن النسـاء اللواتي ينجبن الطفل الرابـع في بداية عمر العشرين ليصلن إلى ولادة ١٢ طفلاً)، وذلك الدور أدنى من دور الزوج المقتصر على دراسـة التلمود، بدعوى أن النسـاء لابدّ أن يتقبلن محنتهن بوصفها طريقة لخدمة إرادة الخالق.

شخصيًا أشعر بالحسرة تجاه هذا النمط المفروض على النساء، ولكن ليس باليد حيلة قانونيًا أو سياسـيًا لمنع ذلك. بينما لا يفرض الختان على النسـاء اليهوديات المتدينات، لكنه يحـدث نتيجة التلقين فقط. لكم أتمنى أن أعيش في عالمٍ لا تتعرض فيه النسـاء لغسـل الدماغ هذا، بحيث يكبر الأطفال في كنـفِ رعاية أبوية مناسـبة (تعتمد مثل هذه الأسر على البنات الأكبر سـنًا لرعاية الأخوات الصغار؛ لأن الأمهات غـير قادرات على تربية هذا العدد من الأطفال). ومع ذلـك، فإن مبدأ التحامل جعلني أتقبّل هذه الممارسـة بوصفها قانونية مع أنني أجدها مروعة.

أدركُ جيدًا أن أسلوب حياتي، مع ما به من تحرر فكري وسياسي وشخصي يجعل كلّ يهودي متشـدّد يزدريها ويستهين بها؛ لأنه يعتقد أن حياتي تخلو من

قيم حقيقية، وأن التحرّر الفكري ليس سوى طريق يؤدي إلى مفسدة أخلاقية، وأن العلمانية مسؤولة عن كلّ علل الكوكب. وبدوري أزدري أيضًا بعض جوانب حياتهم؛ مثل حرمان أطفالهم من دراسة الفلسفة والعلوم، فليس معقولاً أن نربي أطفالنا وفق أسس صاغها إغناطيوس دي لويولا(١) الذي قال: «أعطني الطفل إلى عمر السابعة، وسوف أهبك إياه مسيحيًا مخلصًا». أنا أدرك أن الأغلبية لم تسمع قبلاً بإغناطيوس دي لويولا، لكنني أخشى أن تحرم هذه التنشئة أطفالهم من حقّ اتخاذ قراراتهم وتقدير الأفكار، وغرس الخوف بدلاً من ذلك.

واتتني فكرة الازدراء المتحضر المتبادل منذ أكثر من عقد؛ كنتُ لعامين عضوًا دائمًا في برنامج حوارات سياسي في أشهر محطّة إذاعية متشددة. وكنت لكثير من الضيوف كائنًا مريخيًا؛ من شعري الحليق الصقيل الأنموذجي لشخص ليبرالي علماني وطريقة ارتدائي للملابس. كانت المحطة الإذاعية تعتمد عليّ لسببين يسيرين؛ أولاً أنا أمثل الجانب الآخر من الطيف السياسي الأبعد عن الأرثوذكسية المتطرفة؛ ولأنهم يعولون عليّ حين تحتدم الجدالات أن ألقي نكات باللغة اليديشية أو أقوم بإيماءات تطفئ الفوران بين الضيوف. كنت أسمع دائمًا من الضيف الذي لم يعرفني قبلاً «لديك روح دينية حقيقية! كيف لك إذن أن لا تؤمن بالخالق؟».

أذكر أن أحد المشاركين قال لي ذات ليلة في نقاش محتدم: «لقد حيّرتني بأمرك، أراك تفهمنا (نحن المتشددين)، لكنك لا تحترم وجهات نظرنا». فأجبت بكل عفوية؛ «قل لي بصراحة ماذا يدور في سرّك، لقد وجدتني إنسانًا أو قل رجلاً لطيفًا، لكنك شعرت بازدراء فعلي لما أقوم به. فأنا شخص لا أخلاقي برأيك، ومفرغ من الروحانية، وماديّ بحت، وأن العالم أسوأ حالاً بسبب أشخاص من نوعيتي». نعم، لم يؤكد ما قلت له، لكنه لم ينفِ أيضًا.

---

(١) إغناطيوس دي لويولا Ignatius of Loyola؛ عالم لاهوتي ومؤسس واحدة من أبرز المدارس اليسوعية، عُرف بوصفه زعيمًا دينيًا في مرحلة الإصلاح المناهض للطاعة المطلقة لبابا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

لذلك واصلت حديثي: «أبادلك الشعور نفسه يا عزيزي. أعتقد أنك شخصٌ رائع، لكني أشعر بنفور عميق لكلّ ما تمثّله. لم لا تسأل نفسك لماذا هذا البرنامج لا يستضيف امرأة قط؟ لأنك تؤمن في سرّك بضرورة إبعاد المرأة عن أعين الجمهور. أعتقد أن الطريقة التي تربّي بها أطفالك شائنة؛ لأنك تمنعهم من اتخاذ قرار بشأن أيسر القضايا، ولا تسمح لهم بدراسة العلوم والفلسفة والأدب، بل تلقّنهم عقائد خاصة بك أنت وحدك، أنا أيضًا لا أستطيع فهم كيف يمكن لإنسان عاقل أن يصدّق ما تفعله. لذلك أقترح بدلاً من ادعاء الاحترام المتبادل، لماذا لا نتقبل أنا وأنت الازدراء المتحضر؟».

هكذا أمسى مصطلح «الازدراء المتحضر»، الذي نشأ في ذلك النقاش، سمة ملازمة للبرنامج، وقد بات البرنامج ناجحًا؛ لأننا تمكنا من الدمج بين الحدّة والدعابة والدفء الإنساني. وكانت النتيجة مثيرة للاهتمام؛ لأن لدي كثيرًا من الأقارب الملتزمين دينيًا، الذين يدعوني غالبًا إلى حفلات زفاف أولادهم (والذين يتزوجون في سنّ مبكرة جدًا)، وكنت أخاف أن أتصادم معهم؛ لأنني أمثل «الجانب الآخر» لما يعتقدون به. لكنني فوجئت حين قال لي أقاربي ومعارفي: «إننا نستمتع بالبرنامج كثيرًا. وعلى الرغم من أنك تنفس عن غضبك تجاهنا من دون أن تفرط في كلامك، لكنْ ثمة دفء دائمًا، وذلك الدفء يمكننا تقبله بسهولة».

إن فكرة الازدراء المتحضر تجعل الحوار بين مختلف الثقافات أعمق، ويسمح بالتواصل عبر الانقسامات العميقة. كنت عضوًا قبل سنوات في لجنة المراقبة الدائمة للإرهاب التابعة للاتحاد العالمي للعلماء (WFS)، والتي تعدّ هيأة بحثية دولية في سويسرا تتولّى التحقيق في حالات الطوارئ العالمية. وقرّرت اللجنة بعد ١١ سبتمبر أن الإرهاب حالة طارئة تستدعي تشكيل لجنة مراقبة دائمة في هذا الصدد.

كان أحد أعضاء اللجنة، خورشيد أحمد، عضو مجلس الشيوخ الباكستاني، وباحثًا قانونيًا، ومتخصّصًا في الشريعة الإسلامية، وأستاذ في جامعة إسلام أباد. كما أنه أحد مؤسسي الجماعة الإسلامية التي تعدّ إحدى أكثر الجماعات الإسلامية تطرفًا في باكستان، وقد أمضى أحمد مدداً طويلة في السجون الباكستانية بسبب

أنشــطته السياســية. وكان برويز هودبهوي عضوًا آخر، أســتاذًا ورئيس قسم الفيزياء في الجامعة نفسها. كان ناقدًا جريئًا ضدّ نظام مشرف بسبب طبيعته غير الديمقراطية وتماهيه وتســاهله مع الأصوليين الإســلاميين، بما في ذلك جماعة طالبان والجماعة الإسلامية.

هكذا صرّح خورشــيد أحمد، في إحدى الاجتماعات، أن لا ينبغي الربط بين الإسلام في حدّ ذاته والإرهاب، وانتبهت إلى هودبهوي كيف صار مضطربًا إلى أن انفجــر: «كيف تتحدث بهذه الطريقة؟ ألا ترى كيــف قام الطلبة المرتبطون بحزبك بتكســير آلات قســم الموســيقا لدينا؟ ولماذا؟ لأن دراسة الموسيقا غير إســلامية. لدي طالبتان تشــوهتا لبقية حياتهما؛ لأن حزبك ألقى بمادة حامضية على وجهيهما؛ لأنهما جاءتا إلى الجامعة من دون حجاب؟ كيف يمكنك أن تقول: إن الإسلام لا علاقة له بالإرهاب؟».

قضيت مع خورشيد ساعات طويلة نتجادل في قضايا مثيرة للجدل، وتبادلنا الحكايات، وتمازحنا أحيانًا (مع صعوبة جعل خورشــيد يبتســم). ولا أشكّ للحظة أن خورشيد يرى رؤاي المتحررة ضحلة، ومشينة، وفاسدة، وخالية من العمق الروحاني، مع أنه يحبني بوصفي شخصًا.

أحترم خورشــيد أحمد كثيرًا بوصفه إنسانًا، وأعجب بذكائه الألمعي والمرونة الاســتثنائية التي أظهرها في أوقات السجن والتعذيب. لكنني أمتعض من رؤاه من دون تحفّظ، وأفترض أنه يبادلني الشعور بنظرتي نحو التطرف وتأييده للنزعة الجهادية. ولا أخفي خشــيتي من هذا التعصب الديني الذي أزهق فعلاً ملايين الأرواح، وقــد يؤدي، في ظلّ ظروف معينة، إلى دفع عالمنا إلى حافة كارثة لا رادّ لها، كأن يتمكن الإرهابيون الإسلاميون من وضع أيديهم على سلاح نووي.

أعتقد أن الازدراء المتحــضر طريقة أكثر أصالة للتعامل مع الاختلافات من الصوابية السياسية التي تؤدي تمثيل دور مشــاعر لا يشعر بها أحد صدقًا، مثل الاحترام العالمي لجميع معتقدات البشر وآرائهم. أرجو من كلّ إنسان معولم أن يستعمل هذا الأسلوب بديلاً للروح الفولتيرية، المنارة الخالدة لأنموذج التنوير الأوروبي، الذي قــال ذات مرة لرجل دين كاثوليكــي: «إنني أحتقر كلّ كلمة

تنطق بها، لكنني سأبذل آخر قطرة من دمّي من أجل ضمان حقّك كي تعبّر عن آرائك».

لا أطالب في حديثي عن الازدراء المتحضر إلى مزيد من الأصالة فقط، أو أدّعي أن للملحدين الحقّ بقدر المتدينين. التركيز لا يهتم بـ «التحضر» أكثر من التركيز على «الازدراء». يظهر تاريخ الصراع الديني أو كلّ الصراعات بين الرؤى أن الأمر يتطلب انضباطًا عقليًا للشعور بالازدراء مع الإبقاء على التحضّر. إن عملية التحضر، كما يصفها نوربرت إلياس Norbert Elias[1]، تتناول القدرة على تيسير العمليات داخليًا والحفاظ على الفضاء العام خاليًا من المنتجات الجسدية والعقلية من دون أن تؤدي إلى تدهور. إن الشعور بالغضب والأذى والازدراء من دون عنف، مع الحفاظ على التواصل مع الذين لا نحترم آرائهم أو الذين لا يحترمون آراءنا يعدّ أساس المواطنة العالمية في ظلّ عالمٍ متداخل.

جوديث: البحث عن الرغبة

ما مدى واقعية التواصل عبر الانقسام بين العلمانية والدين؟ وهل بالإمكان أن نمدّ جسورًا وثيقة ومستمرة عبر هذه القطيعة العميقة؟ أرجو أن أوفّق في تبيان كيف يمكن أن يكون مثل هذا الحوار مثمرًا في القصة الآتية:

جاءت السيدة جوديث للاستشارة؛ لأنها شعرت بالركود في حياتها الوظيفية. كانت شريكًا رئيسًا في واحدة من أكبر شركات المحاسبة الدولية[2]، تزوجت مبكرًا، ولديها أربعة أولاد؛ أصغرهم على وشك إنهاء دراسته الجامعية. عندما سألتها عن زوجها وصفته بالـ «جيّد»، ووصفت حياتها الأسرية بأنها «دافئة» وحياتها الوظيفية بالـ «ناجحة». بدت هذه التوصيفات مبررة حين تطرّقت إليها، ما المشكلة إذن؟ مشكلتها أنها بدأت تستثقل تدريجيًا عملها. ولم يعد يثير اهتمامها شيء: لا الزبائن، ولا إدارة الشركة، ولا أي شيء آخر.

---

(١) انظر: نوربيرت إلياس: عملية التحضرّ: تحرّيات في علم الوراثة الاجتماعية والنفسية (١٩٧٦).

(٢) لاشكّ أنني لم أعمد إلى التصريح بتاريخ الحالة حرفيًا، وحاولت قدر المستطاع تبديل كثير من التفاصيل، مع أنني حافظت على تماسك الشخصية الأساسية كي تصل الفكرة كما أردت للقارئ.

لم يكن سهلاً، في البداية، إجراء حوار مثمر معها. كانت سيدة حسنة المظهر محافظة بعض الشيء، وكانت تركّز في حديثها على حقيقة أن «كلّ شيء على ما يرام أساسًا». لم تكن ثمة مؤشرات على أي معاناة ما خلا الملل وقلة الشغف في العمل.

لذلك شرعنا نتحدث عن العمل. ذكرت جوديث أنها مثابرة في عملها، ومجتهدة في تربية أولادها، وكانت ترى أن حياتها الناجحة منجزٌ لا لبس فيه. ولكن كان من المشوق أن تتحدث عن اختيارها للعمل وتقول: «لا أستطيع القول إنني اخترت العمل في المحاسبة. كانت عائلتنا ترى أن الخيارات الجيدة تنحصر بين القانون والطبّ والمحاسبة. وكان امتهان الطبّ مستحيلاً، بالنظر إلى صعوبة الجمع بين تربية الأطفال وساعات التدريب، لذلك فكّرت أن المحاسبة بوصفه أفضل خيار لتوفير الوقت، وذلك ما أتضح صوابه».

«يؤسفني أن أخيّب ظنّك حين أقول إن حياتي عملية جدًا. لذلك أعذرني إن لم تجد شيئًا وأنت تغوص باحثًا عن أي جموح مخيلة في داخلي، لقد ترعرعت مع الحاجة إلى القدرة على حساب الوقت، ولا يمكن القيام بذلك ما لم أكن منتجة». أجبتها: «قد لا يكون غريبًا إذن أن تصبحي محاسبة».

رفضت جوديث إضاعة الوقت والطاقة في السعي إلى الأحلام التي لا طائل تحتها على أي حال. ورأت أن ذلك مجرد تعقيد للحياة لا داعي منه. لذلك لم يكن من السهل البحث عن أمنيات قد تحملها لوظيفة أخرى؛ لأنها بسهولة لم تتمنَ شيئًا.

كانت جوديث، باختصار، حالة كلاسيكية للشخصية المعيارية. normotic personality التي تحدث عنها جويس ماكدوغال وكريستوفر بولاس[1]؛ تدور كلّ حياتها حول المنحى الطبيعي، والعيش وفقًا للمعايير التي حدّدتها بالتمام والكمال، والتوفيق في الجمع بين متطلبات الأسرة والحياة والوظيفة. نعم، لابدّ أن أؤكد أن جوديث ليست بالميتة داخليًا أو منفصلة

(١) انظر: جويس ماكدوغال: التماس من أجل قياس الشذوذ Plea for a measure of abnormality (١٩٨٩). كريستوفر بولاس. قوى القدر Forces of destiny (١٩٨٩).

عاطفيًا، بل العكس تمامًا. كانـــت طاقتها الحياتية معدية؛ لأنها معطاءة مليئة بالطاقة. لذلك لم نعرف كيف نمضي في الجلسات. نعم، كنّا عالقين.

جاءت الافتتاحية من زاوية غير متوقعة. عندما ذهبت إلى الغرفة الأخرى لأجلب لي ولها فنجان قهوة. تركت جوديـــث واقفة قبالة مكتبتي. وعندما عدت، بدت شـــديدة التركيز على شيء ما، لكن يديها مشبوكتان من خلفها كما لو كانت تقول: «لا يجب أن ألمس هذه الأشياء».

سألتها: «هل من شيء جذب انتباهك؟» قالت: «نعم، لديك هذا الكتاب (سيرة ذاتية للربّ). عن ماذا يتحدث؟». حاولت أن أشرح لها فكرة الكاتب جاك مايلز Jack Miles الرائعة عن تشبيه الخالق في العهد القديم وتطوّر ذاته الإلهية من وجهة نظر أدبية بحتة بوصفها شخصية تتطور في أثناء النصّ، ثم سألتها: «لماذا لفت انتباهك هذا الكتاب بالذات؟».

بدأت تتحدث عن علاقتها بالدين. نشأت جوديث في كنف عائلة يهودية متشددة، فلم يكن بالإمكان التشكيك بالدين أو مناقشة القضايا اللاهوتية. كان كلّ التركيز يتمحور حول أســـلوب الحياة اليهودية، بحيث أعربت عن ذلك بقولها: «المرّة الوحيدة التي تحدث بها والدي عن اليهودية كانت بصدد الدعوات إلى الإصلاح اليهودي، وقال حينذاك (إذا ما شـــككت باليهودية يومًا يا ابنتي فإن كلّ شيء سوف يتداعى)».

كانت جوديـــث تؤمن إيمانًا راســـخًا بالخالق، لكنهـــا كانت تمتعض من تفاصيل الأوامـــر والنواهي في الحياة اليومية في دينها المتشـــدد، والذي كان مصدر إزعاج لها لمدة ١٥ عامًا: «لا أســـتطيع تقبل فكرة أن الله يهتم بكم من الوقـــت أنتظر بين أكل اللحوم والحليب، لكـــن ذلك ما كان يقوله التلمود، وما يجدر اتباعه وعدم التشكيك به». ولكنها كانت تكافح هذه الأفكار مخافة أن تؤثر على تربية أطفالها، وحتى بعد أن كبر الأولاد وتركوها، مازالت تعاني من التفكير في هذه القضايا.

ســـألتها هل قرأت أيًا من مؤلفات التفاسير اليهودية؟ فأجابت :«بالطبع لا، أنا لا أعرف غير اليهودية الأرثوذكسية وما خلا ذلك على شفا حفرة من نهاية الدين، فلا أملك ترف التشكيك، وقراءة أيّ من هؤلاء قطعًا».

هكذا تحولت جلسات العلاج مزيجًا بين المشكلات الحياتية والدروس الخاصّة في فلسفة الدين. كان لكتاب جاك مايلز تأثير فوري على جوديث. ولأن الكتاب يتناول الجوانب الأدبية البحتة، من دون التعرض المباشر للقضايا اللاهوتية، لم تشعر جوديث بتهديد جلل على منظومة معتقداتها. وكانت تقول: «من العجيب أن تتغير شخصية الخالق في أثناء الكتاب، فقد كان في سفر التكوين وسفر التثنية ذات لطيفة. ولأول مرة أجدها سلطة إله واحد أحد. أنا لم أرَ الذات الإلهية بهذه الطريقة قبلاً، كان إلهي لا يفكر إلا بأن لا نخطئ قط، أو إذا ما كنا نحتاج المساعدة والعزاء».

بعد عدّة جلسات من مناقشة أفكارها ومشاعرها عما كانت تقرأه، ناقشنا المعنى الضمني للقاءاتنا. علمت جوديث من مقابلة صحفية أنني نشأت في عائلة أرثوذكسية محافظة ولاحظت على الفور أنني كنت على دراية بالاصطلاحات الدينية. سألتني عما إذا كان لدي أجندة أتحدث معها عن تاريخ اليهودية. «ألا تحب أن تحوّلني إلى أبيقورية أيضًا؟».

أصل مصطلح «أبيقوري» تلمودي يعود إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور دلالةً على الشخص المشكك وغير المؤمن، ويستعمل اليهود الأرثوذكس مصطلح «الأبيقوري» للدلالة السلبية كما هو واضح. لم تكن تعرف جوديث هذه الدلالة؛ لأنها استعملته بلطافة جمّة. ولكنني ما زلت أشعر بألفة عميقة تجاه الفلسفة الأبيقورية.

ضحكت من تساؤلها على كلّ حال، واعتذرت حقًّا؛ لأنني قد أكون دفعتها لا شعوريًا في اتجاه معين، فقد لا أكون واضحًا مع نفسي، وتكون بداخلي أجندة لست على دراية بها.

وكانت لدي نقطة وددت التركيز عليها؛ لقد اكتشفت أن جوديث تركّز على التناقضات بين صياغة بعض المحرمات في النصّ التوراتي وتفسيراته؛ كالمثال الكلاسيكي في تحريم طهي لحم الماعز في حليب أمه، في حين نجد اليهود الأرثوذكس تحرم أكل أي لحوم وحليب عمومًا. وعندما سألتها عن رأيها في الموضوع، رفضت التفكير أساسًا بالسؤال، وبسبب ذكائها فضّلت التملّص من تساؤلاتي.

«مـا إن تبدأ بالحديث عن تطوّر الدين اليهـودي تاريخيًا، لا تعرف كيف تنتهي!». سـألت: «هـل تعتقدين ذلك فعـلاً؟»، سـكتت لوهلة، وكان الاضطراب يملأ عينيها «أنا... لسـتُ متأكدة. أعني، لم أفكر في الأمر مليًا. عندما أفكر أسـتذكر أن ذلك ما تعلمته وما قيل لي. لكنني متأكدة أنك تبدأ بالطرح التاريخي، حتى تنتهي بالنزعة الأبيقورية التي أنت عليها».

أجبتها «لعلّني منذ طفولتي لست من النوع المؤمن، أو لعلّني لا أستحضر الحاجـة للخالق. ولكن ذلك لا يهم، أجـدكِ تتحدثين عن الخالق على وفق الأساس الشخصي، ولا أريد الآن منك فقط إلا السماح لنفسك باستكشاف الأفـكار. لا أراهن على أي نتيجة، ولا أبتغـي أن ينتهي بك الأمر في اعتقاد شيء أو الإيمان بشيء ما. أريد فقط أن أدعك تشـعرين أن عقلك ملك لك وحدك لا غير».

نظـرت إلي نظرة اهتمام وأجابـت «ربما.. لكن لا تنـسَ أن أحد المبادئ الرئيسـة في اليهودية أننا نفعل تمامًا كما نؤمر ومن ثم يمكننا أن نفهم. إننا لا نثق بالعقل الإنساني، بل نؤمن بأنه فعل وطريقة حياة».

«الحقّ معك في هذه النقطة. لكنني أسترشد بمبدأ إيمانويل كانط (تجرأ على الحكمة). أنا مؤمن أن البشر لا يمكنهم التطوّر تمامًا ما لم يتحملوا مسـؤولية عقولهم، وأؤمن أن تحمّل هذه المسؤولية تشترط عدم الابتعاد عن المعرفة مثل نقـد نصوص الكتاب المقدس ونظريات التطوّر. الخيار يعود لك أن تتقبلين مبدأي أو لا تتقبلين».

كان جليًا أن جوديث تحتاج إلى حرية الاختيار، إذ إن حرية العقل ليسـت بالمبدأ الدينـي. نعم، قد يتعارض هذا المبدأ تاريخيًا وفلسـفيًا مع مبدأ أولوية الإيمان.

هكذا بدأت جوديث باختيار مسـارها. وأخذت بنصيحتي وانضمت إلى نادي قـراءة عن اليهود الأرثوذكس لمؤلفات الفيلسـوف الفرنسي-الليتواني الشـهير إيمانويل ليفيناس Emanuel Levinas. بل حاولت أن تقنع زوجها للانضمام معها، وسرعان ما أمست عنصرًا فاعلاً في هذه الدراسات.

بعد عام من القراءة، وجدت في جوديث قد تغيّر شيء ما، وبات من الواضح أن بعض الأمور لا تثير الاهتمام في عملها. واستثمرت منذ ذلك الحين في سوق أسهم المخاطر التي شعرت أن فيها شيئًا يرضي غرورها. وفي نهاية مشوارنا العلاجي قالت: «لو أخبرتني في البداية أن قراءة الفلسفة ستفتح الآفاق لي للسعي في وظيفة جديدة، لضحكت عليك».

لم تكن جوديث متعصبة أو ضيقة الأفق في حياتها العاطفية. كانت حانية معطاءة مليئة بالمشاعر. لكنها، مع ذلك، واجهت صعوبة في معرفة رغباتها الدفينة؛ لأنها كبرت على الخوف من التفكير، وكانت تعتقد أن الاستماع إلى الرغبات قد يهزّ إيمانها، ويعكر صفو حياتها.، في حين أسهم النقاش في المحرمات بتحرير تفكيرها الذي اختزنته في طفولتها مما ساعدها على إعادة التواصل مع رغباتها.

لم تستغنِ جوديث في النهاية عن عقيدتها وبقيت يهودية أرثوذكسية. لكن علاقتها بإيمانها قد تغيّر كليًا. فلم يُسمح لها قبل رحلة الاستكشاف التفكير بحرّية في أهم الأسئلة التأسيسية في فلسفة الدين، ولم تعد تشعر بالتهديد من المعرفة التي قد يكون لها تأثير على عقيدتها، ولم تعد تستهويها قراءة فلسفات اليهود الأرثوذكس، بل طوّرت اهتمامًا بالفلسفة؛ لأنها توصّلت إلى استنتاج مفاده أنها لا تستطيع فهم فلسفة الدين في القرن العشرين من دون هذه الخلفية.

لم تتحول جوديث إلى أبيقورية، وما زالت تؤمن بوجود إله تتواصل معه في تقاليد وطقوس تعتز بها وتقدسها. لكنها لم تعد تنأى بنفسها عن طرق التفكير الأخرى، علمانية كانت أو دينية. وأمست شغوفة بتاريخ الأديان عمومًا، وصارت تشعر بامتداد هذه التقاليد، بل تتحدث أحيانًا عن وحدة التجارب الدينية وأصالتها.

قالت، قبل أن ننتهي من الجلسات العلاجية، مازجة الجدّ والهزل في حديثها: «ستظلّ حبيس أفكارك إلى الأبد ما دمت تفتقر للشعور الديني». أجبتها: «يؤسفني أنك لن تختبري حرية الفكر المطلقة ومدى روعة الكون ما دمت تحتاجين إلى الدين».

لم يتولد أي عداء من هذه الحوارات، ولم يشعر أي منا بالتهديد من الخلافات بيننا. أشعر أن شيئًا أساسيًا لجوديث كان سيضيع إذا تركت الدين، شيء أقرب من الإنسانية «المانشليخت»[1] اليهودية الذي أجده ضروريًا بذات الطريقة التي يرى فيها الباكستاني المسلم تلك السمة أساسية في نظره.

الفلسفة الأبيقورية وسيكولوجية الدين التطوَرية

لم تكن جوديث، بأي حال من الأحوال، أول مراجعة تشتكي من مسائل دينية. أنا على دراية تامّة بالمصدر الرئيس للصراع في هذه المعمعة. واحدة من أكثر الافتراضات التي اعتزّ بها أن الإنسان من دون حرية الفكر لا يمكنه أن يتطور كلّيًا. لقد برمجت أدمغتنا للبحث عن المعرفة، وإن مُنع البشر من الوصول إلى المعلومات أو المعرفة (سواء عبر السلطة الداخلية أو الخارجية)، فلن يصلوا حينذاك إلى التطوّر الكامل.

وصفتني جوديث بالأبيقوري في عدّة مناسبات في أثناء لقاءاتنا بدعوى أن الفلسفة الأبيقورية ترتبط عمومًا بالسعي الحثيث عن المتعة. ويُفهم مصطلح «مذهب المتعة» hedonism أساسًا بأنه مفهوم السعي الشره إلى الحياة. وقد يكون ارتباط فلسفة أبيقور بمذهب المتعة مفهومًا مغلوطًا لا غير، فالأولى تسعى إلى تحرير الإنسانية من المخاوف اللامنطقية، بما في ذلك الخوف من الآلهة.

لذلك يعدّ أبيقور أحد أسلاف وعرّابي فرويد الكبار؛ لأن جزءًا ليس بالقليل من عمل فرويد كان عبارة عن محاولة الحفر في الجذور النفسية للدين. وكان منهجه تطوّريًا بالأساس مع أن هذا المنهج نادرًا ما يُذكر هذه الأيام[2]، بل إن جزءًا كبيرًا من عمل فرويد الذي يخصّ البحث عن أصل النشوء (الفيلوجيني) للأنا العليا قد أُهمل تمامًا[3]، وكأن المجتمع العلمي قد رفضه منذ بداياته.

---

(١) المانشليخت menshlichkeit التعبير اليديشي للإنسانية ذي الصبغة اليهودية الخاصة.

(٢) لقد قمت بتحليل الموضوع بعمق في كارلو سترينجر. مشروع فرويد التطوّري المنسي Freud's forgotten evolutionary project (٢٠٠٦). علم نفس التحليلي، ٢٣ (٢)، ٤٢٠-٤٢٩.

(٣) انظر: فرانك سولواي: فرويد، عالم أحياء العقل Freud. biologist of the mind (١٩٧٩).

لقد قام علم النفس التطوّري المعاصر، من عدّة أوجه، بإعادة تأهيل برنامج فرويد على أساس دارويني. وقد حمل العقد الأخير معه محاولات حثيثة لصياغة أصل النشوء (الفيلوجيني) للدين. ويعتمد علم النفس التطوري للدين، على بيانات أنثروبولوجية وأخرى تجريبية، ليصل إلى نتيجتين رئيستين: أولها أن البشر مبرمجون على المبالغة بالكشف عن العوامل القصدية، أي إننا نرى ظلًّا في الغابة ونعمد إلى المبالغة في تفسيره على أنه إما حيوان وإما إنسان. يُطلق على هذه الخاصية «الكاشف عن العوامل مفرط النشاط» HADD Hyperactive Agent Detective Device؛ لأنه يؤدي إلى العديد من النتائج الإيجابية الكاذبة. والإجابة على السؤال «لماذا الكاشف كان مفيدًا بالمعنى التطوري؟» سهلة: إذ إن النتائج الإيجابية الكاذبة في شريعة الغاب أفضل من النتائج السلبية الكاذبة؛ لأنها تنبهنا إلى احتمال وجود مفترسات خطيرة، وفي شريعة الغاب تكفي نتيجة سلبية كاذبة واحدة لتكون قاتلة.

يؤدي الكاشف إلى جعلنا نفسّر الأحداث الطبيعية بطريقة مبالغة؛ الرعد مثلاً تعبير عن غضب زيوس، أو الجفاف يحدث بسبب فجيعة ديميتر، أو أن الهيكل في القدس قد تدمّر؛ لأن الله عاقب اليهود على خطاياهم. بعبارة أخرى، دماغنا لم يبرمج بيولوجيًا نحو الفيزيقيا بل الميتافيزيقيا.

السبب الرئيس الثاني لظهور الدين في كلّ مكان هو فعاليته الفريدة في ضمان تماسك المجتمعات. تتطلّب أغلب الأديان طقوسًا توفّر ضمانة التماسك، إضافة إلى أنها تؤكد أن الآلهة تعرف ما نفكر به وما نرغب، وتعرف ما إذا كنا نعيش وفقًا لقواعد مجتمعنا أم لا، ومن ثم فإن الإيمان بالآلهة يربط أعضاء المجتمع بعضهم بعضًا بأواصر فعلية.

ذلك مصدر الصراع القديم بين الدين والعلم. العلم تحقيق عن قوانين الطبيعة، قد يؤدي أو لا يؤدي إلى تفسيرات طبيعية للأحداث البشرية. وذلك السبب ما دفع بعض الأديان إلى مقارعة العلم؛ لأنه يقوّض الأسس المعرفية والأخلاقية للدين، ولذلك أدانت محكمة أثينا سقراط بالإعدام في بداية القرن الرابع قبل الميلاد، وأحرقت الكنيسة الكاثوليكية جيوردانو

برونو في ١٦٠٥، وحارب اليهود سبينوزا في أمستردام في ١٦٥٦، وعدّت الكنيسة الكاثوليكية كتاب «أصل الأنواع» لداروين ضمن الكتب المحرمة.

كما ذكرنا سلفًا، حدثت حركات التنوير الأوروبية في أماكن وأزمنة مختلفة. واحتفت هذه الحركات بحرية الفكر؛ بعضها كان يقدّر فضيلة التشكيك على الإيمان، وبعضها حاولت الجمع بين الاثنين.

كان أبيقور جزءًا من عصر التنوير اليوناني، وكان يعتقد أن الحرية الحقيقية غير ممكنة طالما يخاف البشر من الآلهة. ولكن حالما ندرك أن العالم يحكمه القانون الأعمى، نستطيع عيش حياتنا بعقلانية، أو نكون أحرارًا، أو نختبر ازدهار الإنسانية eudaemonia، الكلمة التي تترجم بالخطأ دائمًا إلى «سعادة».

نصل الآن إلى ثالث سمة من الفلسفة الأبيقورية. يجادل لوكريتيوس Lucretius في كتاب «في طبيعة الأشياء» بإسهاب أن الخوف من الموت ليس بالشيء المنطقي. يذكر في حجة شهيرة له: «الموت ليس حدثًا يحدث لي؛ لأنني حين أموت، لا يحدث لي شيء لأنني غير موجود. ومن ثمّ فإن الخوف من الموت في حدّ ذاته أمر غير منطقي».

يشير الموروث الأبيقوري إلى خطأ منطقي متأصل في سيكولوجية النفس البشرية؛ إننا نحاول تخيّل كيف يكون الحال حين نموت، حتى لو كنّا لا نؤمن بالآخرة. لكن هذا التفكير ينطوي على تناقض وتداخل في المصطلحات: عندما نموت (بافتراض وجود -أو عدم وجود- حياة بعد الممات)، لا يكون ثمة موضع للتفكير والشعور بأي شيء. وإن عملية تخيّل ماهية الموت تضلّلنا وتقودنا إلى مخاوف غير عقلانية؛ لأنك ستكون وحدك في القبر، أو يحيق بك كلّ أنواع العذاب.

ينتقل بعد ذلك لوكريتيوس إلى النقطة الآتية: بافتراض أننا لم نعد نخاف من الموت بعينه؛ لأننا ندرك أنه لن يحدث بالضرورة الآن لنا؛ لأن الموت بحدّ ذاته سوء حظ حين نرى حقيقته بأننا لن نعود موجودين. أو كما يصفها أحد أصدقائي موجزًا: «لا أستطيع تصديق أن الحفلة تستمر من دون حضوري!».

يجادل لوكريتيوس بأن لا أحد منّا مستاء لحقيقة وجود مدة زمنية غير محدودة بين الولادة ولحظة مماتنا؛ لماذا نشعر بالاستياء إذن حين ندرك أنه ثمة مدة زمنية غير محدودة بعد الموت لن نكون موجودين فيها؟ ولماذا المدة غير المحدودة التي كانت قبل موتنا يجب أن يكون أقلّ مدعاة للاستياء من المدة غير المحدودة بعد موتنا. نعم، لا يمكن أن يكون الموت سوء حظ في حدّ ذاته.

لا أتوقع أن تلغي الحجج الأبيقورية من دواخلنا الخوف الإنساني من الموت؛ لأن أغلب هذا الخوف لا يستند على أساس عقلاني، بل إنه عبارة عن جزءٍ من تراثنا التطوّري كأي حيوان تجدنا نرتعب منه. الخوف من الموت ضرورة تطوّرية لضمان البقاء على قيد الحياة للتكاثر.

واحدة من أهم وظائف منظومات المعتقدات الثقافية أنها تقوم بحمايتنا من إدراك الموت، تشعرنا أننا مميزون لانتمائنا إلى مجموعة معينة (مسلمون، أو مسيحيون، أو يهود، أو أمريكيون، أو سود البشرة، إلخ)؛ أو لأن لدينا المعتقدات «الصحيحة» (الدينية أو غير ذلك). وتوفر منظومات المعتقدات هذه ميزة صريحة لإنكار الموت (بل تؤكد الخلود في شكل ما).

يُظهر علم النفس الوجودي أننا حين نتعرض إلى شيء يذكرنا بالموت، نتمسك أكثر بمنظومة معتقداتنا الثقافية لتقوية دفاعاتنا تجاه إدراك الموت. لذلك نصبح أقلّ تسامحًا، وأكثر حُكمًا وتزمتًا، وأقلّ تقبّلاً للاختلاف. وأخيرًا، فإن الرؤى ذات الصيت تكون محصّنة إزاء التطفّل عبر المحاكمة الذاتية، ورفض أعضاء الجماعات التي لا تتشارك الرؤى نفسها؛ لأن واحدة من المشاكل الجوهرية للدفاع عن الرؤى سهلة جدًا؛ إن الآخرين الذين لا يشاركوننا الرؤى يشكلون تهديدًا لرؤانا؛ لأن الرؤى -بطبيعتها- تدّعي الصواب الحصري.

يُظهر علم النفس الوجودي أن الدفاع إزاء إدراك بالموت يعدّ أعمق جذور التطرّف. عبر إيماننا بالمنظومة العقائدية الخاصّة بنا، نحصّن أنفسنا ضدّ الموت، مما يجعلنا قادرين على الموت دفاعًا عن خصوصياتنا أو خلودنا.

وأكثر مظاهر التعصب تدميرًا في التاريخ الحديث (أي الهجمات الانتحارية والإرهابية) يمكن تفسيرها عبر إنكار الموت. حتى الموت الجسدي، في نظر المتعصبين، يكاد يكون أفضل من تقبّل موتنا، وذلك ما قد يبدو متناقضًا[1].

تحاول الفلسفة الأبيقورية مساعدتنا على التعايش مع خوفنا من الموت. قد تكون الفلسفة طموحة ومبالغًا في تفاؤلها؛ لأن المنطق يستطيع التغلب على ميراثنا الفيلوجيني النسبي. لكن التبصر في الموت ومواجهته يساعدنا مؤكدًا أن نكون أقلّ تشبثًا بمعتقداتنا الضيّقة، والتي من المحتمل أن تجعلنا أكثر وأكثر إنسانية.

تلك الميزة بالذات ما يجذبني إلى الفلسفة الأبيقورية. أعتقد أن من المستحيل أن يكون المرء أبيقوريًا ومتعصبًا في الوقت نفسه؛ لأن أعمق جذور التطرّف تبدأ من إنكار الموت، في حين تدفعنا الفلسفة الأبيقورية إلى فعل كلّ ما في وسعنا لنعرف أنه لا فائدة من محاربة إدراك الموت، بل إن تقبّل الموت يزوّدنا بالسلام، وللمفارقة بالسعادة الحقّة.

تدعونا الفلسفة الأبيقورية للاحتفاء بالحياة؛ لأنها تزعم بأن لا غضب الآلهة ينفع ولا الشفاعة حين ندرك أن لا مناص يحمينا من الموت. ومن ثمّ لا توجد منظومة عقائدية تستحق أن تكون أداة حياة أو موات، وليس منطقيًا أن يكون المرء فظًا غليظ القلب حين يدرك أنه لا توجد عقيدة تحمي من إدراك الموت. سنرى في الفصل القادم أن هذه البصيرة تعدّ الأساس لنوع الرؤى التي تتسامح مع فكرة أن كلّ المعرفة الإنسانية مؤقتة، تلك البصيرة الضرورية لدوام الإنسانية وبقائها.

---

(١) سكوت أتران: نشأة الإرهاب الانتحاري The genesis of suicide terrorism (٢٠٠٣). مجلة العلوم، ٢٩٩، ٢٣٤ - ٢٣٩.

الفصل التاسع

نحو مواطنة عالمية وتحالف الرؤى المفتوحة

يجدر بنا أن نضع الرؤى التي تمنحنا معنى نصب أعيننا وكأنها خارطة طريق معرفية للعالم، أن نضعها في قالب لخلق فكرة عن «لماذا الحياة تستحق أن تعاش؟»، كي تجيبنا عن سؤال «ما نهاية الحياة؟».

نعتقد أن هذه القيم الأساسية مسعى مقدس. ومن دونها لا نجد مرسى وجوديًا نستقر فيه نحن البشر. هل يمكننا أن نجد مبدأ مقدسًا مشتركًا يجتمع عليه بنو الإنسان المعولم كلهم بحيث يثبت ما نطلبه من معنى؟

إذا كان بالإمكان فعلاً صياغة مثل هذا المبدأ، سيتحقق هدفان: الهدف الأول سنشعر جميعًا بالانتماء إلى غاية عابرة للثقافات ومتعالية عليها، وسنشعر أن ثمة جوهرًا للرؤى يمكن أن يقتلعنا من كهف أفلاطون المتمثل بمنظومة المعتقدات التي ولدنا فيها.

والهدف الثاني أن الإنسان المعولم قد يطوّر في داخله شعورًا بأنه جزء من مجتمع عالمي توحّده غاية مقدسة مشتركة. قد يعتمد بقاؤنا بوصفنا نوعًا على هذا الاحتمال الذي أطلق عليه «تحالف الرؤى المفتوحة«.

باختصار، أفترض: ثمة نوعان أساسيان من الرؤى: الرؤى المفتوحة للعالم، التي تتقبّل أن البشر يستحيل أن يكون لديهم يقين نهائي وكامل، والرؤى المغلقة، التي تدّعي أن لديها الحقيقة المطلقة والحلّ الأخير لكلّ مشكلات البشرية. لابدّ أن تؤدي الرؤى المغلقة بطبيعتها إلى مضاعفات كارثية، في حين تكون الرؤى المفتوحة -إن ضمنا حصانتها- أقل احتمالية الوقوع في شرك التعصّب الذي شهدنا عواقبه سنوات وسنوات، ويشهد

على ذلك أكثر القرون دموية في تاريخ البشرية. قد يسهم إدراك الإنسان المعولم بالترابط العالمي في بلورة تحالف مع أولئك الذين يريدون التسامي على الماضي القبلي عبر تبنّي الرؤى المفتوحة؛ لأنها تتيح تعاونًا ينقذ جنسنا البشري. إن سرعة الوصول التقني إلى المخزون الجبار من المعرفة البشرية قد تسهم أيضًا في انتصار العقل والإنسانية على الجشع، والجهل، والتعصّب الأعمى. لدي إيمان أن مجتمع الإنسان المعولم يزدهر يوميًا بسبب تنامي تعليم تكنولوجيا الاتصالات وازدهارها.

قد يخلق هذا التحالف مواطنة عالمية تتجاوز الطابع العالمي الذي يطلق عليه بـ «الكوزموبوليتية» cosmopolitanism. لطالما توجهّت أصابع الاتهام على مجتمع الكوزموبوليتيين ووصفوا مرارًا بأنهم يحاولون الإغارة على العالم بحثًا عن المكاسب من دون الالتزام بعرفٍ أو قانون[1]. المواطنة العالمية التي أتحدث عنها نوع مختلف تمامًا؛ لأنها تستند على إدراك أن العولمة قد وصلت إلى نقطة حيث لم يعد ثمة مكان خارج نطاق الحضارة، وأن الوعي السياسي لم يعد يقتصر على بلدٍ أو ثقافةٍ أو عرقٍ أو دين، ومن ثم فإن هذا الوعي يحتاج إلى معالجة مصير البشرية كلّها[2].

القواسم المشتركة بين بني الإنسان المعولم

يجب أن نبحث، لأسباب أخلاقية وسياسية، في إمكانية وجود تحالف بين بني الإنسان المعولم يتجاوز حدود الأديان والعلمانية. قد توحّد هذا التحالف بصيرة أن كلّ البشر عبر التاريخ مرتبطون ببعضهم بعضًا عبر مصير واحد لا تستثني أحدًا. لا تعد هذه المثالية جديدة طبعًا، فقد أدرك كثير من علماء

---

(١) يمكن العودة إلى المصدر ضمن السياق الأمريكي في كريستوفر لاتش. تمرّد النخب وخيانة الديمقراطية The revolt of the elites and the betrayal of democracy (١٩٩٥). وقد يكون ذلك أساس الاتهام اللاذع الذي أطلقته نعومي كلاين على تكتيكات الشركات متعددة الجنسيات والسياسات الاقتصادية النيوليبرالية. نعومي كلاين. بلا شعارات No logo (٢٠٠٠). ونعومي كلاين. عقيدة الصدمة: صعود رأسمالية الكوارث The shock doctrine: The rise of disaster capitalism (٢٠٠٨).

(٢) نجد هذه الفكرة التي مفادها أن العولمة قد تمنع الدخلاء من الاقتراب في كتاب بيتر سلوتردايك. في العالم الرأسمالي الداخلي Im Weltinnenraum des Kapitals (٢٠٠٥).

الدين، في النصف الثاني من القرن العشرين، أن الحوار بين الأديان ضرورة حيوية؛ لأن التعصّب القبلي أخذ ما أخذ من العالم المترابط الحالي. كان لابدّ من وسيلة للتحاور بين الأديان، ونبذ الخلاف في من يمتلك الحقيقة ومن لا يمتلكها. هكذا كثرت المؤتمرات التـــي تناقش فكرة تعددية الأديان في المسيحية والهندوسية والبوذية واليهودية والإسلام.

إضافة إلى ســـعي مراجع الدين إلى إيجاد نقاط جادّة مشـــتركة مع العلم الحديث.

لقد أدركوا أن الحرب بين الكنيسة الكاثوليكية والثورة الكوبرنيكية كان خطأ فادحًا، ولو تكرر الســـيناريو تجاه نظرية داروين للتطوّر البيولوجي لانتهـــت الأمور تقهقرًا أكثر مما كان عليه الأمر في الماضي. ومن هنا بدا أن إمكانية الحوار بين الدين والعلمانية احتمال واقعي ومقبول.

لاشـــكّ أن ثمة اختلافات شاســـعة بين مفاهيم الحيـــاة الرغيدة، ولا تقتصر الاختلافات على الفجوة بين الديـــن والعلمانية بكلّ تأكيد. يعتقد الرأســـماليون أن حرية الإنسان من دون الحقّ في ادخار الثروة مجرد خديعة لا أكثر، ويعتقد الاشـــتراكيون أن المجتمعات التـــي توفر الحدّ الأدنى من المســـاواة، وتحرّر كلّ أعضائهـــا من الفقر تظلّ وحدها قـــادرة على تعزيز الازدهار الإنساني الحقيقي.

ويعتقد المحافظون أن الحياة الإنســـانية لا تقوم إلا على التقاليد الثقافية ذات الجذور التاريخية العميقة. وردّ عليهم التقدميون بأن ازدهار الإنسان لا يكون إلا حين تخضع كلّ الأعراف والتقاليد والمؤسسات الاجتماعية إلى ميزان نقدي صريح.

تتعمق الفجـــوة بين المفاهيـــم المختلفة للحياة الرغيـــدة حين نفكر في الاختلاف بين رؤى الأديان ورؤى العلمانية.

تضع أغلب الأديـــان فضيلة الإيمان قبل حرية العقل والبحث النقدي، وتزعم أن الأخلاق الفردانية والاجتماعية التي لا تخضع إلى قوى ماورائية لابدّ أن تكون سيئة الصيت.

يجادل الملحدون مثل ريتشارد دوكينز ودانييل دينيت وكريستوفر هيتشنز أن الأديان ليست متسامحة بطبيعتها، وأن الحوار بين هذه الأقطاب خديعة لا أكثر. إن قوام الدين يستند على فكرة أنه يمتلك الحقيقة المطلقة والرسالة الأخيرة، ومن ثمّ فإن التسامح بين الأديان -بما في ذلك الإلحاد- لا يمكن أن يكون حقيقيًا بالمرّة.

أتفق بالطبع في أن ثمة توتّرًا محتومًا بين الدين نفسه والانفتاح العقلي، بين الرسالة الماورائية والفكر النقدي. ولكن هنا يأتي دور «الازدراء المتحضر»، بين الملحدين والمتدينين، أو العكس، فالجهة الثانية تعتقد أن الأولى تفتقر إلى العمق الروحي، ولا يمكن الوثوق بهم لأن شخوصها مشوهون أخلاقيًا، في حين تعتقد الجهة الأولى أن الثانية لا تلتزم أي جانب علمي، وأن الأخلاق لا تعتمد على المنظومة الدينية إطلاقًا[1].

امتعض العلمانيون الليبراليون من الإشكاليات البابوية تجاه موانع الحمل، والواقي الذكري، ولا سيّما أن الملايين في أفريقيا يصابون بالإيدز من إشكالية التكاثر. لكن في المقابل أظهرت الكاثوليكية -والبابا بنديكتوس السادس عشر خصوصًا- مع تحفظاتها اللاهوتية، استعدادًا مبهجًا لتقبّل نظرية التطوّر. ليس لدي أدنى شكّ في أن لدى البابا كثيرًا من النقاط الجدلية إزاء الملحدين، لكن الحوار والتعاون المثمرين عبر «الازدراء المتحضر» ممكن وممكن جدًا.

لا يسهم «الازدراء المتحضر» في احترام معتقدات بعضهم بعضًا فحسب، مع أن بعض الملحدين يحترمون البابا يوحنا بولس الثاني أو الدالاي لاما والعكس صحيح، لكنه يهدف لإيجاد وسيلة للتعايش والتآخي واحترام الآخر بوصفه بشرًا. ولا مناص من التعايش بين جميع

(١) للخوض أكثر في غمار تعقيدات فلسفة الدين. انظر: تيري إيغلتون: العقلانية والدين والثورة: تأملات في جدلية الإله (٢٠٠٩). أرى أن الازدراء المتحضر لا يتداخل غالبًا مع تماسك وجمالية التعددية الدينية. بينما يرى بول بيرمان Paul Berman أن الأصولية الإسلامية إحدى أكبر الأخطار في عصرنا، لكنه نجح في إظهار جمال المناصب الدينية، وطريقة إقناع سيد قطب، أحد أشهر المنظرين الإسلاميين السنة. انظر: بول بيرمان: الإرهاب والليبرالية Terror and liberalism (٢٠٠٣).

الأطراف؛ لأننا نحتاج إلى تشكيل تحالف يتجاوز الخلافات والانقسامات والأيديولوجيات[١].

قد نكتشف الإنسان المعولم في كلّ لون وشكل ومعتقد، فلابدّ أن ندرب أنفسنا على توسيع المخيال الأخلاقي لفهم إمكانية التعاون عبر الرؤى التي تختلف عن رؤانا؛ لأن لدينا قضية واحدة مشتركة[٢].

هل يمكن أن يشترك بنو الإنسان المعولم بقضية مقدسة واحدة؟

قد يتوحد الأشخاص الذين يرغبون الدخول في حوارات التقارب حول نقطة مشتركة مثل ازدهار الإنسانية والحضارة وديمومة الجنس البشري. وذلك أقل استحالة مما يبدو عليه. إن الأديان بكلّ الأحوال، كما يفترض إميل دوركهايم[٣]، عبارة عن منظومة ثقافية مصمّمة لتقديس الأواصر الاجتماعية التي تجعل الحياة البشرية ممكنة. وهذا يتفق مع كلّ القيم، فلا يمكن لأي إنسان أن يعيش بمفرده، وكلّما كان شكل الوجود البشري أكثر تعقيدًا، احتاج تنظيمًا اجتماعيًا أكثر تعقيدًا إلى حدّ ما.

أحاول حين أتحدث عن المقدس، أن لا أضع افتراضات دينية ضيّقة الأفق. لقد كان تعريف دوركهايم، أحد أعمدة علم الاجتماع الحديث الأوائل، لافتًا ويخدم غرضنا كثيرًا. لقد بلور دوركهايم هذا التعريف في أثناء ملاحظته لحركة دريفوس Dreyfusard movement التي كانت علمانية في أساسها:

انقسمت فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر بسبب نقاش جدلي بخصوص قضية دريفوس. كان الكابتن ألفريد دريفوس قبطان مدفعية يهوديًا شابًا تم

---

(١) ذكر أمارتيا سين Amartya Sen هذه النقطة بدهاء حين أشار إلى الانقسامات الثقافية المعقدة في الهند في كتابه أمارتيا سين. الهند الجلية: عن تاريخ الهند وثقافتها وهويتها (٢٠٠٥).

(٢) كوامي أنتوني أبيا. الكوزموبوليتية: الأخلاق في عالم من الأغراب :Cosmopolitanism Ethics in a world of strangers (٢٠٠٦). على الرغم من أن اعتقادي بأن وصفته في توسيع الخيال الأخلاقي صائبة، أشعر أن إصراره الدؤوب على احترام وجهات رؤى غيرنا عبارة عن نوع من الصوابية السياسة التي انتقدته بشدّة في الفصل الثامن.

(٣) انظر: إيميل دوركهايم: الأشكال الأساسية للحياة الدينية The elementary forms of religious life (١٩١٥).

اتهامه وإدانته بخيانة التجسّس لصالح ألمانيا في ١٨٩٤. وفي عام ١٨٩٦ ظهر دليل جديد بأنه لم يكن متورطًا في التجسس، وأن المذنب الحقيقي هو الرائد فرديناند هازلي إسترهازي. لكن الجيش والحكومة الفرنسية حاولا التكتم على الدليل الجديد، وبدلاً عن ذلك أعلنا عن براءة الأخير.

وسرعان ما كُشف التلفيق وانتشرت القصة، وكان بين المتعضين، الأديب إميل زولا، ورسالته الشهيرة (أنا أتهمكم) J'accuse التي أرسلها إلى رئيس الوزراء الفرنسي، ولم يُعفَ عن دريفوس إلا في ١٩٠٦ حين أعيدت إليه رتبة الرائد في الجيش الفرنسي، والتي قاتل فيها في أثناء الحرب العالمية الأولى، لتنتهي أيامه برتبة مقدم في الحرب نفسها.

كان دوركهايم مندهشًا من الحماس والإحساس بالمسؤولية الذي تغلغل في صفوف أنصار دريفوس، كانوا عبارة عن مجموعة أشخاص يعيشون حياة هانئة نسبيًا، شعروا مع هذه القضية بإحساس عميق بالمعنى. باتت حياتهم تدور حول قضية دريفوس، والحقوق العالمية، والمساواة بين كلّ المواطنين من دون اكتراث للعرق أو الدين.

أسهمت هذه الحادثة في بلورة نظرية دوركهايم عن الدين، والتي شرحها مفصلاً في كتابه الكلاسيكي «الأشكال الأولية للدين»، إذ جادل أن صميم الدين يتمثل في التفرقة بين العالم الميتافيزيقي للمقدس والعالم الفيزيائي للوثنية؛ المقدس شيء أو طقس أو فكرة ترمز إلى النظام الاجتماعي ومكانته السامية. يفترض دوركهايم أنه لا يمكن لأي مجتمع أن يدوم بغياب هذا المفهوم للمقدس، وإن هذا الحبل يربط بين الأشكال الأولية للحياة الدينية مثل الطوطمية (الديانات التوحيدية للحضارات الكبرى) والحركات العلمانية مثل حركة دريفوس.

لقد دافع هؤلاء عن أفكار الثورة الفرنسية لكن يبدو أن الحماسة التي دفعتهم كان فيها شيء مشترك مع الدين. أولئك الذين كانوا، مثل إميل زولا، على أهبة الاستعداد لمقارعة الحكومة الفرنسية والجيش الفرنسي من أجل إحقاق العدالة؛ لأنهم شعروا أن قضيتهم مقدسة.

اعتقد دوركهايم أن تماسك المجتمعات يعتمد على وجود هدف مثالي مشترك يصطبغ بسمة واحدة مقدسة. كانت نماذجه تقتصر على المجتمعات ذات التشابه الجغرافي. لقد شكّل بعض المفكرين، مثل علماء عصر التنوير، أو الذين ابتكروا أفكار الديمقراطية التمثيلية التي أصبحت قيد التنفيذ، مثل دستور الولايات المتحدة، أو الحركة الشيوعية التي استنزفت قارة أوروبا، كلها كانت تشترك بصفات المجتمعات المفترضة عند دوركهايم نفسها.

تحدثنا في الفصلين الأخيرين عن إمكانية التقارب بين الرؤى العالمية، لكن هل بالإمكان إيجاد مفهوم مقدس يربط بين بني الإنسان المعولم الذين يعيشون في ثقافات ولغات وأعراق ومعتقدات مختلفة؟ الفكرة بحدّ ذاتها تبدو غير عقلانية.

ألا يعني ذلك أننا نحتاج إلى شيء أشبه بالدين العالمي أو مجموعة من القيم المتفق عليها عالميًا على أقل تقدير؟ إذا استطعنا إيجاد شيء من هذا القبيل، لن يكون لدينا حينذاك اختلافات وصراعات ونزاعات تجعل الحياة على الأرض بائسة.

ثمة أسباب للاعتقاد بأن البشرية قد تتحد حول مبدأ أساسٍ واحد على الأقل. يجادل روبرت رايت[1] Robert Wright في كتابه «اللاصفرية: منطق المصير الإنساني» بأن التاريخ البشري، مثل التطوّر البيولوجي، يُظهر توجهًا نحو تعقيد أسمى. يعتمد مسار التاريخ على المبدأ القائل بأن التفاعلات بين الأطراف الرابحة win-win interactions تكاد تكون أكثر ديمومة من تلك التي تحدث بين الأطراف الخاسرة lose-lose interactions أو الرابحة والخاسرة win-lose interactions.

تمت صياغة هذه المعادلة تاريخيًا؛ لأن نظرية التطوّر كانت تبدو في بعض وجوهها تتعارض مع المبادئ الداروينية الأساسية؛ لأن بعض السلوكيات التي تصدر من بعض الأنواع يُنظر إليها على أنه «إيثار» حين يُعرض الفرد

---

(١) روبيرت رايت. اللاصفرية: منطق المصير الإنساني Nonzero: The logic of human destiny (٢٠٠٠).

نفســه للخطر بينما يحمي الآخرين من بني نوعه، مثــل الحيوان الذي يحذر القطيــع من اقتراب مفــترس ما مع أنه قد يعرض نفســه للخطر حين يقوم بذلك. والســؤال الذي يطرح نفســه «هل يتعارض ذلك مــع مبدأ البقاء للأصلــح؟ ولماذا الجين الذي يعرض صاحبه للخطر يعدّ ناجحًا من الناحية التطوّرية؟».

في سلســلة بحوث كلاســيكية في الســتينيات، أظهر روبرت تريفيرس Robert Trivers وجــورج سي ويليامز George C. Williams عبر لعبة في التحليل التنظيري أن الســلوك الإيثاري يحمل معنــىً تطوّريًا[1]. إذا تتبعت فرص نجاة الجين المتوارث، تجد أن من المنطقي أن تدافع الأم عن نسلها ضدّ الحيوانات المفترســة، أو أن يحذر الحيوان قطيعه من المفترسات على حساب بقائه الشخصي، لقد دفعت هذه الاستنتاجات إلى إعادة صياغة نظرية التطوّر من منظور جيني وليس منظور الكائنات أو المجاميع الفردانية.

يتجلى مبدأ اللاصفرية في حقيقة أن التطوّر البيولوجي قد أنتج على مدى بلايين الســنين كائنات أكثر تعقيدًا، وذلــك لا يتعارض، كما يوضح رايت، مع مبادئ داروين الأساسية. لقد اتضح أن الخلويات (المكونة من عضيات معقدة) تتفــوق على الكائنات من دون الخلويــة والكائنات متعددة الخلايا التي تعدّ أساسًــا تجمعات ضخمة من الكائنات الفرعية المترابطة. لقد تبيّن أن المنطق الداروينى لبقاء الأصلح يعتمد على التعاون البليغ وليس التنافس البليد.

يعزّز التقدّم التكنولوجي من احتمالات التفاعلات بين الأطراف الرابحة (مثل التجارة العالمية). فقد يكون نظام التواصل العالمي الجديد على وشــك خلق شــكل جديد من الدراية العالمية. لقد باتت عملية تشكيل المجتمعات العالمية أســهل من أي وقت مضى. فقد أفسح التواصل بين منظمات حقوق الإنسان والمنظمات غير الحكومية المجال إلى جعل هذه المؤسسات فاعلة أكثر قدرة على الاستجابة للأحداث بصورة أسرع في أي مكان في الكوكب.

(١) روبيرت رايت. الحيوان الأخلاقي The moral animal (١٩٩٤).

لقد بات الإنســان المعولم أكثر قدرة من أي جيل سابق على التخلّص من ضيق الأفق والتعصّب الأعمى والشوفينية عبر خلق مفهوم عالمي للإنسانية، فما بالك لو توحّد بنو الإنسان المعولم من أجل قضية مقدسة.

أعتقد أن فرضية رايت، في أن مسار التاريخ يتجه نحو تعقيد أسمى، وأن التعاون من يحدّد مصير الإنســانية، تســتند على عامل واحد: سيادة الرؤى العالمية المفتوحة التي أيضًا تحدّ من العنف والتدمير.

ثمة إشــكال لابدّ من طرحه: يفترض كثيرون أن كثيرًا من الرؤى لا تبرز بهذه الصورة الســطحية، بل إن صعود رؤى (مثــل الديمقراطية الليبرالية) قد يســبب اندثارات أخرى (مثل الشيوعية أو الإسلام). بمعنى أن التاريخ البشري في نهاية المطاف لعبة محصلتها مجموع صفري لا رابح فيها ولا خاسر بين الأيديولوجيات المتنافســة التــي لا يمكنها التواصل أو إيجاد قواســم مشتركة. لذلك دعونا نشرع في مناقشة أســباب سيناريوهات نهايات العالم الوشيكة.

يقدم علم النفس الوجودي أسبابًا للتشاؤم إلى حدّ ما أكثر منها للتفاؤل، لذلك يحق لنا أن نسأل: هل الرؤى العالمية مدمرة في عواقبها؟ وهل ستقودنا جميعًا إلى الشتات والقسوة والتدمير والموات من أجل الدفاع عنها؟ ولماذا إذن يجب على أي شخص أن يكون متفائلاً بشــأن أي أثر إيجابي لنظام التواصل العالمــي؟ ولماذا يجب أن نهتم بأي شيء مبالغ به مثل الوعي الكوني للارتباط بين البشرية كلّها والإنسانية مع الطبيعة؟

وفي نهاية هذه الرحلة التي نســعى بها إلى اســتعادة عقولنا وإحساســنا بالفردانية، يلوح في الأفق سؤال كبير ومخيف في الوقت نفسه: أآنّ الأوان قد فات؟ وهل أننا اســتعدنا عقولنا في وقت يتجه فيه الجنس البشري فعلاً نحو تدمير الذات الذي لا مفرّ منه؟

أعتقد أن كثيرًا من مشــكلات العالم الحالية لا يحكمها تعاون لاصفري، ولا حتى ازدراء متحضر، بل نزاعات عنيفة تنطوي على رؤى شمولية للعالم.

هل تأثير الرؤى مؤذ دائمًا في أحسن الأحوال وكارثي في أسوأها؟

أبشع الجرائم ضدّ الإنسانية، مثل الإبادات الجماعية (تحت مزاعم مضللة مثل التفوق العرقي أو الثقافي) ارتُكبت باسم الأيديولوجيات والأديان التي توفر معنى لملايين معتنقيها. كانت محاكم التفتيش المقدسة تقوم بتعذيب مئات الآلاف وتعدمهم باسم المسيحية.

ويعتقد تنظيم القاعدة أنهم ملزمون أخلاقيًا ودينيًا بقتل آلاف الأبرياء لتطهير الدين الإسلامي من الدنس ومجاهدة أعدائه. ويؤمن الطبيب باروخ غولدشتاين Baruch Goldstein، المستوطن اليهودي المتشدد في الضفة الغربية المحتلة، أنه أدّى واجبًا مقدسًا حين أطلق النار على المصلين المسلمين في المسجد الإبراهيمي وقتل ٢٩ مسلمًا في أثناء أدائهم صلاة الفجر الذي كان غولدشتاين يعتقد أنه مدنّس بسبب وجودهم.

هل المشكلة إذن في الدين بالدرجة الأولى؟ هذا النقاش يغري المفكرين الملحدين أمثال دوكينز، وهيتشنز، ودينيت، وسام هاريس. لكن هذا النقاش مضلّل بامتياز؛ لأن الأديان ليست بأيّ حالٍ من الأحوال الرؤى الوحيدة التي أدّت إلى الفظائع. لقد ارتكبت أعظم الجرائم التاريخية ضدّ الإنسانية باسم الأيديولوجيات العلمانية التي وعدت بخلق الفردوس الأرضي. فقد سفكت ألمانيا النازية دماء ستة ملايين يهودي بدعوى التفوق الآري. وقتل النظام الشيوعي السوفيتي أكثر من عشرين مليون روسي في حقبة التطهير الستاليني. يكفي أن نذكر أن بول بوت Pol Pot وحده، الديكتاتور الكمبودي الشيوعي في السبعينيات، الذي أمر بقتل أكثر من ثلاثة ملايين من مواطنيه في محاولة لفرض نسخة من الأيديولوجية الشيوعية على بلاده.

تصف حنة آرندت مثل هذه الرؤى بأنها شمولية[1]؛ لأنها تتبنى ادعاء أنها المنتهى التي ستأخذ بيد الإنسانية إلى السعادة الأبدية، ومن ثمّ لابدّ من سحق أي معارضة أو نقد أو تشكيك. الخوف كلّ الخوف من شخص مؤمن بأن ثمة حاميًا وحيدًا لديه كلّ الإجابات من دون البقية. لقد أثبت تاريخ الشمولية

(١) حنّا أرندت. أصول الشمولية The origins of totalitarianism (١٩٥١).

في القرن العشرين أن الحدّ الفاصل بين الـرؤى المفتوحة والرؤى المغلقة لا يقتصر على حدود الرؤى الدينية ونظيرتها العلمانية. إذن، ما علامات الرؤى التي تؤدي إلى طريق التعصّب الأعمى في أحسن الأحوال، وسفك الدماء في أسوأها؟

الرؤى المغلقة والحلول الأخيرة

واحدة من أبرز سمات الإيمان التي أطلق عليها الفيلسوف أشعيا برلين «الحلّ الأخير»[1]، ذلك الإيمان بإمكانية وصول الجنس البشري إلى حقيقة واحدة باقية إلى الأبد، حقيقة بمقدورها أن تحلّ أخيرًا كلّ مشاكلنا. يشبه هذا التوجه ما أطلق عليه اسم «الرؤى المغلقة» للأسباب الآتية: أولاً: يفترض أن تكون هذه الرؤى أخيرة؛ ومن ثم لا يعود بالإمكان نقدها أو التشكيك بها أو مراجعتها. ثانيًا: إن هذه الرؤى تردّ إلى سلطة لا يمكن نقدها. قد تكون هذه السلطة وحيًا ذا أصل إلهي، أو مجموعة وصايا كتبها الفوهرر، أو الرفيق الحزبي، أو النبي، أو جاءت من الكنيسة، أو من أي حزب سياسي.

أذكر إلى الآن المرّة الأولى التي قرأت فيها مقالة الفيلسوف السياسي برلين «مفهومان عن الحرية»، والتي أجدها ورقة بحثية مؤثرة في الفكر السياسي في القرن العشرين. لقد كان ذلك اليوم أول مرة أدرك فيها طبيعة الرؤى المغلقة وأهمية التعايش مع الرؤى المفتوحة وصعوبة تحقيق ذلك في الوقت نفسه.

كنتُ في بداية العشرين من عمري حين قرّرت السعي إلى الحفر في رؤاي الخاصّة، والتي لم تكن واضحة المعالم في ذلك الوقت، لكنها كانت ترتبط بما أحمله من ليبرالية. شعرتُ وقتذاك أنني في حال لن أستطع إثبات صحة رؤاي، لن تتوقف النزاعات والحروب والاقتتال المسعور إلى أبد الآبدين. أو بالأحرى كنت أبحث عن تبرير متسامي لمبادئ الليبرالية.

كان كثيرون ينظرون إلى برلين حينذاك على أنه أعظم فيلسوف حيّ، ولم أكن أفهم ما السبب؟ لم يؤسس أشعيا برلين نظرية فلسفية كبرى تدمج كلّ شيء في كلّ شيء، ولم يؤلف كتبًا أو يلخّص في أطروحة منهجية

---

(١) أشعيا برلين مفهومان عن الحرية Two concepts of liberty (١٩٥٨).

واحدة فلسفته. لماذا إذن كان يحظى بكلّ هذا التبجيل؟ ولماذا تخصّه النخب بالإعجاب والتبجيل والحبّ في غالب الأحيان؟

كنت قد وصلت إلى نهاية النصّ من «مفهومان عن الحرية» حين قرأت هذا المقطع:

إن أحد أكثر المعتقدات المسؤول عن سفك الدماء والمذابح في مسعى لتغيير قيم التاريخ العظيمة -من عدالة، أو تقدم، أو سعادة الأجيال القادمة، أو حمل رسالة مقدسة، أو تحرير أمة أو عرق أو طبقة، أو حتى السعي إلى الحرية نفسها، كل تلك القيم تتطلب تضحية الأفراد من أجل حرية المجتمع. إن هذا الاعتقاد الموجود في مكان ما، في الماضي أو في المستقبل، في الوحي الإلهي أو في الفكر الفرداني، في مخطوطات التاريخ أو صفحات العلم، أو في النوايا الحسنة لرجل صالح القلب طهور، يعدّ الحلّ الأخير. هذا الإيمان القديم يرتكز على قاعدة أن كل القيم يجب أن تكون متوافقة، أو ربما يجب أن تكمل بعضها بعضًا. يذكر أحد العظماء (مركيز كوندورسيه) Marquis de Condorcet: يا له من شأن جلل أن يرثي الفيلسوف الجرائم والمظالم التي مازالت تلوث الأرض، والتي كثيرًا ما يكون هو نفسه ضحيتها. يا لجلالة الإنسان متحرّراً من أغلاله. إن الطبيعة تسير قدمًا بخطى ثابتة مطمئنة على طريق الصواب، والحقّ، والفضيلة، والسعادة.

لقد صُدمت بهذه الفقرة الوحيدة، فقد جمع برلين كلّ الرؤى المسؤولة عن البؤس الذي كان صنيعة الإنسان. المشكلة في المعتقد الذي نجده «حلّ أخير»، المصطلح الذي لم يختره برلين من غير قصد وتأنٍ. كانت مقالة «مفهومان عن الحرية» عبارة عن محاضرته الافتتاحية بوصفه أستاذًا للفكر السياسي في جامعة أكسفورد، والتي ألقاها في ١٩٥٨، بعد ١٣ عامًا فقط من انتهاء الحرب العالمية الثانية، في حين كان الجميع مرعوبًا من الأنموذج النازي للحلّ الأخير.

لكن أشعيا برلين أدرج بعضًا من مُثُلي (أي العدالة والحرية) في قائمة القيم التي إذا دفعت إلى أقصى الحدود قد تؤدي إلى «سفك الدماء والمذابح في مسعى لتغيير قيم التاريخ العظيمة». إذن كيف يمكن إثبات، كما أردت أن

أفعل، من دون أدنى شك أن رؤياي الحالية كانت الاحتمال العقلاني الوحيد؟ هكذا وصلت بعد عدة صفحات إلى الفقرة الأخيرة من مقال برلين:

قد يكون المثال الأعلى للحرية في اختيار نهايات من دون المطالبة بصلاحيتها الأبديـة، وتعددية القيم المرتبطة بها، هو الثمرة المتأخرة لحضارتنا الرأسمالية المتدهـورة: مثال لم تعترف به العصور البعيـدة والمجتمعات البدائية، والذي ستنظر إليه الأجيال القادمة بفضول، وربما بتعاطف، ولكن بالقليل من الفهم. قد أكون محقًا، لكن لا يبدو أن ثمة مجالاً للشك. المبادئ ليست أقل قداسة فلا يمكن ضمان مدتها. يذكر أحد الكتاب المثيرين للإعجاب في عصرنا: «لإدراك الصلاحية النسبية لقناعات المرء، فإن مساندتها بلا هوادة هو ما يميز المتحضر عـن البربري». قد تكون المطالبة بأكثر من هذا حاجة ميتافيزيقية عميقة وغير قابلة للشفاء. ولكن السـماح لها بتحديد ممارسات الفرد عارض من أعراض عدم النضج الأخلاقي والسياسي الأكثر عمقًا خطورة.

هزّني هذا النصّ، إذ هنا أعلن أحد أعظم أنصار الليبرالية في القرن العشرين أن هـدفي في إثبات إيجابية الليبرالية شيءٌ مسـتحيل. وهنـا تعلمت تقبّل أن صياغـة الرؤى مهمة مفتوحة، ولا يمكننا إطلاقـًا التأكد من أننا توصلنا إلى الحلّ الأخير، والأسوأ أن الرغبة نفسها في الحلّ الأخير، الرؤيا الأخيرة، هذه الفكرة بالذات أكبر مصدر للمعاناة ألحقها البشر ببني جنسه.

عـلى الرغم من أن أفكار أشـعيا برلين كانت عصية عـلى الهضم، إلا أنها غيرت طريقة تفكيري إلى الأبد. لقد أدركت أنني كنت أسـيرًا، تحت سـتار الانفتاح والتسامح، في الاتجاه الخاطئ. كان مسعاي عصيًا، ويجدر بي العيش مع هذا السـعي الذي لا نهاية له، السـعي إلى إجابات، والتي يجب أن تبقى بالضرورة غير مؤكدة.

لا مراء أن أشعيا برلين لم يبلور نظامًا تكامليًا للفكر الفلسفي. لكن قدرته الأخاذة على التعاطف مع تنوعات الرؤى، ودفاعه المسـتميت عن الليبرالية مـن دون تحويلها إلى عقيدة، إضافة إلى دفء صوتـه وثراء أفكاره. كان هذا الفيلسوف تجسـيدًا للإنسان والإنسانية عبر اسـتعداده للبحث عن الجوهر

الإنســاني في كلّ تمظهر ثقافي. لقد كانت قدرته على التمســك بمعتقداته من دون أن يكون متشددًا بشــأنها واحدة من علامات العقل المتحضر و«أفضل اختبار للسمات الإنسانية».

التحليل النفسي للرؤى المغلقة

الإغراءات في الــرؤى المغلقة، كما يفترض برلين، مهولة. الرغبة في الحماية المطلقة متجذرة بعمق في نفوسنا. كان البشر ومازالوا يأملون في وجود بعض النصائح التي ترشــدهم في متاهات الحياة، سواء أكان ذلك نصًا مقدسًا، أو عرافًا، أو نجومًا، أو صوتًا من الأسلاف يعرف كلّ شيء. جميعنا ندرك هشاشة الحياة، وندرك أنه لا توجد ضمانات لحياتنا لنأمل منها خيرًا، وندرك أن اتخاذ القرارات الخاطئة قد يــؤدي إلى عواقب وخيمة، وقــد لا يمكن للقرارات الحســنة أن تحمينا من كوارث مثل المرض والطلاق والإفلاس والمشكلات مع أطفالنا. هشاشة الإحسان هذه يصعب تحملها وجميعنا نطلب الحماية منها.

ولكن لماذا يبتغي بنو الإنســان مثل هذه الحماية؟ لا بــدّ أن تقنعنا التجربة الشــخصية والتجريبيــة بأنه لا يوجــد شيء من هذا القبيــل. تبدو فرضية ســيغموند فرويد عن أصل هــذه الفكرة مقنعة لي حتــى الآن[1]، إذ جادل بأن جميعنا نختبر مثل هــذه الحماية في حياتنا. عندما كنا أطفالاً لم نكن نعرف عن اتســاع العالم أو أخطاره، وكنا نعتقد أننا محميون من والدين ذوي بأس شديد، يقدمان كلّ ما نحتاجه. كانت حجة فرويد أن هذه التجربة، مع أننا لا نسترجعها شعوريًا، تترك علامة لا تمحى في لاوعينا، تتركنا مع عطش أبدي إلى الشعور بحماية أبدية.

تعدّ حجة فرويد دامغة في معرفة لماذا الإنســان المعولم، مع سهولة وصوله إلى أكمل المعارف وأفضلها، مازال يحتشد في أماكن ظلامية باحثًا عن الراحة. نعم، لاشــكّ أن المعرفة الجلية غير مطمئنة تمامًا. وأغلب المعرفة العلمية فيما يخصّ حياتنا الشخصية ذات طبيعة إحصائية. عندما يدخل شخص عزيز إلى

---

(١) سيغموند فرويد. مستقبل التخيّلات The future of an illusion. الأعمال النفسية الكاملة لسيغموند فرويد. المجلد ٢١ (١٩٢٧-١٩٣١): مستقبل التخيلات، والحضارة وسخطها، وأعمال أخرى.

غرفة العمليات، لا توجد نتيجة مؤكدة لدينا ما خلا الإحصاءات، كذلك حين نذهب في مقابلة عمل، لا ضمانات للنجاح. أو حين نعشق شخصًا، لا ضمانات أن الحبّ يبقى إلى الأبد. لن تصل أي معرفة إنسانية إلى مستوى من اليقين يرضي توقنا إلى الحماية الكاملة. الشيء الوحيد الذي ندركه يقينًا أننا سنموت. اليقين الوحيد الذي لا نستطيع تحمله، والذي ندرك أن عواقبه نهائية.

أظهرت الأبحاث عن عمل شبكات الإرهاب إلى أي مدى تعدّ وسائل أدلجة، وغسل أدمغة، واستياء، وتعصّب ديني ينتشر حول العالم عبر الإنترنت[1]. يكفي أن نتذكر أن الإحباط والمهانة التي شعر بها عدد من الشباب من الوضع في مدن الغرب دفعتهم إلى التحول إلى خلايا إرهابية في لندن، أو مدريد، أو الحادثة التي زعزعت العالم في ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

قد يشعر كثيرون أن لا علاقة تربط حياتنا بما يحدث في مقاطعات باكستان المتاخمة لأفغانستان. لا شيء قد يكون أبعد عن الحقيقة. حاول عالم الأنثروبولوجيا سكوت أتران Scott Atran أن يقوم بمقابلة خطرة مع قادة إرهابيين هناك في ٢٠٠٤، وشرح له أحدهم واجبه الديني في ضرورة قتل أربع ملايين امرأة وطفل أمريكيين بسلاح نووي انتقامًا على ما جنته الولايات المتحدة بحق أربع مليون امرأة وطفل مسلم؛ ولأن باكستان قوة نووية عظمى، وأن نظامها السياسي غير مستقر، يحتمل وقوع مواد نووية، أو حتى رأس نووي فاعل، في أيدي الإرهابيين الإسلاميين، ولا يعدّ سيناريو نشاهده في فيلم إثارة هوليودي بقدر ما يكون احتمالاً فعليًا.

قد يستنتج بعضهم أن هذا التفكير المتطرف والمبالغ به من سمات الدين الإسلامي، لكن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة. لقد كشفت المخابرات الإسرائيلية في التسعينيات عن مجموعة من اليهود المتعصّبين الذين ينوون تفجير جميع المساجد في القدس والحرم الشريف، كانوا يعتقدون أن وجود

---

(١) سكوت أتران: الحديث إلى العدو: تطرّف العنف والقيم المقدسة وما يعنيه أن تكون إنسانًا Talking to the enemy: Violent extremism. sacred values and what it means to be human (٢٠١٠).

هذه المساجد في مكان يهودي بهتان لا يمكن قبوله، إنهم يدركون جيدًا أن تفجير هذه المساجد من شأنه أن يتسبب في اندلاع هيجان، وعنف، وحرب عالمية ثالثة. لكنهم لم يستشكلوا هذا السيناريو، بل اعتقدوا أن هذه الحرب حرب يأجوج ومأجوج المذكورة في الكتاب المقدس، ولابدّ أن يرجع المسيح المخلص، ويقيم الهيكل الثالث ومملكة إسرائيل الجديدة. نعم، مثل هذا المعتقد، الذي يؤمن به بعض المتطرفين في الولايات المتحدة، بوصفه تفسيرًا حرفيًا لسفر رؤيا يوحنا، عبارة عن تنبؤ فعلي بنهاية العالم ونذير العودة الثانية للمسيح.

ثمة نقطة يحتمل أن يصبح فيها «الازدراء المتحضر» مستحيلاً ويصعب عندها تجنب النزاعات، هذه النقطة التي يكون فيها تقدم الإنسان شيئًا ثانويًا للاعتقاد بالمثل العليا التي يفترض أن يتجاوزها. لا يمكنني أن أتخيل فعلاً حوارًا منفتحًا عن مفاهيم ازدهار الإنسان مع هتلر، أو ستالين، أو بول بوت، أو أسامة بن لادن.

ليست المشكلة أن هؤلاء المتطرفين يشتكون من غياب القيم والأخلاق، خذ أسامة بن لادن، كان مثالاً للشخص المؤمن برجحان فكره، وكان على يقين بما لا يدع مجالاً للشكّ أن مفاهيم الحرية الغربية فاسدة، ومشينة لازدهار الإنسان، وإن الإسلام يحتاج للتطهير من هذه المفاسد بأي ثمن كان، وأي وسيلة.

يعدّ أنموذج بن لادن مثالاً متطرفًا للرؤى المغلقة؛ فلم يرَ هذا الشخص ضرورة ولا إمكانية التحاور مع الذين يعدّهم أعداءً له. كذلك جادل بول بيرمان Paul Berman بأن ثمة خطأ كبيرًا حين نحاول اختزال منظومة عقائدية مثل بن لادن إلى تعبير عن الظلم والفجيعة، بل يجدر أن تؤخذ كل منظومات الاعتقاد الشمولية المغلقة على محمل الجدّ. وينطبق الأمر على النظير من الليبراليين الذين يعتقدون أن الرؤى المختلفة عن رؤاهم ردّة فعل مرضية على الأخطاء الغربية، فإنهم خاطئون تجريبيًا ومضلّلون أيديولوجيًا. إن عملية اختزال منظومة المعتقدات هذه إلى تمريض نفسي شكل من أشكال السذاجة، بافتراض أن أي رؤيا لا تتوافق مع العالم يمكن تحجيمها بوصفها رد فعل على بعض المظالم، لذلك تفشل في إدراك أن العقل البشري عرضة لإغراء الرؤى المغلقة.

بينما تحاول رؤى الإنسان المعولم التي ناقشتها في هذا الكتاب توسيع الحوار إلى أقصى حدوده، لكنها تعترف بوجود هذه الحدود. تبرز لحظات أحيانًا تتطلب عدم الاكتفاء بالازدراء المتحضر وتحوله إلى عنف. نعم، أكتب هذه الجملة وأدرك أنها تثير حفيظة الليبراليين؛ لأن النقاش والجدال في ظل الازدراء المتحضر تجاه بعضنا في ظل الرؤى المنفتحة، لا يستدعي من حيث المبدأ أن نلجأ إلى العنف؛ لأن الحوار يبقى احتمالاً قائمًا.

الإنهاء البيئي الذاتي

قد يكون ما سبق وذكرناه عبارة عن سيناريوهات مستمدة من السياسة والدين والأيديولوجيات المتطرفة. لكنْ ثمة طرق أخرى قد تسبب لنا نحن البشر الإشكالات نفسها. كان الباحث جيمس لوفلوك James Lovelock في الستينيات يعمل في وكالة ناسا على تطوير مستشعرات من شأنها أن تحدّد محتوى الأغلفة الجوية في الكواكب الأخرى، وقد توصّل إلى صياغة فرضية ذات أهمية بعيدة المدى. لقد جادل أن نظام كوكب الأرض تترابط فيه الكائنات بوصفها جزءًا من غلافه الجوي وأيضًا تدعم محيطه الحيوي[1]. ولو صحّت أطروحة لوفلوك فإن توازن المحيط الحيوي حين يختل ويتجاوز حدًّا معينًا، لابدّ أن الجنس البشري يقوم بتدمير النظام الحيوي للأرض، ومن ثمّ تنقص الموجودات أو تنعدم الحياة أبدًا، إضافة إلى إشكالية عدد البشر المتنامي من مستهلكين للطاقة والغذاء.

لقد تمّت صياغة الفرضية بمصطلحات علمية مقبولة تمامًا، هذه الفرضيات قابلة للاختبار ومتوافقة مع المعرفة الخلفية الراسخة. لقد كانت إشكالية فرضية لوفلوك في اسمها، إذ أطلق عليها اسم «فرضية غايا»، آلهة الأرض اليونانية. لذلك لم تأخذ المؤسسات العلمية هذه الفرضية على محمل الجدّ لعقود، وكان يُنظر إليها مجرد ترهات أخرى من العصر الجديد وليست بالشيء التنظيري الذي يستحق الإثبات.

(١) انظر جيمس لوفلوك. غايا ونظرية الكوكب الحيّ Gaia: And the theory of the living planet (٢٠٠٥).

لكن هذه الفرضية وجدت طريقها للبحث في السنوات العشرين الماضية، وثمة مؤشرات تدلّ أنها صائبة وذات أوجه قوية الإثبات. يعتقد لوفلوك أن الدمار الذي ألحقته البشرية بمحيط الأرض الحيوي غير قابل للترميم، وقد تكون البشرية في طريقها للانقراض في ظلّ معدل النمو الحالي في غضون القرن الواحد والعشرين[1]. يعتقد لوفلوك أن الجنس الإنساني يشبه الطفيلي الذي يحاول الاستيلاء على الكائن المضيف له (الأرض) ويقتله، ومن ثم يقتل نفسه في نهاية المطاف. لا يقتصر ارتباط البشرية على التجارة، والإنترنت، والأسواق المالية، والشبكة المعلوماتية والترفيهية فحسب، نحن مرتبطون ببعضنا بعضًا في مسألة حياة وموت تخصّنا أجمعين. مهما كانت حقيقة ظاهرة الاحتباس الحراري وما يحفّها من مبالغة، ومهما كانت فرضية غايا لوفلوك دقيقة أو لا، لم يعد بالإمكان التعايش مع وهم أننا لا نكترث بالبيئة والمجتمعات، بل إن العالم برمّته مسؤوليتنا وشأننا نحن.

تعتمد جودة الهواء الذي يتنفسه سكان أستراليا على عوامل موجودة في الجانب الآخر من الكرة الأرضية، غابات الأمازون المطيرة مثلاً من أبرز ماكنات إنتاج الأكسجين، وتدميرها يؤثر علينا جميعًا لا شكّ في ذلك. عندما رفضت إدارة بوش في ٢٠٠٢ أن توافق على بنود اتفاقيات كيوتو، فإنها نذيرة بمضاعفات بعيدة الأمد، ذلك أن الولايات المتحدة مسؤولة عن ٢٥ ٪ من غازات العالم، ورفض الاتفاقية يقيّد الوصول إلى استراتيجية تقلّل من استهلاك الزيوت الأحفورية وتلوث الغلاف الجوي. نعم، يعجز بنو الإنسان عن توحيد المؤسسات العالمية كي تحمي وسائلنا التي لا يمكن تعويضها من أجل استمراريتنا وبقائنا.

السباق بين التدمير والمبدأ اللاصفري

لا يشترك المفكرون في هذه الاستنتاجات المتفائلة، فقد صرّح الفيلسوف السياسي البريطاني جون غراي John Gray أنه لا يوافق التنوير الأوروبي

(١) انظر جيمس لوفلوك. انتقام غايا: أزمة المناخ ومصير البشرية The revenge of Gaia: Earth's climate crisis & the fate of humanity (٢٠٠٧).

والأمريكي في أن أفضل أيام البشرية قادمة، بل العكس صحيح[1]. تدلّ كل المؤشرات أن البشرية على شفا حفرة من التدمير الذاتي بطريقة أو بأخرى أو، كما يفترض غراي على نحو سوداوي، أن الجنس البشري مجرد علّة مؤقتة أصابت كوكب الأرض، ولابدّ من أن تختفي من وجه الأرض في قريب الأيام.

لقد أقنعني لوفلوك وغراي أنهما على صواب. السؤال الذي يطرح نفسه ما العواقب التي نستخلصها من هذا التشاؤم؟ هل يفترض أن نشمئز من البشرية ونبقى نتفرج على الكارثة تتحقق على غرار آرثر شوبنهاور، ذلك الفيلسوف السوداوي العظيم الذي عجز عن رؤية أي بديل فلسفي للكوميديا المأساوية يشبه تاريخ البشرية. لا أبرر مثل هذا الإسقاط النقدي وحده؛ لأن القدرة على رؤية الحقائق وتقبل الحقيقة تعدّ واحدة من نِعَم إنقاذ جنسنا البشري.

لا أخفي أن ثمة بريقَ أملٍ في داخلي لا يرتضي قصة التطوّر البشري التي تمشي في طريق وعرٍ لا معنى له. هل البشر في النهاية مجرد كائن بكتيري مصممٌ -بحكم طبيعته البيولوجية- ليسبّب كارثة عالمية أخرى؟ ذلك ما يعارض منطق المحاججة التي طرحها لوفلوك وغراي. إذن ما الذي يفترض بنا القيام به؟

لم يكن كلٌّ من لوفلوك وغراي مخطئينِ حين افترضا أن جنسنا محكوم بالمنطق الدارويني الذي يحكم بقية الأنواع، ولا يختلف ريتشارد دوكينز عنهما كثيرًا مع أنه افترض أن البشر هم النوع الوحيد الذي ليّنَ قوانين الحديد التي تحكم العالم البيولوجي، أي إن دوكينز يؤيد الديمقراطية الاجتماعية لا الداروينية الاجتماعية.

معضلة هذه الدعوة أنها تشكو من تناقض جوهري: إذا كان المنطق الدارويني يحكم مملكة الكائنات الحيّة فعلاً، فلا مفرّ منها. لابدّ أن يكون غراي ولوفلوك على حق، ولا مفرّ من القانون الطبيعي الذي يحكم الكون.

---

(١) انظر: جون غراي: الكتلة السوداء: دين نهاية العالم وموت اليوتوبيا Black mass: Apocalyptic religion and the death of utopia (٢٠٠٧).

لكــن التطوّر البيولوجي محكومٌ أيضًا بمبــدأ روبرت رايت اللاصفري، ويمكن تعقب المبدأ اللاصفري عبر تاريــخ البشرية. وكي نكون أكثر دقة، لم ينشــأ التاريخ بمعنى الكلمــة إلا في ظلّ ثقافات تتجاوز حــدًّا معينًا من التعقيــد، ذلك عندما انتقل البشر نحو التنظيم الاجتماعي العالي في تقســيم العمل، ومن ثمّ المهن التي سمحت بتسجيل التاريخ. كان للكهنة والوراقين ولاحقًا الكتّاب والمؤرخين فضيلة تدوين التاريخ والسماح للبشرية بالتعرف على تطوّر هذه المجتمعات.

أحدث مثــال مقنع عن المبــدأ اللاصفري هو تاريخ ظهــور الإنترنت، والذي كتبه بكل احترافية وإتقان عالم الاجتماع مانويل كاســتيلز Manuel Castells[1]. ذلك لأن مجموعة مــن الأفراد الذين لا يعرف بعضهم بعضًا، ولا يتشاركون المكاســب نفســها، أتفقوا على خلق نظام يسمح بالوصول اليســير لكلّ المعرفة البشرية. لقد بيّن ظهور الإنترنت أن مبدأ التعاون المعقّد موجود بالفعل في أي مرحلة من مراحل التطوّر.

وكما أوضح عــالم الأنثروبولوجيا جاريد دايمونــد Jared Diamond، فإن تعقيد النظام لا يشــترط الذكاء ضرورة ليبقــى حيًّا وفاعلاً[2]. لقد وثّق دياموند بالتفاصيل السوداوية كيف تســتطيع المجتمعات أن تتطوّر إلى حدّ تقضي فيها على النظم البيئية التي تعتمد عليها.

يبــدو أن الجنس البشري يقــف عند مفترق طرق بديــع ومبهج ومخيف في الوقت نفســه. إننا نتفرج على ســباق محموم بين العجز المطلق إزاء تدمير البشرية لمــوارد الكوكب، وظهور فهم جماعــي كافٍ لحقيقة أننا بحاجة إلى تغيير المسار من أجل البقاء.

لكن هل جمــع كلّ معرفة البشر في الإنترنــت أو التمكين الجبّار للمعرفة البشرية سيفوز بالسباق ضدّ الركود الذاتي والجشع والجهل؟ أعتقد شخصيًا

---

(١) انظر: مانويل كاستيلز: مجرّة الإنترنت: تأملات في الإنترنت والأعمال والمجتمع The Internet galaxy: Reflections on the Internet. business. and society (٢٠٠٠).

(٢) انظر: جاريد دايموند. الانهيار: كيف تختار المجتمعات الإنسانية الفشل أو البقاء على قيد الحياة Collapse: How human societies choose to fail or survive (٢٠٠٥).

أن الاحتمالات ضدّنا، وإن مؤلفين مثل لوفلوك، ودايموند، وغراي يعرفون خارطة الطريق للقادم من أيام.

استعمال الإنترنت خير مثال على ما سبق شرحه؛ فالإنترنت ناقل للميمات، وكما رأينا في الجــزء الثالث، ولدى الميمات، مثل الفــيروس، ميل للعدوى بغض النظر عن صحة الناقل وســلامته، وأقصــد بالناقل الجنس البشري. يحمل الإنترنت معلومات مهولة جعلت البحث ســهلاً يسيرًا، وأكثر فعالية من أي وقت مضى. لكنــه في الجانب المضادّ زاد من إدمــان المقامرة والمواد الإباحية، وكذلك زاد من انتشــار الأفكار السخيفة ونظريات الخزعبلات عن قرب نهاية العالم وما شابه.

لو نظرنا إلى التاريخ الحديث قليلاً لخاب ظننا بالبشر عمومًا؛ عدد المؤمنين بنهاية العــالم أكبر من عدد الذين يفقهون ماهية نظريــة التطوّر. عدد الذين يؤيدون النظرية القائلة بأن أحداث ١١ سبتمبر كانت نتيجة مؤامرة بين وكالة المخابرات المركزية والموساد يتجاوز عدد الذين يفقهون ماهية نظرية النسبية بــآلاف المرّات. لقد ضاع بــين ضروب الأصوليين والمؤمنــين بنهاية العالم أشخاصٌ يحاولون إيجاد حلول للمشكلات العالمية، مثل: التصحر، وحرائق الغابات، وفيروس الإيدز، البون شاســع بين هؤلاء وهؤلاء، ولا أكذب لو قلت: إنهم مجرد نقطة في بحر عميق.

تمكين الإنسان المعولم والمضي نحو الكونية

نستشفّ من هذا الحديث شعورًا مؤسفًا قويًا بأن لا حيلة لدينا إزاء المسار التاريخي. بما أننا لسنا من الـ ٩٩,٩٩٩٪ من الطبقة العليا التي وصفها ديفيد روثكوف التي تتحكم بمجريات العالم. تنغمس الحكومات في كلّ مكان في العالم غارقة في صراعاتها على الســلطة، والركود المؤسساتي، والديناميكيات البائســة في كلّ بيروقراطيــة. ينغمس عالم الاســتخبارات بطبيعته في خيال المؤامــرات والعمل السري. عادة مــا تكون دوافع الحكومــات اعتبارات سياســية قصيرة الأمد تعتمد على الولاءات والتحالفات التي يجب الحفاظ عليها بحسب الشعارات الطائشة التي تحرك أنشطتها.

أعتقد أن الأمر يستحق اختيار الطرف الذي تحارب معه؛ أن تدافع عن الشيء ذي القيمة في جنسنا البشري بدلاً من الاستسلام لاحتمال مشاهدة زوالنا ويشمت بنا شوبنهاور. على الرغم من أن الأدلة على عكس ذلك، لا أريد التخلي عن قول سيغموند فرويد: «صوت العقل هادئ الوطأة، لكنه لا يهدأ حتى يجد له من يسمعه».

خذ انتخاب أوباما على سبيل المثال، ولا أقصد أن انتخاب أمريكي من أصول أفريقية رئيسًا للولايات المتحدة معجزة في حدّ ذاته. لكنها ظاهرة رائعة وفريدة جدًا، ذلك لأن أوباما كان أول سياسي يفهم قوة الإنترنت بحق. فقد انتخب الليبراليون باراك أوباما عبر جمع أفكارهم ومواردهم عبر الإنترنت، ولأول مرة فاقت قوة الأفراد كبرى الشركات في العالم، وتفوق المبدأ اللاصفري على مبدأ عدوى المحاكاة الببغاوية.

كانت النتيجة جبارة؛ إذ أحسّ كثيرون من بني الإنسان المعولم، حتى في خارج الولايات المتحدة، أن المبدأ اللاصفري، أو الاعتقاد الكوني بأن الجنس البشري يحتاج إلى التسامي على سلفه الرئيس والقبلي، قد انتصر في نهاية المطاف. ثمة شعور موجود، حتى كتابة هذه السطور، أن باراك أوباما يرقى إلى التوقعات التي ترجو تجسيد روح المواطنة العالمية.

السؤال الذي يطرح نفسه: هل يمكن تكرار هذه التجربة؟ وهل يمكننا التغلّب على ماضينا الحيواني مع ما لدينا من وسائل وصول للمعرفة الإنسانية؟ وهل يمكننا الانتصار على الجهل والتعصّب الأعمى والرؤى التي تحكمها قيود التربية والعادات وضيق الأفق الناجم عن شحّة التدريس وبؤس التعليم؟

ثمة نماذج لمبادرات قد تغير وجهتنا ذات التدمير الذاتي، فقد قدم آل جور Al Gore عملاً مذهلاً في تحويل قضية الاحتباس الحراري إلى قضية عالمية. وأجبرت منظمة السلام الأخضر الجميع على إدراك أننا على وشك تدمير التنوع البيولوجي لكوكبنا. وقدمت مؤسسة بيل وميليندا غيتس نماذج لا بأس بها لكيفية تجاوز بيروقراطيات الحكومات عبر برامج بحثية، وشبكات

توزيع تكافح الآفات العالمية مثل: الإيدز بكفاءة مبتكرة. هل سنتمكن من مواجهة الطبيعة الانقسامية التي ورثناها عن أسلافنا الأوائل يا ترى؟ لا أدري.

لكننا خاسرون في كلّ الاحتمالات: الدمار الذي يقوم به بعض الإرهابيين المتعصبين قد يعود بنا خطوة إلى الوراء تكاد تكون أقرب من الكارثة التي يتوقون إلى إحداثها. وقد تعرقل البيروقراطيات الحكومية من تنفيذ برامج يمكن أن تقلّل من استهلاك الزيوت الأحفورية التي لابدّ أن تتلف الغلاف الجوي للأرض. وقد تسبّب رعونة الزعماء في دول العالم الثالث في تلكؤ الحدّ من التكاثر مع ما لا يمكن فيه للأرض من المحافظة على مواردها.

ومع ذلك لا أستطيع كبح نفسي وأقول: «يا بني الإنسان المعولم في كلّ الأوطان أتحدوا!». قد تكون الفكرة الخلاقة التي تتشاركها في أن البشرية يوحدها القدر، ولا نحتاج إلى التنافس مع بقية الكائنات ونمحوها، يكفي أن نخلق ضربًا جديدًا من ضروب التضامن بين الجنس البشري الذي وقع في مهالك الإبادات الجماعية والخراب البيئي، وإن إعلاء الخلق الفرداني والجمعي الذي يتجاوز الحدود قد يكون أجمل هبة نعالج بها كوكبنا المجروح من أي وقت مضى.



الفهرس

الخوف من الأفول

البحث عن المعنى في القرن الواحد والعشرين

«نحن مثل الفنانين متعددي المواهب الذين لا يمكنهم بدء عملهم من الصفر بوضع »الكانفاس» على الإطار أو وضع صفحة بيضاء في الآلة الكاتبة؛ لأن المواد الخام موجودة فينا، وجزء كبير من عملنا (الحياة) موجود بالفعل، ولا نستطيع المُضيَّ إلا وفق تاريخنا.

إن وضعنا الوجودي أشبه بحال الفنان الذي لم يشترِ المواد اللازمة لابتكاراته وفق خطّة مسبقة إطلاقًا، ولكن مثل متعدد المواهَب، يأخذ المواد الموجودة في متناول يده من هنا وهناك، ثم يبتكر منها ما ملكت يداه.

إن مهمة حياتنا أن نحوّل القصة إلى عمل نختبره بأنفسنا فعلاً؛ لنصبح مؤلفي حياتنا، مع أننا لم نبدأ هذه القصة بخياراتنا».

من الكتاب

هذا الكتاب هو كتابُ حياتنا المعاصرة، إنه كتابُ مخاوفنا وتساؤلاتنا عن المعنى. في زمنٍ قائم على الاصطناع وتفاهة الإشهار. بإسلوب يمزج بين الفلسفةً وعلمً النفس، وبلغة ساحرة، يكتب لنا كارلو سترينجر كتابًا فريدًا يعدّ دواء لهذا القرن.

الناشر

ISBN:978-9953-65-169-9



